موسوعة العلامة الكبير

الشيخ محمد حسن آل ياسين رحمه الله

المؤلفات

أصول الدين

الله بين الفطرة والدليل

العدل الإلهي بين الجبر والاختيار

النبوة

الإمامة

المعاد

المجلد الأول

دار المؤرخ العربي
بيروت

موسوعة العلامة الكبير
الشيخ محمد حسن آل ياسين

موسوعة العلامة الكبير

الشيخ محمد حسن آل ياسين

المؤلفات

(١)

موسوعة العلامة الكبير

الشيخ محمد حسن آل ياسين رحمه الله

المؤلفات

أصول الدين

الله بين الفطرة والدليل

العدل الإلهي بين الجبر والاختيار

النبوة

الإمامة

المعاد

المجلد الأول

دار المؤرخ العربي
بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م

دار المؤرخ العربي

بيروت - بئر العبد - مقابل بنك بيروت والبلاد العربية - بناية مخللة
تلفاكس: (٠١) ٥٤١٤٣١ - هاتف: (٠١) ٥٤٤٨٠٥ - ص.ب: ١٢٤/ ٢٤
البريد الإلكتروني al_mouarekh@hotmail.com
www.al-mouarekh.com

دليل موسوعة العلامة الكبير
الشيخ محمد حسن آل ياسين
المؤلفات

المجلد صفر (٠): سيرته الدراسية والعلمية

المجلد الأول: أصول الدين

- ألله بين الفطرة والدليل
- العدل الإلهي بين الجبر والاختيار
- النبوة
- الإمامة
- المعاد

المجلد الثاني: في رحاب الرسول (ص)

المجلدات الثالث والرابع والخامس: (سيرة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام)

المجلدان السادس والسابع: من المؤمنينَ رجالٌ (سيرة ٢٩ صحابياً).

المجلد الثامن: مفاهيم إسلامية

- في رحاب القرآن
- عباد الرحمن
- نهج البلاغة.. لمن؟
- المهدي المنتظر(عج) بين التصور والتصديق

المجلد التاسع: في رحاب الإسلام

- المادة بين الأزلية والحدوث
- الإنسان بين الخلق والتطور
- هوامش على كتاب نقد الفكر الديني

المجلد العاشر: الأعمال الفقهية

- على هامش كتاب العروة الوثقى
- مذكرات في الفقه الإستدلالي (١ و٢)
- مناسك العمرة المفردة
- بين يدي «المختصر النافع»

المجلد الحادي عشر: أعلام من التراث

- الصاحب بن عبّاد حياته وأدبه
- محمد بن محمد بن النعمان (الشيخ المفيد)
- منهج الطوسي في تفسير القرآن
- السيد علي بن طاووس (حياته، مؤلفاته، خزانة كتبه)

المجلد الثاني عشر: دراسات وصنعات

- **شعر تراثي:**
- ديوان أبي طالب بن عبد المطلب في صنعتين
- من المستدرك على ديوان الخبزارزي المتوفى سنة ٣٣٠ هـ
- ديوان متمم بن نويرة
- ديوان مالك بن نويرة
- **الأعمال اللغوية:**
- صيغة (فَعَّلَ) في العربية
- (فَيْعِلٌ) أم (فَعِيْل)
- ملاحظات في المعجمات المحققة المطبوعة
- المعجم الذي نطمح إليه
- جوهرة الجمهرة للصاحب إسماعيل بن عبّاد ٣٢٦ ـ ٣٨٥ هـ
- مسائل لغوية في مذكرات مجمعية
- (إبريق) لفظ عربي فصيح
- السلسبيل لفظ عربي فصيح

المجلد الثالث عشر: دراسات تاريخية

- تاريخ المشهد الكاظمي
- المعمى والأحاجي والألغاز
- تاريخ الحكم البويهي في العراق
- الأرقام العربية : فوائدها، نشأتها، تطورها
- تاريخ الصحافة الكاظمية
- لمحات من تاريخ الكاظمية
- لمحات من تاريخ الطبري

المجلدان الرابع عشر والخامس عشر: تاريخ الشعر الكاظمي ٣/١

المجلدان السادس عشر والسابع عشر: معجم النبات ٢/١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

بقلم سماحة الأستاذ العلامة السيد مرتضى الحكمي

يتميز الدين الإسلامي بأنه دين فطرة وبرهان: يستمد معارفه من معين الفطرة، ويستقي تعاليمه من منبع الوجدان، وتنطلق عطاءاته من منطق التحليل، ومنطلق الدليل. وكلما تماسك معه الإنسان المسلم تكاملت طاقاته الفطرية، وتمرست في نفسه تأملاته العقلية، وقدراته الذاتية.

والدين الإسلامي يرسم للإنسان المسلم كياناً ذاتياً متكاملاً، ويخطط له رأساً واعياً، وقلباً ذكياً يفقه به الحقيقة، وبصيرة نافذة يدرك بها الهداية، وسمعاً مرهفاً يلتقط الخير، ولساناً مهذباً ينطق بالخير، ومقومات ذاتية عديدة تتكامل بها شخصيته الروحية.

والإسلام يجعل للإنسان المسلم رأس كل معرفة: الإيمان بالله والمخافة منه، كما يجعل الإيمان: بعدله بمثابة قلبه الذي يزن مقومات الحياة، والإيمان: برسالته السماوية بمثابة وعيه الذي يدرك الخير

والشر، وهكذا الإيمان: بمعاده يؤكد في نفسه شعوره بالمصير الخالد، كما تشكل عقيدته: بإمامته مقوماً فكرياً آخر من المقومات التي تبني شخصيته الإسلامة بناء متماسكاً، ويميزها تمييزاً مذهبياً محكماً. وتتكامل برسوخ العقيدة في نفس الإنسان المسلم شخصيته الإسلامية، وتقوم كل عقيدة من هذه العقائد بدور عضوي فعال في أعماق هذه الشخصية تنعكس على حياته الفكرية والسلوكية.

ولذا: انبرى سماحة العلامة الحجة الشيخ محمد حسن آل ياسين يعمل على بناء هذه الشخصية الإسلامية، وتكوينها في نفوس المسلمين على ضوء المفاهيم الإسلامية ومعارفها، متمثلاً ذلك في عدة رسائل علمية إضافية تتميز بالأسلوب العلمي الكاشف.

ولذلك أيضاً: دعاه المرجع الديني الأعلى الإمام الخوئي إلى الخوض في ميادين هذا الجهاد ـ وهو تلميذه النابغ ـ وأناط به مبادرة نشر هذه الرسائل الإسلامية في أصول العقائد وأسسها، وتيسير هذه العقائد غذاء سخياً يقوّت تطلعات الإنسان المسلم، ويسد حاجاته الفطرية إلى العقيدة والدين.

فإلى الإنسان المسلم: هذه المفاهيم الإسلامية الخالدة بأسلوبها التحليلي الرائع، مسددة برعاية مرجعه، وقائد مذهبه. والله الهادي إلى سواء السبيل.

النجف الأشرف

٢٣ رجب ١٣٩٢

الله

بين الفطرة والدليل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

- القرآن الكريم -

❀ ❀ ❀

«كيف يُستدلُّ عليك، بما هو في وجوده مفتقر إليك. أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهرَ لك. متى غبتَ حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك».

- الحسين (ع) -

❀ ❀ ❀

فوا عجباً كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحدُ
وللّه في كل تحريكة ... وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

- شاعر قديم -

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

❀ ❀ ❀

عُنيت البشرية منذ تنسمت أول نسائم الحياة على سطح الأرض بالتفكير في خالق الحياة ومفيضها على هذا الكون الرحيب، وكان حديث الناس عن الألوهية في تلك العصور المغرقة في القدم متماشياً مع ما كانوا عليه من فِطرٍ ساذجة، ومدارك محدودة، وقابليات ذهنية ضيقة الأفق. ثم توسع الحديث وتشعب بفضل التطور العقلي والنمو الذهني للإنسان حتى بلغ أوجه في عصر الفلسفة، عندما لعب الفكر الفلسفي دوره الكبير في هذا الميدان وجال فيه كل مجال، ووضع للإيمان من الأسس الصلبة والركائز الثابتة والقواعد التي لا تقبل النقاش ما بدد بها شكوك الجاهلين وشبهات الجاحدين.

وعندما دخل العلم عهد تطوره الكبير في عصورنا الأخيرة، حاول كثير من حملته أن يستغلوه في محاربة الدين وتشويه العقيدة، فادعوا بأن العلم ينفي وجود الله تعالى، وينفي القاعدة العقلية القائلة بضرورة وجود

خالق لكل مخلوق وموجد لكل موجود، ثم نسبوا كل شيء في الكون لحركة المادة وظهور الصدفة وتخبطات النشوء والارتقاء.

وراجت خلال ذلك شبهات وشكوك، وانتشرت أقاويل وظنون، وشاع التطبيل لأزلية المادة وخلودها. وتعرّض المجتمع المسلم لإعصار عنيف هز الأفكار هزاً، وجرف في طريقه أكثر أولئك الذين قامت عقائدهم على التقليد والاتباع، بعيداً عن الدليل والاقتناع.

❀ ❀ ❀

ولما كنا نؤمن بأن الإسلام لا يمكن أن يصطدم بالعلم والعقل أبداً، لأنه قائم عليهما ومستند إليهما، كان لزاماً أن نبحث موضوع الألوهية على ضوء العلم الحديث الذي أراد المشككون استغلاله في الهدم والتخريب. وكانت خلاصة النتائج التي أدى إليها البحث: أنّ هذا العلم بلغته الخاصة ومنهجه المجرد، وبأحدث نظرياته وأعمق اكتشافاته، قد زادنا إيماناً بالله تعالى، ووضع في أيدينا من الأدلة والبراهين ما لم يكن في متناول السابقين من الكتّاب والباحثين. وأن هذا العلم قد فند ـ بكل صراحة ووضوح ـ سائر دعاوى القائلين بأزلية المادة وآثار حركتها وتطورها في الخلق والإيجاد، وكل مزاعم المعتمدين على الصدفة والاحتمال في ظهور الحياة والموجودات في هذا العلم الكبير.

ورغبة في استيعاب الكتاب وشموله لكل جوانب الموضوع بدأتُ البحث باستعراض موجز لبراهين الفطرة السليمة وأدلة الفلسفة وحجج علم الكلام. ثم عرضتُ ـ بشيء من التفصيل ـ لأسلوب القرآن الكريم في البرهنة على هذه الحقيقة الكبرى، وهو أسلوب فذ بين أساليب الاستدلال، بما جمع من مخاطبة العقل وتوعية الشعور والاعتماد على

الحس والأثر الخارجي. ثم كانت براهين العلم الحديث خاتمة المطاف في هذه الجولة الروحية المترامية الأطراف.

❀ ❀ ❀

وكل ما آمله من وراء هذا البحث أن يكون لي فيه ثواب وأجر، وللقراء الكرام هدى ونفع. والله ولي التوفيق.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

العراق ـ الكاظمية

محمد حسن آل ياسين

البحثُ في وجود إله خالق مدبرٍ للكون؛ وعن أدلة وجود هذا الإله الخالق؛ بحث قديم مغرق في القدم إلى آماده البعيدة النائية؛ وإن اختلفت أشكاله على مر العصور، وتفاوتت أساليبه، وتغايرت أدلته وبراهينه.

والإنسان ـ منذ أصبح إنساناً واعياً شاعراً ـ مجبول على حب التطلع إلى ما وراء الغيب، ومفطور على الرغبة في معرفة مبادىء الأشياء وغاياتها وفهم حقائق كل شيء منها. من أين جاء؟ وكيف صار؟ وإلى أين سينتهي به الطواف؟

وتحت تأثير هذه الفطرة والجبلة تطلع الإنسان إلى الكون، ولم يتوان عن التأمل في أسراره، بمقدار ما يستوعبه عقله وتفكيره في كل دورٍ من أدواره الحضارية ـ على امتداد التاريخ ـ، وكان البحث في وجود المبدأ الأول مفيض الوجود في مقدمة تلك الأسرار الكونية التي حاول فهمها والتأمل فيها بمقدار ما كان يملك من أدوات الفهم والتفكير.

ولما كان إدراك الإنسان لحقائق الأشياء قد نشأ ـ أول ما نشأ ـ محدوداً لا يتعدى دائرة حياته البسيطة الضيقة. ثم تطور وتقدم على مر القرون تبعاً لتطوره وتقدمه في ميادين المعرفة؛ فلا غرابة إذا ما رأينا موضوع الاعتقاد بالإله الخالق الموجد للكون متطوراً متدرجاً بمقدار تدرج الإنسان في نموه العقلي والفكري في تاريخ تطوره البعيد والقريب.

ولهذا نجد في الإنسان ـ منذ عصوره الأولى ـ مَنْ عبد الحيوانات أو الكواكب أو بعض الجمادات معتقداً بأنها (ربه) الذي يحيي ويميت ويخلق ويرزق ويعطي ويمنع، ولم يكفه مجرد العبادة لها أو التصديق بربوبيتها بل جثا تحت أقدامها يقرب لها القرابين ويقدم الأضاحي لتجلب له الخير وتدفع عنه الشر.

لقد رأى الشمس تصنع الحياة والدفء والنمو في الكائنات الحية، بل لا حياة بدونها، فتوهم أنها الله.

ورأى القمر ينير ظلمات الليل للمدلجين التائهين في بطون الصحارى الكالحة، فتخيل أنه الله.

ورأى النجوم ترسل بصيص شعاعها من أغوارها البعيدة وكأنها لغز محير يترك الفكر حائراً مشدوها، فتصور أنها الله.

ثم رأى ـ أخيراً وليس آخراً ـ بعض الحيوانات تمنحه المأكل أو المشرب أو الملبس أو يبدو منها ما يثير الإعجاب من بسالة أو قوة أو ضخامة فاندفع إلى عبادتها على أساس أنها الله.

وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على بساطة هذا الإنسان في تفكيره وسذاجة عقله، كما يدل على إيحاء فطرته السليمة له بضرورة وجود إله موجد لهذا الكون من العدم.

ثم تطورت نظرته إلى هذه الأمور ـ بفضل إرشاد الرسل وهدى الكتب السماوية ـ وتطور شعوره وإدراكه، فعرف بفهمه الفاحص ربَّه الخالق الموجد ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤].

❀ ❀ ❀

إن الفطرة من أهم مصادر معرفة الإنسان بربه وإيمانه به، وقد دفعته هذه الفطرة ـ أو وعيه الداخلي المعبر عنه بـ«اللاشعور» ـ إلى الاعتقاد بضرورة وجود خالق لهذا الكون، خلق الموجودات بعد أن لم تكن، وأودع في كل موجود منها نظامه وقانونه ليقوم بواجبه ويؤدي الغرض الذي خُلق له، بنحو دقيق وسير رتيب ونظام ثابت لا يتبدل ولا يتغير.

لقد فهم الإنسان كل ذلك بفطرته البشرية، وكان دليل هذه الفطرة بسيطاً كبساطتها واضحاً كوضوحها، حيث تؤمن هذه الفطرة بأن كل أثر يدل على مؤثر، وكل موجود يدل على موجد، وأن «البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا يدلان على اللطيف الخبير».

وكمثال على إيحاء الفطرة وسوقها الإنسان إلى الاعتقاد بالله تروى هذه القصة المأثورة التالية:

يروى بأن ملحداً حضر صباح ذات يوم في أحد مجالس بغداد طالباً حضور من يناقشه في إلحاده، فأرسل صاحب المجلس رسولاً إلى أحد المتكلمين للقيام بهذه المهمة، وانتهى الرسول إلى دار ذلك «المتكلم» وأفهمه الواقعة، فطلب من الرسول الرجوع إلى صاحب المجلس وإعلامه بأنه في الأثر.

وبقي الجميع بالانتظار ساعات طويلة كاد أن يتفرق بها المجلس، وإذا بـ«المتكلم» يدخل محيياً ويلتفت إلى صاحب المجلس راجياً منه العذر عن التأخير غير المتوقع لأنه لم يتأخر كل هذه المدة تماهلاً أو رغبة في الراحة، بل رأى وهو في طريقه إلى المجلس عجباً ملك عليه شعوره وإحساسه، فلم ينتبه إلى نفسه وموعده إلا بعد وقت طويل، فجاء مسرعاً عجلاً.

ولما سئل عن هذا العجب الذي أخذ عليه مجامع عقله قال: «لمّا

انتهيت إلى ضفاف دجلة وأنا في طريقي إليكم رأيت شجرة ضخمة تهوي إلى النهر من تلقاء نفسها، ثم شاهدتها تتقطع قطعاً متشابهة متشاكلة منظمة، ثم أبصرت هذه القطع تتلاقى وتتلاحم على شكل زورق، ثم سال عليها القار ودخلت فيها المسامير فأصبحت زورقاً جميلاً رائعاً، ثم رأيت هذا الزورق يقف عند الضفاف من تلقاء نفسه فإذا ركب به الناس سار بلا مجداف ولا سائق حتى يصل إلى الجانب الآخر، فإذا ركب به الناس من ذلك الجانب سار بهم إلى الجانب الأول، وهكذا. وكان هذا هو العجب الذي رأيته وسبَّب لي التأخير».

وما إن أتم كلامه حتى ضحك ذلك الملحد ضحكاً عالياً وقال:

«إني لآسف من تضييع الوقت في انتظار هذا الرجل الذي لم أجد في حياتي من بلغ مبلغه من السخف والحماقة، وهل يمكن في العقل أن تسقط شجرة وتتقطع وتتلاحم وتطلى بالقار ثم تصبح زورقاً ينقل الناس من جانب إلى جانب بدون وجود من يفعل ذلك؟».

فالتفت إليه المتكلم وقال:

«إذا كان وجود زورق بسيط من تلقاء نفسه أمراً غير ممكن عقلاً وفي نهاية الحمق والسخف، فكيف بوجود الأرضين والسماوات والكواكب والكائنات الحية من تلقاء نفسها؟ وهل أكون أنا أشد سخفاً أم أنت؟».

وسكت الملحد مطرقاً برأسه ولم يجد أمامه إلا الاعتراف بالخطأ والغفلة.

وهكذا تملي الفطرة البشرية على الإنسان دليل الاعتقاد، وبهذا الأسلوب البعيد عن غموض براهين الفلسفة ومصطلحاتها وأساليبها المعقدة.

❀ ❀ ❀

أما الفلسفة فكان لها أسلوبها الخاص في البرهنة والاستدلال، وللفلاسفة في هذا الموضوع جولات وجولات انتهوا منها إلى مجموعة من البراهين العقلية المنطقية التي تثبت العقيدة وتعمِّق الإيمان وتدحض الشبهات.

وكان من أوضح تلك البراهين قولهم:

الموجود إن كان واجباً فهو المطلوب، وإلا استلزمه، لاستحالة الدور والتسلسل.

ومعنى ذلك:

إن أي شيء موجود بالبداهة إن كان واجب الوجود فهو المطلوب، وإن كان ممكناً افتقر إلى مؤثر موجود بالبداهة، فذلك المؤثر إن كان واجباً فهو المطلوب، وإن كان ممكناً افتقر إلى مؤثر، فإن كان واجباً فالمطلوب، وإن كان ممكناً تسلسل، والتسلسل باطل.

ولزيادة الإيضاح قالوا:

لا شك في وجود موجود، فذلك الموجود إن كان واجباً لذاته فقد حصل المطلوب، وإن كان ممكناً لذاته افتقر إلى مؤثر، فذلك المؤثر إن كان واجباً لذاته فقد حصل المرام أيضاً، وإن كان ممكناً لذاته افتقر إلى مؤثر، فذلك المؤثر إن كان هو نفس أثره لزم الدور، وهو محال، لأنه حينئذٍ يتوقف كل واحد منهما على الآخر، في حين أنه يجب تقدم المؤثر على الأثر.

وإن كان ذلك المؤثر شيئاً آخر غير أثره فلا يخلو:

١ ـ أن ينتهي إلى موجود واجب لذاته.

٢ ـ أن يتسلسل إلى غير نهاية.

والأول يحصل به المطلوب، والثاني باطل.

وحيث إن كل ممكن لا به له من مؤثر، فهذا المؤثر:

١ ـ إما أن يكون نفسه.

٢ ـ أو أمراً داخلاً فيه.

٣ ـ أو أمراً خارجاً عنه.

والأول محال، لأن المؤثر لا بد أن يكون متقدماً على أثره، ولأن تقدم الشيء على نفسه ممتنع عقلاً.

والثاني محال أيضاً، لأن المؤثر في الشيء مؤثر في كل جزء من أجزائه، فلو كان أحد أجزاء ذلك الشيء مؤثراً في ذلك الشيء لزم أن يكون مؤثراً في نفسه ومؤثراً فيما أثر فيه وكل منهما محال: أما الأول فلامتناع تقدم الشيء على نفسه، وأما الثاني فلاستلزامه الدور وهو باطل.

ولما بطل القسمان الأولان تعين الثالث، وهو أن يكون المؤثر في ذلك الشيء أمراً موجوداً خارجاً عن ذلك الشيء، والخارج عن مجموع الممكنات لا يكون ممكناً لذاته، وإلا لكان داخلاً في جملتها، بل لا بد أن يكون خارجاً عنه، وهو المطلوب.

وفحوى هذا البرهان بعبارة واضحة هو: أنه لما كان لهذا الكون موجد بلا شك لأنه لا يمكن أن يوجد الشيء من العدم، وكان هذا الموجد موجوداً ـ بلا شك ـ لأنه لا يمكن أن يكون وجود الكون مسبباً من أمر عدمي، أي من موجد لا وجود له، فهذا الموجد إما أن يكون واجب الوجود أو لا؟

فإن كان واجب الوجود فقد ثبت المطلوب.

وإن لم يكن واجب الوجود فلا بد له من سبب مؤثر فيه، فإن كان هذا السبب المؤثر واجب الوجود فهو المطلوب أيضاً، وإن لم يكن كذلك فلا بد له من سبب مؤثر أيضاً.

وهكذا ينتهي بنا الأمر إلى الجزم بوجود خالق واجب الوجود هو مصدر الوجود ومودعه في الكون، وإلا لزم أحد أمرين:

١ ـ **التسلسل**: ومعناه أن يتوقف كل موجود على موجد، وهذا الموجد على آخر يوجده، وذلك على موجد أيضاً، وإلى ما لا نهاية له، وقد ثبت في العقل أن التسلسل باطل لأنه لا يوصل إلى نتيجة.

٢ ـ **الدور**: ومعناه أن الموجد المؤثر قد خلق شيئاً هو المعبر عنه بـ«الأثر»؛ وأن يكون ذلك الأثر هو الموجد للمؤثر فيه، وهذا واضح البطلان لأنه ينتهي إلى توقف الشيء على نفسه.

ولما كان التسلسل والدور ـ كما أسلفنا ـ باطلين، فقد ثبت أنه لا بد من الإقرار بوجود صانع موجد واجب الوجود لذاته هو الله تعالى.

❀ ❀ ❀

أما المتكلمون فقد سلكوا طرقاً أخرى في البرهنة على وجود الله تعالى، واعتمدوا فيها على المنهج العقلي الحر، بعيداً عن النقل والتقليد، وكان من جملة براهينهم قولهم:

إن الأجسام وما يجري مجراها حادثة، والذي يدل على حدوثها استحالة خلوها من المعاني المتجددة، وما لم يخل من التجدد يجب أن يكون محدَثاً، فإذا ثبت حدوثها فلتقس على أفعالنا يُعلم أن لها محدثاً.

ومنها:

العالم محدَثٌ كائن بعد أن لم يكن، لأن جميعه فيه أثر الصنعة

من طول وقصر، وصغر وكبر، وزيادة ونقصان، وتغيُّر من حال إلى حال، واستبدال ليل بنهار. والله تعالى خالق ذلك ومنشؤه ومصوره ومبدِؤه، لأن الصنع لا بد له من صانع، والكتاب لا بد له من كاتب، والبناء لا بد له من بانٍ.

وملخص ما نستفيده من هذه الكلمات والأدلة أنه لما كان العالم بما فيه من كائنات وجمادات وأجسام علوية وسفلية حادثاً، أي مسبوقاً بالعدم وقد وُجد بعد أن لم يكن موجوداً، وكانت آثار الوجود بارزة فيه من طول وقصر وزيادة ونقصان وتغير حال واستبدال ليل بنهار وما شاكل ذلك من الآثار الكثيرة التي تدُلُّ دلالة واضحة على كونه حادثاً وُجد بعد العدم.

ولما كان التغير والتجدد الملازم لأجسام الكونية كلها شبيهاً جداً بالتغير والتجدد والتبدل الملازم لأفعالنا وحركاتنا، وكانت أفعالنا الخاصة ـ كما نعلم ونحس ـ غير موجودة من نفسها بل نوجدها نحن بأنفسنا، حيث نوجد الأكل والشرب والحركة والكتابة والقراءة وما شاكلها من أعمالنا اليومية وغير اليومية، علمنا أن هذا الكون بالأجسام الكائنة فيه وما يجري مجراها لا بدّ وأن أنشأه منشىء وصوَّره مصورٌ وخلقه خالق؛ ذلك هو الله تعالى عزَّ شأنه، لأن الصنع لا بد له من صانع، والكتاب لا بدَّ له من كاتب والبناء لا بد له من بانٍ.

ونعود الآن إلى القرآن الكريم لنقرأ ما تضمّنه من براهين، ونقف على ما جاء في طياته من أدلة وشواهد على هذه الحقيقة الخالدة.

وكان اهتمام القرآن بهذا الأمر وبتكرير البراهين عليه بمختلف الوسائل والأساليب يفوق اهتمام كل الكتب السماوية المنزلة، بل لا نجد فيها ما نراه في القرآن من دلائل وشواهد، وإيقاظٍ وتنبيه للعقول الجامدة الجاحدة.

ولعل السبب في ذلك أن التوراة لم تكن مهتمة بإقناع الملحدين والمرتابين، لأنها كانت تخاطب أناساً يؤمنون بإله إسرائيل ولا يشكون في وجوده، فكان اهتمامها كله منصباً على تحذير هؤلاء من غضب الإله ومن عاقبة الإيمان بغيره وتذكيرهم بوعده ووعيده إن نسوا أو تماهلوا في واجباتهم.

وكذلك الأناجيل لم يكن بينها ـ حين ظهورها ـ وبين المذاهب الإسرائيلية نزاع على وجود الله تعالى، بل كان كلُّ الخلاف منصباً على نفاق الرؤساء والكهان واستغلالهم الدين والشعائر في الإثراء وكسب المال وتحصيل الجاه.

ولما ظهر الإسلام ونزل القرآن كان الناس في اختلاف كبير من هذه الناحية، فملحد ومشرك وتابع توراة وإنجيل، ولكلٍ منهم رأيه

الخاص في الرب وطريقة العبادة، فكان لا بد للقرآن أن يولي هذه الناحية اهتمامه الكبير، لأن المخاطبين بالدعوة الإسلامية في حاجة ماسة لإقناعهم بالأمر وإرشادهم إلى طريق الصواب.

ثم لما كان الإسلام خاتم الأديان والقرآن خاتم الكتب وكان مقدراً لهذا الدين وهذا الكتاب الاستمرار في تنظيم شؤون الناس من الناحية العقائدية والدنيوية إلى يوم القيامة، كان لزاماً على القرآن أن يعنى بهذا الجانب كل العناية، فيقيم الأدلة الثابتة على وجود الله تعالى، ويلفت أنظار الملحدين والمشككين والجهال إلى خالق الكون وإلى آثاره العظيمة الجبارة الدالة على وجوده وكماله ـ عز وعلا ـ ويغلق الطريق دون تسرب الشبهات الطارئة بما يورده من أدلة العقل وشواهد الآثار.

وهكذا توجهت كل الآيات القرآنية المعنية بهذا الموضوع إلى عقل الإنسان توقظه من سباته برفق، وتسير به نحو الغاية بتوأدة، وترشده إلى الطريق السوي بلين ويُسر، وتبسط أمامه شواهد الخلق وآثار الصنعة بجلاء ووضوح، وتنبِّهه على دقائق الكون وحقائقه بحكمة وهدوء، وتوصله إلى نتائج هذه الجولة الفكرية بكل أناة وقناعة ويقين.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

لقد توجهت مجموعة من الآيات الشريفة إلى البرهنة على وجود الله تعالى من طريق التأمل في خلق الإنسان وما تضمنه هذا الخلق من تعقيدات وشؤون لا يمكن أن تكون بلا قدرة قادر وتصميم خالق.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩].

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٦ ـ ٨].

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨].

فماذا تضمن خلق الإنسان من عجائب وغرائب وشواهد على وجود الله تعالى؟

يقول العلم الحديث:

إن الإنسان يتكون في أصله من خلية واحدة، وهذه الخلية تكوِّن

الصلب من العظام ونصف الصلب من الغضاريف والرخو من اللحم، وهي نفسها تكوّن اللزج من الأنسجة والسائل من الدماء، وتكوّن ـ بالآخرة ـ الإنسان كله بكل أعضائه وأجزائه وجوارحه، ومنها ينشأ الطويل والقصير والأبيض والأسود على السواء. وهذه الخلية عبارة عن حياة معقدة أمكن للعلم أن يكتشف تراكيبها ويقيس حركتها ويحلل مادتها وطريقة انقسامها، أما سر الحياة فيها فهو ما وقف العلم والعلماء عنده يعترفون بأنَّ هنا الله.

وهذا الجنين في بطن أمّه كيف يتغذّى وكيف يتنفس وكيف يقضي حاجاته وكيف تفرز أجهزته وكيف روعي في الحبل السرّي الذي يربطه بأمه ليتغذى به أن يحقق غرضه؛ بلا طول قد يسبب تخمر الغذاء فيه قبل وصوله إلى الجنين؛ أو قصر قد يؤدي إلى اندفاع الغذاء إليه بما قد يؤذيه؟

وعندما يبلغ الحمل نهايته تفرز غدد الأنثى إفرازات كثيرة متعددة الأغراض، منها ما يساعد على انقباضات الرحم وتقلصاته، ومنها ما يسهل عملية انزلاق الجنين، ومنها ما يعمل على مساعدة المولود في أن يكون نزوله بالوضع الطبيعي. وباعتبار أن الثدي غدة فهو يفرز في نهاية الحمل وبدء الوضع سائلاً أبيض يميل إلى الصفرة، ومن عجيب الصنع أن هذا السائل عبارة عن مواد كيماوية ذائبة تقي الطفل من عدوى الأمراض. وفي اليوم التالي للولادة يبدأ اللبن في التكوين، ومن تدبير المدبر الأعظم أن يزداد مقدار اللبن الذي يفرزه الثدي يوماً بعد يوم، بل إن تركيب اللبن تتغير نسب مكوناته وتتركز مواده، فهو يكاد يكون ماءاً به القليل من النشويات والسكريات في أول الأمر، ثم تتركز مواده فتزيد نسبته النشوية والسكرية والدهنية فترة بعد أخرى.

وبتزايد نموّ الطفل تبدأ الأسنان في الظهور لتهيئة الطفل لتناول

الطعام، والأسنان نفسها تعتبر آية من آيات وجود الله، فهي تختلف من قواطع في وسط الفم وقرب فتحته لقطع الطعام؛ إلى أنياب بجانبها للمعاونة في تمزيقه؛ ثم أضراس صغيرة فكبيرة على كل جانب لهرس وطحن الطعام. وقد حاول العلماء جاهدين عند محاولة صنع الأسنان الصناعية أن يستنبطوا طريقة أخرى أو يغيروا من وضع الأسنان فاعترفوا بقدرة الخالق عندما قرروا أن أبدع وأكمل نظام يمكن للأسنان أن تكون عليه هو النظام الطبيعي، فلذلك صنعوا «أطقم» الأسنان على شاكلة الأسنان الطبيعية.

وعندما يحجب الطفل عن الرضاعة ويبدأ في الأكل تظهر آيات الله أكثر فأكثر بما يشاهد من جليل الصنع على تهيئة الإنسان بما يحقق له حفظ حياته، فنجد في فم الإنسان فتحات الأنف الداخلية وفتحة التنفس في أول القصبة الهوائية وفتحة البلعوم أول القناة الهضمية، ويقول العلم: إن أية ذرة من غبار تضل طريقها وتصل إلى القصبة الهوائية لا بد أن تطرد، وما السعال إلا محاولة لطرد غبار وصل إلى القصبة الهوائية، فكيف تدخل ـ إذن ـ البلعة الغذائية إلى فتحة القناة الهضمية ولا تدخل في فتحة القصبة الهوائية برغم تلاصق فتحتيهما، علماً بأن أي ذرة من الغبار ـ فضلاً عن الأكل والشرب ـ تقتحم القصبة الهوائية تفضي إلى الموت. نعم: تدفع اللهاة إلى أعلى عند البلع ويسد ما يسمى بـ«اللسان الصغير» طريق التنفس حتى تدخل البلعة الغذائية، ولم يحدث أن أخطأ هذا اللسان الصغير في عمله على الرغم من أنه ينظم المرور في هذه المنطقة وبين هذه الفتحات آلاف المرات في كل يوم.

ويتم هضم الغذاء أي تحويله من مواد صلبة معقدة إلى أخرى سائلة سهلة الامتصاص بعمليات دقيقة غاية الدقة تقدم خير دليل على وجود الله، فكل ما يأكله الإنسان من صلب وجامد وسائل ولزج ومر

وحلو وثقيل وخفيف وحرّيف ولاذع وساخن وبارد، كلها تهضم بمواد واحدة وطريقة واحدة، وهذه المواد التي يتغذاها الإنسان على اختلافها يتلقاها جسم الإنسان فيدفعها في طريقها المرسوم لتصب عليها الغدد إفرازاتها الحمضية وعصارتها ذات التركيز المقدر الذي لو قل قليلاً لما هضم الطعام ولو زاد زيادة طفيفة لاحترق الجسم.

وتدخل البلعة الغذائية في الفم فتبدأ أولى مراحل الهضم، وذلك بخلط الغذاء باللعاب الذي تفرزه الغدد اللعابية. وهذا اللعاب أول مراتب الهضم لاحتوائه على خميرة خاصة؛ ولمساعدته على خفض درجة حرارة الطعام إن كان ساخناً وكسر حدة برودته إن كان مثلجاً، كما أنه عامل أساسي في معادلة المواد الحريفة وتخفيف أثر التراكيب اللاذعة، وتنزلق بعد ذلك اللقمة أو البلعة مختلطة باللعاب إلى البلعوم فالمريء ثم المعدة التي تفرز حامض الكلورودريك ذا النسبة الخاصة المعدَّة بعناية، فتبلغ درجته من أربعة إلى خمسة في الألف، ولو زاد تركيز هذا الحامض على ذلك زيادة طفيفة لأحرق أنسجة المعدة حرقاً تاماً، وتتوالى بعد ذلك الإفرازات والعصارات في مختلف أجزاء الجهاز الهضمي الكبير، فهذه عصارة الأمعاء، وتلك إفرازات الصفراء والبنكرياس وغيرها، وكلها إفرازات تلائم حالة الغذاء الذي وصل إليها.

ولم تعرف إلا منذ سنين قليلة وظائف الغدد المسماة بالغدد الصماء، تلك المعامل الكيماوية الصغيرة التي تمد الجسم بالتركيبات الضرورية، والتي تبلغ من قوتها أن جزءاً من بليون جزء منها لو اختل لأحدث آثاراً في الإنسان. وهي مرتبة بحيث إن إفراز كل غدة يكمل إفراز الغدة الأخرى، وإن أي اختلال في إفرازها قد يبلغ حد الخطورة إذا دام مدة من الزمن.

ومن أعجب ما يلفت النظر ما قرره العلم من أن للأمعاء الدقاق

التي يبلغ طولها ستة أمتار ونصف حركتين لا إراديتين: الأولى حركة خلط مستمر هدفها مزج الطعام بمختلف عصارات الأمعاء وخمائرها مزجاً تاماً حتى يكون الهضم عاماً، والحركة الثانية: عرض الطعام المهضوم على أكبر مساحة ممكنة في الأمعاء كي تمتص منه أكبر قدر ممكن، ثم يأتي بعد ذلك دور الهضم في الأمعاء الغلاظ التي تفرز آخر أجزاء المواد المهضومة حتى لا تخرج من الجسم إلا الفضلات التي لا فائدة منها للإنسان.

وفي جسم الإنسان بالإضافة إلى هذه المواد الكيماوية المعقدة والمختلفة ميكروبات وجراثيم وبكتريا، ويقول المختصون: أنه إذا زاد عدد نوع منها عن المقدر له أو قل عمل نوع آخر أو اختلفت نسبة هذه الأحياء بعضها لبعض فإن ذلك يؤدي إلى الهلاك.

وهذه الأحياء تفرز إفرازات وتقوم بنفسها بتحويل الغذاء العسر إلى يسر والصعب إلى سهل والمعقد إلى بسيط والضار إلى نافع. ولمعرفة ماهية هذه الاحياء يكفي أن نعلم أن العلماء قد قدروا عدد الموجود منها بالمعدة بحوالي مائة ألف في السنتيمتر المكعب الواحد.

ويغلف الجسم ستار محكم بديع هو الجلد، وعلى الرغم من كونه ذا مسام تفرز الماء إلى خارج الجسم فإنها لا تمتص الماء إلى داخل الجسم مطلقاً. ولما كان الجلد معرضاً لهجمات الميكروبات والجراثيم التي تسبح في الجو فقد تم تسليحه بإفرازات قادرة على قتل تلك الميكروبات، أما إذا تغلبت الجراثيم واجتازت منطقة الجلد فهنا تبدأ عملية حربية منظمة تسرع إليها فرقة حراس الحدود وتضرب حصاراً شديداً حول عدوها المغير فإما أن تهزمه وتطرده خارج الجسم وإما أن تندحر وتموت هذه الفرقة فتتقدم فرقة أخرى وأخرى وهكذا حتى النصر،

وهذه الفرق هي كريات الدم التي يبلغ عددها حوالى ثلاثين ألف بليون كرة بين بيضاء وحمراء، فإذا رأيت بثرة حمراء وفيها صديد على الجلد فاعلم أن صديدها أشلاء فرق ماتت في سبيل أداء واجبها، وأن الاحمرار هو كريات دم في صراع مع عدو غادر. كما أن من أهم وظائف الجلد حفظ الجسم عند درجة ثابتة من الحرارة.

وهكذا نجد فيما سلف وفي غيره من عجائب أجهزة الإنسان في سمعه وبصره وشمه وذوقه وعظمه وعصبه وعضله ودورته الدموية وكليته ما يدهش الفكر ويقيم ألف دليل ودليل على أن هذا النظام الدقيق في هذا الجسم لم يخلق عشوائياً ولم يوجد صدفة ولم يحدث نتيجة حركة المادة الصماء العمياء المتخبطة.

واتجهت مجموعة أخرى من الآيات الشريفة إلى البرهنة على وجود الله تعالى من طريق بيان خلق الحيوان وما اشتمل عليه من دقة ونظام لا يمكن تحققهما عفوياً وعلى سبيل المصادفة والاحتمال مطلقاً.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [النور: ٤٥].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [فاطر: ٢٨].

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الملك: ١٩].

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥ ـ ٨].

يقدر العلماء فصائل الحيوان بأكثر من مليوني فصيلة.

والأماكن التي تعيش فيها هذه الفصائل مختلفة، منها البر ومنها البحر، وللبر والبحر مجالاته المختلفة لسكنى الحيوانات المختلفة، وقد

اختلفت أجهزة هذه الحيوانات تبعاً لذلك اختلافاً كبيراً، بحيث تلائم البيئة التي تعيش فيها، والغذاء الذي يتوفر لها.

والفهم هو أول مراحل الهضم، وقد صُمم تصميماً عظيماً يدل على عظمة مصمِّمه وموجده. فالحيوانات كالآساد والذئاب وما كان على شاكلتها من الحيوانات التي تعيش في الصحارى والفلوات ولا غذاء لها إلا ما تفترسه من كائنات لا بد من مهاجمتها، فقد زُوِّدتْ بأنياب قاطعة وأسنان حادة، ولما كانت في هجومها محتاجة إلى استعمال عضلاتها كانت لأرجلها عضلات قوية سُلِّحت بأظافر ومخالب حادة وحوت معدها الأحماض والمواد الهاضمة للحوم والطعام.

ومن الحيوانات أصناف تعيش على المراعي، ويُعنى بها الإنسان فيوفر لها غذاءاً قوامه النباتات والشجيرات والحشائش، وقد صممت أجهزتها الهاضمة بما يتناسب مع البيئة، فأفواهها واسعة نسبياً، وقد تجردتْ من الأنياب القوية والأضراس الصلبة، وأُعطيتْ بدلاً منها الأسنان التي تكون ميزتها القضم والقطع، فهي تأكل الحشائش والنباتات بسرعة، وتبتلعها بسرعة دفعة واحدة. وقد صُنع لهذه الأصناف أعجب أجهزة للهضم، فالطعام الذي تأكله ينزل إلى الكرش وهو مخزن له، فإذا ما انتهى عمل الحيوان وجلس للراحة ذهب الطعام من الكرش إلى تجويف آخر، ثم عاد إلى الفم ليمضغ ثانية مضغاً جيداً، حيث يذهب بعد ذلك إلى تجويف ثالث ثم رابع. وكل هذه العملية الطويلة أعدت لفائدة الحيوان، ويقول العلم: إن عملية الاجترار ضرورية وحيوية، لأن العشب من النباتات العسرة الهضم لما يحتويه من الألياف (السليلوز) الذي يغلِّف جميع الخلايا النباتية، ولهضمه يحتاج الحيوان إلى وقت طويل جداً، فإن لم يكن مجتراً وبمعدته مخزن خاص لضاع وقت طويل في الرعي يكاد يكون النهار كله دون أن يحصل الحيوان من تلك

الأعشاب على ما يشبعه، ولأجهد نفسه في عمليات التناول والمضغ. وسرعة الأكل وتخزينه ثم إعادته بعد أن يحصل على شيء من التخمر هي التي تجعل من هذه المواد غذاءاً نافعاً محققاً لأغراضه.

أما الجهاز الهضمي للطيور فإنه يختلف اختلافاً كبيراً عن جهاز الأصناف السالفة الذكر، إذ يمتد من رأس كل طائر جزء صلب خال من الأسنان عظمي التركيب هو المنقار الذي يستخدم في التغذية بدلاً من الفم والشفتين والأسنان عند سائر الحيوان، فيبتلع الطير غذاءه بلا مضغ.

وتختلف مناقير الطيور باختلاف أنواع غذائها، فالطيور الجارحة ذات منقار قوي مقوّس حاد لتمزيق اللحوم، بينما تكون للبط والوز مناقير عريضة منبسطة كالملعقة أو المغرفة توائم البحث عن الغذاء في الطين والماء، وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش. أما الدجاج والحمام وباقي الطيور التي تلتقط الحب من الأرض فمناقيرها قصيرة مدببة بالشكل الذي يؤدي الغرض.

ومن أعمق النواحي التي نستطيع أن نلمس بها التصميم والتنظيم العظيم للخلق ما نشاهده في أرجل الحيوانات: فتلك التي من خصائصها الجر والجري والحمل نرى أن أرجلها قوية لتساعدها على الجري السريع؛ كما تنتهي كل رجل بحافر صلب يحمي الرجل مما قد يصيبها من كثرة الجري أو وعورة الطريق.

أما البقر والجاموس فأرجلها قصيرة قوية تنتهي بأظلاف صلبة مشقوقة لتساعدها على السير في الأراضي الزراعية اللينة، بينما أرجل الجمل تنتهي بأظلاف مشقوقة تحتها وسادة ليِّنة سميكة تسمى «الخف» لتمنع القدم من الغوص في الرمال، وعلى أرجله كذلك أربطة من جلد خشن تحميه من الحصى والرمال عندما يبرك.

وأقدام الطيور تختلف كذلك باختلاف طبيعتها، فالطيور التي تتغذى على اللحوم نجد لقدميها مخالب قوية حادة؛ وهي منثنية بما يساعدها في القبض على الفريسة؛ كالصقر والنسر، وأما تلك التي تتغذى على الحبوب كالدجاج والحمام فأقدامها ذات أظافر مدببة تصلح للنبش في الأرض. والطيور التي يستلزم أمر تغذيتها البحث عن غذائها في الماء تتصل أصابعها بغشاء جلدي تستعمله كالمجداف في سباحتها.

ومن عجائب الخلقة الإلهية ما نجده في الضفدعة، فإن لسانها أطول لسان لكائن حي تقريباً، إذ يبلغ طوله نصف طولها، وقد أُعدَّ بما عليه من مواد لزجة لصيد الذباب، فهي تقف حتى يقرب منها الذباب فإذا بها تمد لسانها ليلتصق به عدد من الذباب الذي يعتبر غذاءها الرئيس.

ومن أعجب ما يلاحظ في الضفدعة أنّها لما لم يكن لها عنق تستطيع أن تحرك رأسها بواسطته لترى ما حولها فقد هُيئت لها عيون بارزة تتحرك في كل الاتجاهات.

ومن طريف ما يؤكده العلم حالياً أن معظم الحيوانات الثديية تمتاز بحاسة شم قوية حادة وحاسة بصر ضعيفة، بخلاف الطيور فإنها ذات بصر قوي وشم ضعيف، وما ذلك إلا لأن الأولى تهتدي إلى غذائها الذي يكون دائماً على الأرض في طريقها بحاسة الشم؛ بينما الطير وهو في السماء بحاجة إلى حدة في بصره ليرى غذاءه من بعد مرتفع.

وللسمك حاسة غريبة هي حاسة تفادي الاصطدام بالصخور والحواجز في ظلمات البحار، وقد قرر العلماء بعد دراستهم لهذه الظاهرة أنهم رأوا في السمك خطّاً طولياً على جانبيه، وهذا الخط عندما يلاحظ بالمجهر يُرى أنه مجموعة أعضاء دقيقة حساسة إلى درجة كبيرة،

تحس بوجود حاجز أو صخرة من اختلاف ضغط الماء نتيجة اصطدامه بالحاجز، فتغيِّر السمكة طريقها.

وأما الخفاش فقد أدهش العلماء أمره، فهو عندما يطير في ظلام الليل لا يصطدم بمبنى أو شجرة أو أي شيء من الأشياء البارزة في طريقه وقد قام أحد العلماء الإيطاليين بالتحقق من هذه القدرة؛ فعلق في سقف غرفة عدداً من الحبال؛ وفي نهاية كل حبل جرس صغير يدق إذا لامس الحبل شيء؛ ثم أعتم الغرفة إعتاماً كاملاً وأطلق خفاشاً فيها، وطار الخفاش ودار في الغرفة مراراً ولم يدق أي جرس، ومعنى ذلك أنه لم يصطدم بأي حبل من تلك الحبال المعلقة في الغرفة. وكان خلاصة ما استنتجه العلماء من هذه الظاهرة أن هذا الحيوان يرسل اهتزازات تردُّ إليه بالتصادم مع أي جسم يقابله فيحس به، وأن طريقة معرفته وإحساسه بالعقبات هي نفس طريقة الرادار بالذات.

وأما الجمل فهو كذلك مفعم بآيات العظمة الإلهية؛ بالشكل الذي يعطينا الفهم الكامل لما أرشدنا الله تعالى إليه بقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧].

ولما كان مجال عمل هذا الحيوان وعيشه هو الصحراء فقد خُلق قادراً على اكتناز ما يكفيه من الطعام والشراب لمدة طويلة في سنامه، لكي يستطيع مجابهة جوع الصحراء وعطشها، كما خلقت له ـ لهذا الغرض ـ تلك الأهداب الطويلة التي تلتف حول عينيه والتي هي أشبه ما يكون بشبكة تحمي عينيه من ذرات الرمال عند هبوب العواصف الرملية، وفي الوقت نفسه يستطيع الرؤية من خلال تلك الشبكة فلا يضطر إلى إقفال عينيه كما نفعل عند انتشار الغبار.

وكذلك رجله ذات الخف الملائم للسير في الرمل بلا غوص فيه،

وأنفه الذي يستطيع التحكم في فتحته أثناء العواصف ليمنع دخول الرمال فيه، وشفته العليا التي خلقت مشقوقة لكي تساعده على أكل نباتات الصحراء التي غالباً ما تكون أشواكاً.

وأما النمل ففيه من آيات الله الشيء الكثير، وقد أوتي من الفهم والصبر والحس ما لا يتصوره المتصور عند مشاهدة حجمه وجسمه الصغير، ولعل مدينته من أبرز المدن التي تستحق الدراسة والإمعان، لما فيها من دقة بالغة وتعاون عجيب ونظام رتيب متناه في الدقة والإدراك.

وللحيوان ـ بعد ذلك أو قبله ـ لغة للتفاهم والتخاطب وكان القرآن المجيد قد لفت الأنظار إلى ذلك حين نزوله، حيث جاء فيه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، ثم جاء العلم بعد نزول هذه الآية بقرون وقرون ليثبت هذه الحقيقة بالمشاهدة والاطلاع.

ولغة كل فصيلة من فصائل الحيوانات تختلف عن الأخرى، فهذه هي الدجاجة ـ وهي أكثر الحيوانات معاشرة لنا ـ تصدر في بعض الأحيان أصواتاً خاصة مميزة، فنرى صغارها تقبل في سرعة تلتقط معها الحب، ثم تصدر أصواتاً أخرى خاصة فإذا بالصغار تهرول إلى العش في لحظة.

والنحلة إذا عثرت على حقل مزهر عادت إلى الخلية، وما أن تتوسطها حتى تتحرك بطريقة خاصة فإذا بالنحل يندفع إليها ويسير خلفها إلى حيث تهديه النحلة إلى الزهور.

ويقول أحد العلماء: أنه أجرى اختباراً على النمل، حيث شاهد نملة خارجة لوحدها من جحرها، فأخذ ذبابة ولصقها على فلينة بدبوس وألقاها في طريق النملة، فما أن عثرت عليها حتى أخذت تعالجها بفمها

وأرجلها مدة تزيد على العشرين دقيقة تيقَّنت بعدها عن عجزها، فعادت أدراجها إلى جحرها، وبعد ثوان معدودة خرجت النملة تتقدم مجموعة من النمل من أخواتها حتى انتهت بهم إلى الذبابة، فوقعوا عليها يمزقونها تمزيقاً، وعاد النمل إلى جحره وكل منه يحمل جزءاً من الذبابة. فالنملة الأولى كانت قد رجعت إلى زميلاتها ولم يكن معها شيء قط، فكيف استطاعت أن تخبر باقي النمل بأنها وجدت طعاماً سائغاً ما لم يكن قد تم ذلك بلغة خاصة؟

وقد لوحظ أن أسراب الفيلة لا تكف لحظة عن غمغمة طالما هي تسير في رهط، فإذا تفرقت الجماعة وسار كل فيل على حدة انقطع الصوت.

وأصوات الغراب متميزة تمييزاً واضحاً، فنعيبه أكبر دليل على الخطر، وهو يصدره ليحذر أبناء جنسه، بينما يصدر في أثناء المرح أصواتاً أخرى تقرب من القهقهة.

وليست اللغة وقفا على أنواع الحيوان السالفة الذكر، بل إن لكل صنف من أصناف الحشرات لغة أيضاً، فالعنكبوت ـ مثلاً ـ يتخذ من خيوطه وسيلة للتحدث مع أنثاه، فيقف الذكر على طرف الشبكة ويجذبها؛ فتخرج الأنثى لاستقباله أو ترد عليه بأن تجذب هي الخيوط بطريقة مخالفة؛ وكأنهما يتبادلان حديثاً تلفونياً خاصاً.

وإذا عدنا إلى الدجاج لنقرأ في دنياه شواهد الصنعة الإلهية رأينا العجب العجاب، وحسبنا من كل ذلك أن نطلع على الحقيقة الآتية:

خطر لعالم أمريكي أن يستفرخ البيض بلا حضانة الدجاج، وذلك بأن يضع البيض في نفس الحرارة التي يحصل عليها البيض من الدجاجة الحاضنة له، فلما جمع البيض ووضعه في جهاز التفريخ نصحه فلاح أن

يقلب البيض بين آونة وأخرى؛ إذ إنه رأى الدجاجة تفعل ذلك، فسخر منه العالم وأفهمه أن الدجاجة إنما تقلب البيض لتعطي الجزء الأسفل منه حرارة جسمها، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة. واستمر هذا العالم في عمله حتى جاء أوان الفقس وجاوز ميعاده ولم تفقس بيضة واحدة، وأعاد التجربة بعد أن طبق كلام الفلاح فصار يقلب البيض، حتى إذا ما جاء موعد الفقس خرجت الفراريج.

وآخر تعليل علمي لتقليب البيض أن الفرخ حينما يخلق في البيضة ترسب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه، فإذا بقي بدون تحريك تتمزق أوعيته، ولذلك فإن الدجاجة لا تقلب البيض في اليوم الأول والأخير، وهل يمكن للدجاجة أن تفهم هذه الأسرار لولا الإلهام الذي عجز الإنسان عن معرفته؟

أما عالم الحشرات فإن التأمل فيه مما يثير الدهشة البالغة والعجب الكبير، ولعل وقفة صغيرة عند «المعرفة الغريزية» لدى الحشرات تكفينا عناء التفصيل والتطويل:

إن «حشرة أبي دقيق» تختار أوراق الكرنب لتبيض عليها مع أنها لا تتغذى على الكرنب ولا تحتاج له، وإنما تقودها إلى ذلك معرفة غريزية باطنة فالبيض سوف يفقس وسوف تخرج ديدان صغيرة لا تأكل سوى الكرنب، فيجب أن تبيض هذه الحشرة على ورق الكرنب ليجد الصغار ما يأكلونه. ومع ذلك فحشرة أبي دقيق لا تعرف هذه المسألة معرفة عقلية واعية.

وزنبور الطين يصطاد الدودة ثم يبيض عليها بيضة واحدة، ثم يضعها في العش ويمضي باحثاً عن حصاة، حتى إذا وجدها حملها بين

ذراعيه وأغلق بها باب العش. وتفقس البيضة لتجد اليرقة الصغيرة طعامها جاهزاً بين يديها.

والبعوضة التي تضع بيضها على سطح الماء فتزود كل بيضة بكيسين من الهواء تطفو بهما على السطح هل تعرف قوانين أرشميدس؟

والحشرة التي يسمونها في علم الحشرات «قاذفة القنابل» والتي تتهادى أمام الحيوانات المفترسة دون خوف أو وجل، حتى إذا فتح أحدها فمه ليلتهمها ضغطت على كيس في بطنها فامتزجت في لحظةٍ إفرازات ثلاث غدد تحتوي على مادة الهيدروكينون وفوق أكسيد الهيدروجين وأنزيم خاص. ويؤدي اختلاط الثلاثة إلى تفاعل شديد وخروج غاز لاسع كريه الرائحة فيفر الحيوان المفترس رعباً. هل أخذت هذه الحشرة دبلوماً في الكيمياء من كامبريدج.

والحشرات التي تنصب الفخاخ من خيوط الحرير.

والحباحب التي تضيء بالليل لتجذب البعوض ثم تأكله.

وحشرات الماء التي تسبح في الماء بأذرع كالمجاذيف وتطير في الهواء بأذرع مجنحة.

وخلاصة القول: إن في دنيا الحيوان من العجائب والغرائب ـ وكلها شواهد الخلق والإبداع والصنع المتقن ـ ما لا يمكن حصره بصفحات كهذه الصفحات، وما ذاك إلا «صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه» تعالى عما يقول المنكرون الجاحدون علواً كبيراً.

وهناك مجموعة أخرى من الآيات المباركة تكفلت البرهنة على وجود الله وإيجاده من طريق الحث على التأمل في دنيا النبات؛ وإنزال الماء من السماء، وعجائب الأفلاك والسماوات والأرض، حيث لا يمكن وجود كل ذلك وخضوعه لمثل هذه السنن والقوانين من تلقاء نفسه.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٥].

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة ٧١، ٧٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣].

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠].

النبات عالم قائم بذاته، ما زال العلماء المختصون به مستمرين على دراسته، وما زالوا يشاهدون في كل يوم جديداً لم تسبق لهم معرفته.

وفصائل النبات تقرب من نصف مليون في العدد، وهي مختلفة في التراكيب والتزاوج والأعمار إلى أبعد الحدود. ومن النبات ـ من ناحية العمر ـ ما يعمر أياماً، ومنه ما يعمر سنين، ومنه ما يعمر أضعاف أضعاف عمر الإنسان.

وينبت النبات عموماً من بذرة تتوافر لها ظروف خاصة أهمها حيوية الأجنة فيها، وتحافظ البذور على حيويتها لمدة طويلة، ويجب توافر الماء الضروري للنبات والحرارة المناسبة ـ وكل بذرة تنبت في درجة حرارة معينة ـ. والهواء ضروري للنبات لأنه كائن حي يعيش ويتنفس.

وإذا استنبتت البذرة وخرج الجنين الحي مكوناً جذراً صغيراً بدأ يتغذى من الغذاء المدخر في البذرة حتى يستطيل عوده ويضرب في الأرض ليأكل منها، شأنه في ذلك شأن الجنين في الإنسان والحيوان يتغذى من أمه وهو في بطنها، ثم من لبنها، ثم يستقل عنها ويعتمد على نفسه في غذائه، فهل غير الله أودع في البذرة الحياة؟.

أما جهاز النبات الغذائي فيعتمد أولاً على الجذور، وهي أول أجزاء جهاز النبات الغذائي، ويختلف بعضها عن بعض اختلافاً بيناً بالنسبة إلى اختلاف حاجات النبات، فهناك الجذور الوتدية والدرنية والليفية الهوائية والتنفسية، وكل هذه الأشكال والاختلافات إنما خلقت لتتواءم مع إمكان حصول النبات على حاجته من الغذاء.

وتنمو الجذور وعليها الشعيرات الجذرية التي تمتص المحاليل

الأرضية فتنتقل العصارة إلى أعلى، وبهذه الطريقة يتغذى النبات وينمو، ولا بد لنموه من وجود الضوء والماء والعناصر الأخرى الضرورية كالكاربون والأوكسجين والفسفور والكبريت وعديد غيرها.

والنبات يتنفس فيأخذ الأوكسجين ويطرد ثاني أوكسيد الكاربون، مثله في ذلك مثل الإنسان والحيوان، ويصحب تنفس النبات ارتفاع في درجات الحرارة، ويتم التنفس ليلاً ونهاراً، إلا أنه في النهار غير ظاهر النتيجة بالنسبة لعملية التمثيل الكاربوني التي يجريها النبات بسرعة أكثر من عملية التنفس، فيخرج الأوكسجين ويمتص ثاني أوكسيد الكاربون.

وقد دلت الأبحاث على أن عملية التمثيل الكاربوني كفيلة وحدها باستهلاك ثاني أوكسيد الكاربون الموجود في الكون لو أن الأمر اقتصر عليها، ولكن الخالق العظيم جعل الكائنات الحية الأخرى تخرج في تنفسها ثاني أوكسيد الكاربون؛ كما أن الأجسام الميتة في تحللها تخرج هذه المادة أيضاً؛ وكذلك بعض التفاعلات الأخرى.

ولم يترك أمر استهلاك وإنتاج هذه المادة حراً يحتمل الزيادة والنقصان، بل قضت حكمة الخالق أن تكون نسبة ثاني أوكسيد الكاربون في الجو دائماً من ثلاثة إلى أربعة أجزاء في كل عشرة آلاف جزء هواء. وإن هذه النسبة ينبغي أن تكون ثابتة على الدوام لاستمرار عمران الكون، ولم يحدث قط ـ مهما اختلفت عمليات الاستهلاك وعمليات الإنتاج ـ أن اختلفت هذه النسبة أبداً.

أما الماء فهو في طليعة المواد الضرورية التي لا يمكن الاستغناء عنها مطلقاً لسائر الكائنات الحية ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فهو مصدر رئيس من مصادر الحياة، وقد حث القرآن المجيد على التأمل في هذا السائل العظيم وضرورته وأهميته، بل طلب من الناس أن يدركوا من إيجاد الماء وتهيئته على سطح الكرة الأرضية دليل وجود الخالق المبدع وإيجاده للكائنات كلها.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٢٤].

ويقول العلماء: إن البحار أساس الماء العذب ومصدره، وماء البحر مالح لا تطيق الكائنات الحية الأرضية استعماله، وبالتالي لا يصلح للمحافظة على حياتها، ولذلك هيأ الله تعالى لعباده وسائر مخلوقاته عملية التصفية والتقطير بواسطة المطر، وأصبح المطر هو الناقل لماء البحر من واقعه المالح الأول إلى واقعه العذب الجديد.

وهكذا أنزل الله تعالى من السماء ماءاً ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ولو شاء لأبقاه أجاجاً مالحاً

على حقيقته الأولى كما قال جل وعلا. هذا مع العلم بأن الملوحة ضرورية لماء البحر ضرورة العذوبة لنا، وذلك لأن البحر وإن كان من حيث العمق والسعة بالغاً حداً كبيراً جداً؛ ولكنه ـ على الرغم من ذلك ـ مغلق محدود وماؤه راكد واقف، ولو لم يكن مالحاً لتعفن وفسد على مرور السنين والأعوام.

والبحار آية من آيات الله الكبرى، فهي تشغل ثلاثة أرباع سطح الأرض، وفيها من أصناف الكائنات الحية أكثر مما هو موجود على اليابسة، وتختلف هذه الكائنات الموجودة فيها اختلافاً كبيراً، ابتداءاً من تلك الحيوانات الصغيرة التي يوجد في المتر المكعب الواحد عشرات الألوف منها، وانتهاءاً بتلك الحيتان الضخمة المزودة بالأنابيب الحادة والقوى غير المتصورة التي تستطيع بواسطتها مهاجمة المراكب بل تحطيمها، وصدق العلي العظيم حيث يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

ولو عدنا إلى التأمل في هذه السماء الزرقاء المحيطة بنا وإلى ما يسبح فيها من كرات وكواكب وإلى ما يتلألأ على صفحتها من نجوم وأقمار. لو تأملنا وفكرنا في ذلك لسيطر علينا العجب ولعاد الطرف خاسئاً وهو حسير، ولهذا نجد القرآن المجيد يحثنا على النظر في ذلك لنصل منه إلى النتيجة الخالدة الكبرى؛ وهي أن كل هذه العجائب لا يمكن أن توجدها صدفة متخبطة أو احتمال موهوم أو مادة عمياء:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣].

إن مجموعتنا النجمية تشمل مائة بليون نجمة تقريباً، منها ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، ومنها ما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، ومنها ما يحس العالم الخبير بوجوده دون أن يستطيع رؤيته، هذه كلها يعج بها

الفلك الغامض البعيد، ولا يوجد أي احتمال لاقتراب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر؛ أو اصطدام كوكب بآخر؛ إلا كما يحتمل تصادم باخرة في البحر الأبيض المتوسط بأخرى في المحيط الهادي يسيران باتجاه واحد وسرعة واحدة.

ويقرر العلم أن سرعة الضوء هي (١٨٦) ألف ميل في الثانية، ومن النجوم ما ترسل ضوءها فيصل إلينا بسرعة، ومنها ما يصل في شهور، ومنها ما يصل في سنين، فكم بذلك يبلغ اتساع الكون؟

فهل هذا كله حدث مصادفة وبلا قصد وتدبير؟ وهل هذا كله مستغن عن الموجد؟ وهل باستطاعة المادة العمياء الصماء إيجاد كل ذلك وتنظيمه بهذه الدقة؟

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١].

خُلِقَت الأرض، وكلُّ ما فيها ينطق بكونها ملائمة للحياة.

تدور حول نفسها فيكون في ذلك تتابُعُ الليل والنهار.

وتدور حول الشمس فيكون في ذلك تتابع الفصول، الذي يؤدي بدوره إلى زيادة المساحة الصالحة للسكنى فيها؛ ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية.

ويحيط بها غلاف غازيٌّ يشتمل على الغازات اللازمة للحياة، ويمتد حولها إلى ارتفاع يزيد على (٥٠٠) ميل، ويبلغ هذا الغلاف من الكثافة درجةً تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يومياً إلينا منقضة بسرعة ثلاثين ميلاً في الثانية، وهذا الغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات؛ حيث يمكن أن يتكاثف مطراً يُحيي الأرض بعد موتها. والمطر مصدر الماء العذب؛ ولولاه لأصبحت الأرض جرداء خالية من كل أثر للحياة.

ويمتاز الماء بخواص مهمة تعمل على صيانة الحياة في المحيطات والبحيرات والأنهار؛ ولا سيما في المناطق التي يكون شتاؤها قارصاً وطويلاً، فالماء يمتص كميات كبيرة من الأوكسجين عندما تكون درجة حرارته منخفضة. ويطفو الجليد المتكون في البحيرات والأنهار على

سطح الماء لخفته النسبية فيهيىء بذلك الفرصة لاستمرار حياة الكائنات التي تعيش في الماء في المناطق الباردة. وعندما يتجمد الماء تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد على صيانة حياة الأحياء التي تعيش في البحار.

أما الأرض اليابسة فهي بيئة ثابتة لحياة كثير من الكائنات، فالتربة تحوي العناصر التي يمتصها النبات ويتمثلها ويحولها إلى أنواع مختلفة من الطعام يفتقر إليها الإنسان والحيوان، ويوجد كثير من المعادن قريباً من سطح الأرض، مما هيأ السبل لقيام الحضارة.

ولو أن الأرض كان قطرها ربع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوي والمائي اللذين يحيطان بها؛ ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حدّ الموت.

أما لو كان قطرها ضعف قطرها الحالي لتضاعفت مساحة سطحها؛ وأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ما هي عليه، وانخفض ـ تبعاً لذلك ـ ارتفاع غلافها الهوائي، وزاد الضغط الجوي من كيلو غرام واحد إلى كيلو غرامين على السنتيمتر المربع، ويؤثر كل ذلك أبلغ الأثر في الحياة على سطح الأرض، فتتسع مساحة المناطق الباردة اتساعاً كبيراً، وتنقص مساحة الأراضي الصالحة للسكنى نقصاً ذريعاً، وبذلك تعيش الجماعات الإنسانية منفصلة أو في أماكن نائية يتعذر بينها الاتصال.

ولو أزيحت الأرض إلى ضعف بُعدها الحالي عن الشمس لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية؛ وقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول، وتضاعف تبعاً لذلك طول فصل الشتاء، وتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض.

ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هي عليه الآن لبلغت الحرارة التي تتلقاها الأرض أربعة أمثالها اليوم؛ وتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس ولصارت الحياة على سطح الأرض غير ممكنة.

وهكذا أصبحت الأرض ـ بحجمها وبعدها عن الشمس وسرعتها في مدارها ـ تهيىء للإنسان أسباب الحياة. فهل كان ذلك كله محض مصادفة؟؟

ثم إن هذه العجائب التي يغص بها الكون كمنحنيات التوزيع ودورة الماء في الطبيعة ودورة ثاني أوكسيد الكاربون فيها وعمليات التكاثر العجيبة وعمليات التمثيل الضوئي؛ ذات الأهمية البالغة في اختزان الطاقة الشمسية؛ وما لها من أهمية بالغة في حياة الكائنات الحية، وهذا الانتظام في ظواهر الكون؛ والعلاقات السببية؛ والتكامل والتوافق والتوازن التي تنتظم سائر الظواهر وتمتد آثارها من عصر إلى عصر. إن هذه العجائب هل قامت على أساس التخبط والصدفة؟!

وهذه الجزيئات البسيطة التي ليس لها صورة معينة وليس بينها فراغ؛ وقد نشأت منها ملايين من الكواكب والنجوم والعوالم المختلفة لها صور معينة وأعمار محدَّدة تخضع لقوانين ثابتة؛ هل وُجدَت صدفة؟؟

وهذه العناصر الكيماوية المعروفة التي بلغ عددها نيفاً ومائة هل لاحظ الإنسان مقدار ما بينها من أوجه التشابه والاختلاف؟ فمنها الملون وغير الملون، وبعضها غاز يصعب تحويله إلى سائل أو صلب، وبعضها سائل، وبعضها صلب يصعب تحويله إلى سائل أو غاز، وبعضها هشٌ والآخر شديد الصلابة، وبعضها خفيف والآخر ثقيل، وبعضها موصل جيد والآخر رديء التوصيل، وبعضها مغناطيسي والآخر غير مغناطيسي،

وبعضها نشيط والآخر خامل، وبعضها يكون أحماضاً والآخر يكوِّن قواعد، وبعضها معمّر والآخر لا يبقى إلا لفترة محدودة من الزمان. ومع ذلك فإنها جميعاً تخضع لقانون واحد هو «القانون الدوري».

إن الفرق بين ذرة عنصرٍ معين وعنصرٍ آخر يرجع إلى الفرق في عدد البروتونات والنيوترونات التي بالنواة، وإلى عدد وطريقة تنظيم الإلكترونات التي في خارج النواة، وعلى ذلك فإن ملايين الأنواع من المواد المختلفة سواءً كانت عناصر أم مركبات، تتألف من جزيئات كهربية ليست في الواقع إلا مجرد صور أو مظاهر من الطاقة. والمادة بوصفها متكونة من مجموعات من الجزيئات والذرات، والجزيئات والذرات ذاتها، والإلكترونات والنيوترونات التي تتألف منها الذرات، والكهرباء والطاقة ذاتها، إنما تخضع جميعاً لقوانين معينة، بحيث يكفي عدد قليل من ذرات أي عنصر للكشف عنه ومعرفة خواصه...

فهل تم كل ذلك مصادفة؟ وهل وجدت القوانين والسنن الكونية من تخبط المادة وعشوائيتها؟؟

إننا بعد أن آمنا ـ عن يقين ـ بأن هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه موجود ماثل أمامنا، وأنه قد وُجد في وقت معين من الأوقات المغرقة في القدم، وأنه لا يمكن أن يكون العدم بما هو عدمٌ موجداً له، بل لا بد أن يكون له موجد، خلقه بعد أن لم يكن، فمن هو هذا الموجد؟

المادة.. أم الله تعالى.

ونسأل أولاً:

كيف وُجدت المادة ومَنْ أوجدها؟

ويقول الماديون في الإجابة على هذا السؤال:

إن المادة أزلية موجودة منذ الأزل فليست بحاجة إلى خلق وخالق.

وأصبح نقض هذه الدعوى ـ بوسيلة العلم ـ سهلاً يسيراً، لأن العلم قد أثبت وثبت لديه بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً، فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية، بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة، ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة، ويومئذٍ لن تكون هنالك عمليات كيماوية أو طبيعية، ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون. ولما كانت الحياة لا تزال قائمة

ولا تزال العمليات الكيماوية والطبيعية تسير في طريقها فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود.

ويستخدم في الوقت الحاضر عدد من الطرق المختلفة لتقدير عمر الأرض بدرجات متفاوتة من الدقة، ولكن نتائج هذه الطرق متقاربة إلى حد كبير، وهي تشير إلى أن الكون قد نشأ منذ خمسة بلايين سنة، وعلى ذلك فإن هذا الكون ليس بأزلي، إذ لو كان أزلياً لما بقيت فيه أي عناصر إشعاعية، ويتفق هذا الرأي مع القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية.

أما الرأي الذي يقول بأن هذا الكون دوري أي أنه ينكمش ثم يتمدد ثم يعود فينكمش من جديد فإنه رأي لم يقم لدى العلماء على صحته دليل، ولا يمكن أن يعتبر رأياً علمياً، وتؤيد قوانين الديناميكا الحرارية والأدلة الفلكية والجيولوجية الكلمة القائلة: «لقد خلق الله في البداية السماوات والأرض».

إن الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الأحياء دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمانٍ بدأ من لحظة معينة، فهو ـ إذن ـ حدثٌ من الأحداث.

وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد سائرة في سبيلها نحو الزوال أو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة، وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية، ومعنى ذلك أيضاً، أنها ليست أزلية، إذ إنَّ لها بداية. وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة ولا تدريجية، بل وجدت بصورة فجائية، وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد، وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لا بد أن يكون مخلوقاً، وهو منذ خُلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان.

ومنذ مائة سنة تقريباً رتَّب العالم الروسي «ماندااليف» العناصر الكيماوية تبعاً لتزايد أوزانها الذرية ترتيباً دورياً، وقد وجد أن العناصر التي تقع في قسم واحد تؤلف فصيلةً واحدة ويكون لها خواص متشابهة، فهل يمكن إرجاع ذلك إلى مجرد المصادفة؟.

إن اكتشاف ماندااليف لا يطلق عليه اسم «المصادفة الدورية» ولكنه يسمى «القانون الدوري».

وهل يمكن أن نفسّر على أساس المصادفة ما وصفه وتوصل إليه العلماء من تفاعل ذرات عنصر «أ» مع ذرات عنصر «ب» وعدم تفاعلها مع عنصر «ج»؟

كلا. إنهم قد فسروا ذلك على أساس أن هنالك نوعاً من الميل أو الجاذبية بين جميع ذرات عنصر «أ» وجميع ذرات عنصر «ب»، ولكن هذا الميل والجاذبية منعدم بين ذرات عنصر «أ» وذرات عنصر «ج».

وقد عرف العلماء كذلك أن سرعة التفاعل بين ذرات المعادن القلوية والماء مثلاً تزداد بازدياد أوزانها الذرية. بينما تسلك عناصر الفصيلة الهالوجينية سلوكاً مناقضاً لهذا السلوك كل المناقضة، ولا يعرف أحد سبب هذا التناقض، ومع ذلك فإن أحداً لم يرجع ذلك إلى محض المصادفة؛ أو يظن أنه ربما يتعدل سلوك هذه العناصر بعد شهر أو شهرين، أو تبعاً لاختلاف الزمان أو المكان، أو يخطر بباله أن هذه الذرات ربما لا تتفاعل بنفس الطريقة أو بطريقة عكسية أو طريقة عشوائية.

وقد أثبت اكتشاف تركيب الذرة أن التفاعلات الكيماوية التي نشاهدها والخواص التي نلاحظها ترجع إلى وجود قوانين خاصة وليست محض مصادفة عمياء.

فهل يتصور عاقل مفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟! أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها؟!. لا شك أن الجواب سوف يكون سلبياً، بل إن المادة عندما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة فإن كل ذلك يتم طبقاً لقوانين معينة، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المادة المعروفة التي وجدت قبلها.

وإذا كان هذا العالَم المادي عاجزاً عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التي يخضع لها فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي.

ولقد أيدت دراسة الحرارة هذه الآراء وساعدتنا على التمييز بين الطاقة الميسورة والطاقة غير الميسورة، وقد وُجد أنه عند حدوث أي تغييرات حرارية فإن جزءاً معيّناً من الطاقة الميسورة يتحول إلى طاقة غير ميسورة، وأنه لا سبيل إلى أن يسير هذا التحول في الطبيعة بطريقة عكسية، وهذا هو القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية.

ولما كانت المادة حادثة غير أزلية ـ كما أسلفنا ـ فلا بد لها من محدث، لأن الشيء لا يمكن أن يوجَد من نفسه أو يوجِد نفسه بنفسه، بل ذلك محال عقلاً.

وإذن، فإن الله تعالى هو خالق المادة وموجدها بلا ريب.

❀ ❀ ❀

ولو وقفنا قليلاً عندما يسمى بـ«تطور المادة» وفكرنا في إمكان هذا التطور من طريق المصادفة لوجدنا أن المصادفة كسببٍ لخلق وإيجاد الكائنات الحية وسائر الموجودات لا يمكن للعقل أن يقبلها أو يبني واقعاً عليها.

ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدماً كبيراً حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التي نقول أنّها تحدث بالمصادفة؛ والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى، وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة. ولننظر الآن إلى الدور الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة:

إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية، وهي تتكون من خمسة عناصر هي: الكاربون، والهيدروجين، والنيتروجين، والأوكسجين، والكبريت. ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد ٤٠ ألف ذرة، ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة قد تجاوز المائة، وهي موزعة توزيعاً عشوائياً، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكوّن جزيئاً واحداً من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطاً مستمراً لكي تؤلف هذا الجزيء؛ ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد.

وقد قام العالم الرياضي السويسري «تشالزيوجين» بحساب هذه العوامل جميعاً فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة «١» إلى رقم «١٠» مضروباً في نفسه «١٦٠» مرة، وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات. وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات، ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدّرها العالم السويسري المار الذكر بأنها «١٠» مضروبة في نفسها «٢٤٣» مرة من السنين.

ومع ذلك كله فإن البروتينات ليست في واقعها سوى مواد كيماوية عديمة الحياة، ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لا نعلم كنهه أبداً.

وتوضيحاً لذلك يقول الأستاذ أ. كريسي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك: «لنفرض أن معك كيساً يحوي مائة قطعة رخام تسع

وتسعون منها سوداء وواحدة بيضاء، والآن هُزَّ الكيس وخذ منه واحدة: إن فرصة سحب القطعة البيضاء هي بنسبة واحد إلى مائة، والآن أعد قطع الرخام إلى الكيس وابدأ من جديد: إن فرصة سحب القطعة البيضاء لا تزال بنسبة واحد إلى مائة، غير أن فرصة سحب القطعة البيضاء مرتين متواليتين هي بنسبة واحد إلى عشرة آلاف.

والآن جرب مرة ثالثة: إن فرصة سحب تلك القطعة البيضاء ثلاث مرات متوالية هي بنسبة مائة مرة عشرة آلاف أي بنسبة واحد في المليون.

ثم جرب مرة أخرى أو مرتين تصبح الأرقام فلكية.

إن قصدي من هذه المعالجة للصدفة هو أن أبين للقارىء بطريقة علمية واضحة تلك الحدود الضيقة التي يمكن للحياة بينها أن توجد على الأرض، وأن أُثبت بالبرهان الواقعي أن جميع مقومات الحياة الحقيقية ما كان يمكن أن توجد على كوكب واحد في وقت واحد بمجرد الصدفة».

إننا إذا نظرنا ـ بإمعان ـ إلى العالم المادي، من الذرات المتناهية في الصغر إلى المجرات المتناهية في العظم، وجدنا كل شيء يجري بقوانين وبحساب وانضباط.

حتى الألكترون لا ينتقل من مدار إلى مدار في فلك النواة إلا إذا أعطى أو أخذ حزماً من الطاقة تساوي مقادير انتقاله وكأنه مسافر لا يستطيع أن يستقل واسطة لسفره إلا إذا دفع ثمن التذكرة.

وميلاد النجوم وموتها له قوانين وأسباب.

وحركة الكواكب في دولاب الجاذبية لها معادلة.

وتحول المادة إلى طاقة وتحول جسم الشمس إلى نور له معادلة.

وانتقال النور له سرعة معينة.

وكل موجة لها طول ولها ذبذبة ولها سرعة.

كما أن كل معدن له طيف وله خطوط امتصاص مميزة يعرف بها في جهاز المطياف.

وكل معدن يتمدد بمقدار ويتقلص بمقدار، بالحرارة والبرودة. وكل معدن له كتلة وكثافة ووزن ذري ووزن جزيء وثوابت وخواص.

وأينشتين أثبت لنا أن هناك علاقة بين كتلة الجسم وسرعته، وبين الزمن ونظام الحركة داخل مجموعة متحركة، وبين الزمان والمكان.

كما أن الكهرباء تتولد بقوانين.

والزلازل التي تبدو أنواعاً من الفوضى لها هي الأخرى نظام وأحزمة وخطوط تحدث فيها.

وبذلك يصبح الكون كله وكأنه جدول من القوانين المنضبطة الصريحة التي لا غش فيها ولا خداع.

إن حجم الكرة الأرضية وبعدها عن الشمس، ودرجة حرارة الشمس وأشعتها الباعثة للحياة، وسمك قشرة الأرض، وكمية الماء، ومقدار ثاني أوكسيد الكاربون، وحجم النتروجين، وظهور الإنسان وبقاءه على قيد الحياة، كل أولاء تدل على خروج النظام من الفوضى، وعلى التصميم والقصد. كما تدل على أنه طبقاً للقوانين الحسابية الصارمة ما كان يمكن حدوث كل ذلك مصادفة في وقت واحد على كوكب واحد مرة في بليون مرة.

وضرب الماديون القائلون بالصدفة مثلاً لادعائهم فقالوا:

«لو أن صندوقاً من الحروف الأبجدية أعيد تنضيده مئات المرات وألوف المرات وملايين المرات على امتداد الزمان الذي لا تحصره

السنون ولا القرون، فلا مانع ـ حينئذٍ ـ أن تسفر هذه التنضيدات في مرة من المرات عن قصيدة من الشعر المنظوم، ولا عمل في اتفاق حروفها على هذه الصورة لغير المصادفة الواحدة التي تعرض بين ملايين الملايين من المصادفات، وهكذا الكون المادي في اضطرابه المتشتت الذي تعرض له جميع المصادفات الممكنة في العقول، فلا مانع في العقل ـ حسب زعمهم ـ أن تسفر مصادفة منها عن نظام كهذا النظام وتكوين كهذا التكوين في عالم الجماد أو في عالم الحياة».

ولمناقشة قولهم هذا نرجع إلى المثل الذي ضربوه لنجد فيه الفروض التالية:

١ ـ وجود الحروف المتناسبة التي يمكن أن يتكون منها الشعر، بحيث لا ينقص منها حرف واحد.

٢ ـ وجود قوة تتولى التنسيق والتنضيد.

٣ ـ استمرار تلك القوة على التنضيد من دون توقف في الأثناء.

٤ ـ وجود فهم كامل لدى تلك القوة يوقف حركة تنضيد الحروف عند الانتهاء إلى قصيدة الشعر.

وفي كل واحد من هذه الفروض الأربعة مناقشة بل دليل على فساد هذا الادعاء:

أما في (الأول) فنتساءل: كيف وجدت الحروف المشار إليها لتقوم بتنضيدها؟ وكيف تقسمت المادة إلى أجزاء متنوعة ينتج من اجتماعها مثل هذه النتيجة؟ ثم كيف كان لهذا التنويع قابلية الاتحاد على وجه مفهوم؟!.

وأما في (الثاني) فنتساءل أيضاً: ما هي القوة التي تتولى التنسيق وتقوم بمهام التنضيد؟ وهل يصح عقلاً أن تكون الحروف نفسها مصدر هذه القوة بحيث تحرك نفسها بنفسها؟.

وأما في (الثالث) فنتساءل كذلك: وعلى فرض وجود قوة بين الحروف كيف تستمر هذه القوة في التنضيد على كل الاحتمالات ولا تقف في الأثناء؟ وهل لديها الإدراك المطلوب الذي يدفعها إلى الاستمرار إحساساً بضرورته؟!

وأما في (الرابع) فلا بد لنا من التساؤل أيضاً: كيف نفرض أن الوصول في التنضيد إلى حين حصول القصيدة يستلزم الوقوف عندها؟ ولماذا لا تستمر القوة في التنضيد بعد الوصول إلى قصيدة الشعر ليسرع إليها الخلل وتعم فيها الفوضى قبل أن تنتظم ثانية وثالثة ورابعة؟ وما هي القوى التي أمسكت بلجام هذه الحركة عند هذا الحد من تنضيدها المستمر؟!.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١].

إن هذه المناقشة تدلنا بوضوح على أن ما فُرض أساساً لهذه الشبهة لا يسنده منطق ولا يعترف بصحته عقل، وأن جميع هذه الفروض التي فرضوها ترجع بالنتيجة إلى الدلالة على ضرورة وجود قوة أزلية خالدة عاقلة هي التي أوجدت الكون وأوجدت القوى المنسقة لشؤونه بلا أي فوضى أو اضطراب أو صدفة.

ولتوضيح فساد الصدفة نقول:

إن ظهور الحياة في المادة الصماء يُلزِم العقل بالأخذ بأحد شيئين لا ثالث لهما:

١ ـ فإما أن تكون الحياة خاصة من خواص المادة ملازمة لها فلا تحتاج إلى خالق مريد.

٢ ـ أو أنها من صنع خالق مدبر مريد.

فإذا قلنا بكونها خاصة من خواص المادة لزمنا القول بأن المادة أزلية أبدية لا تُحد بأول ولا آخر، وأنها موجودة منذ الأزل بكل خصائصها، وأن خصائصها ملازمة لها سواءاً كانت في هذا المكان من الكون أو ذلك المكان.

وإذن، فلا معنى لظهور الحياة في كوكب دون كوكب وفي زمان دون زمان، ولا معنى لبقاء خصائص الحياة كلها بلا عمل ولا أثر ملايين الملايين من السنين، ثم تظهر بعد ذلك في زمان يحسب تاريخه بآلاف أو مئات من الألوف، ولماذا تأجل ظهور الحياة كل هذا الزمان الذي لا يمكن حدّه وحصره مع وجود كل الخصائص منذ الأزل؟!.

وإذا كانت الحياة أزلية لأنها من خواص المادة الأزلية ـ حسب الفرض ـ فلماذا جاءت صدفة ثم دامت؟ وأين كانت في تلك الآماد البعيدة حتى تظهر صدفة وبلا أي قصد إليها وإرادة لها؟.

وعلى هذا فلا بد لنا من الانتهاء إلى الأخذ بالأمر الثاني، وهو أن ظهور الحياة في المادة الصماء كان من صنع خالق أزلي مريد يعلم ما أراد، واختار له الزمان الذي يريد والمكان الذي يريد، فأوجد هذا الكون وما عليه وما فيه في الوقت الذي اختاره والموضع الذي شاءت حكمته تعيينه وانتقاءه.

❀ ❀ ❀

بقي في البحث سؤال يجب علينا إلقاؤه قبل أن ننهي الحديث، وهو: كيف نشأت الحياة على الأرض؟ وهل يمكن أن يكون مصدرها الشمس؟

وللجواب على هذا السؤال نتساءل أولاً: ما هي الحياة؟ هل هي

شيء له حجم أو مادة لها وزن؟ أم هي خليط بين هذا وذاك أو من هذا وذاك:

الحياة هي الأثر الذي يظهر في الخلية الحية التي لا تكاد تُرى إلا بالمجاهر الكبيرة. فهذه النقطة التي تناهت في الصغر تحتوي على مادة لزجة تسمى «بروتوبلازم»، وأثر الحياة فيها أنها تتحرك فتأخذ من الجو ثاني أوكسيد الكاربون في وجود الشمس، وتفصل الهيدروجين من الماء فتكوَّن بذلك مركبات كيماوية هي غذاؤها الذي تنمو به وتنقسم.

وقد حاول العلماء ملايين المرات خلق «البروتوبلازم» الحي بمختلف الوسائل وتحت مختلف الظروف فأخفقوا وازدادوا إيماناً بوجود خالق لهذه الخلية، وأن الخلق لا يمكنهم خلق أنفسهم.

وهذه الخلية الحية التي هي وحدة الحياة تتكاثر فتسبب الكائنات، فهل خلقت أول خلية منها خلقاً أم وجدت مصادفة؟!.

لقد وضعت نظريات عديدة لتفسير كيفية نشأة الحياة من عالم الجمادات، فذهب بعض الكتاب إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين، أو من الفيروس، أو من تجمُّع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة. وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات. ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بالفشل الذريع، ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع بعض الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية، لأن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا

فهمها، وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرة الله شهادة تقوم على الفكر والمنطق والوضوح العقلي.

إن التفسير العلمي للحياة بأنها نشاط كيماوي تفسير غير كاف، لأن الجسم الميت يحتوي على نفس المواد الكيماوية التي في الجسم الحي، والتراب يحتوي على نفس المقادير من الحديد والنحاس والكربون.

والقول بأن الرغبة الجنسية يحث عليها هرمون التستوستيرون لا يفسر لنا الرغبة الجنسية. لأننا سنقول: وما هي الفاعلية التي صنعت التستوستيرون في الجسم؟

وبالمثل حينما يقول لنا عالم النبات أن حركة «عبَّاد الشمس» نحو الشمس ينظمها هرمون الأكسين لن نعتبر المشكلة قد حلت، وإنما سوف نسأل: وما هي الفاعلية التي صنعت هذه المادة المثيرة والتي تضبط كمياتها في نسيج النبات؟

وإن التركيب الكيماوي للخلية لا يكشف لنا سر حياتها، لأن الحياة ليست مجرد منظومة جامدة مثل البيت أو المصنع، وإنما هي منظومة حية فيها قدرة على تكرار نفسها؛ وفيها فطرة إرشادية تقودها من الداخل، وهي فطرة مبثوثة في نسيجها تجدد ما يتلف منها وتستحدث ما يضيع.

وهكذا يكون اللغز المطلوب حله كامناً في هذه البصيرة المطوية في تضاعيف المادة، وليس في تركيب المادة نفسه.

ويرى العلم الحديث أن أرضنا هذه كانت قطعة من الشمس انفصلت عنها، ولا بد أنها كانت عند انفصالها بدرجة حرارة الشمس

نفسها ـ ولنفترض أنها كانت تماثل درجة حرارة الشمس حالياً؛ برغم مرور ملايين السنين التي تعمل على خفض حرارتها ـ فتكون درجة حرارة سطحها ستة آلاف درجة مئوية؛ أما باطنها فدرجة حرارته أربعون مليون درجة، ولما أخذت الغازات التي انفصلت عن الشمس لتكوّن الأرض تبرد تدريجياً تكوَّن سطح الأرض، وتكون الماء الذي كلما لامس القشرة الأرضية المرتفعة الحرارة طار إلى الجو في شكل بخار درجته لا تتصور، فيقابل جواً بارداً بين الأرض والشمس فيعود إلى الأرض في شكل طوفان مدمر، وبتوالي انخفاض الحرارة استقر الماء وتكونت البحار ثم الجبال.

وعلى فرض صحة هذه الفروض في كيفية وجود الكرة الأرضية، فنحن نفكر في أمر الخلية الحية التي ربما يقال أنها نزلت مع الأرض من الشمس، وكيف يمكن أن تعيش خلية حية في درجة حرارة قدرها ما لايقل عن ستة آلاف درجة مئوية، مهما كانت هذه الخلية مغلفة، ومهما اتخذ حيالها من ضروب الوقاية والمحافظة عليها.

إن درجة حرارة الإنسان ـ وهو الذي يعتبر أرقى الكائنات الحية ـ لا تزيد على ٣٧ مئوية، إلا في حالات المرض فتتجاوز الأربعين قليلاً، وإذا كان الماء يصبح بخاراً في درجة مائة من الحرارة فإن درجة ألف كافية لأن تجعل كل شيء مهما كان صلباً، على درجة غازية يفقد معها صلابته، فما بالنا بدرجة حرارة ستة آلاف؟

وعلى هذا فإن العلم والعقل متفقان على استحالة بدء الحياة بخلية حية قادمة من الشمس، ولا بد للكائن الحي أن يكون خلق على الأرض بعد تكوّنها، وما أجمل ما يعلنه العالم المعروف غوستاف بونيه إذ يقول:

«أن نخلق المادة الحية!! كيف يمكن ذلك حين نفكر كم من

الخصائص المتجمعة والوراثة والمستقبل المعقد يوجد في قطعة من البروتوبلازم الحية».

❀ ❀ ❀

ونعود الآن، وبعد بيان كل ما سلف، إلى السؤال الرئيس في البحث:

هذا الكائن الأول الذي لم تسبقه حياة، من أين جاء؟ ومم تطور؟ ولا حياة قبله.

هل جاء من عدم؟

هل تخلق من مادة موات!

وكيف يتخلق الحي من الميت ويصدر الوجود من العدم؟

أسئلة لا جواب عليها ولا حيلة للعلم فيها سوى الفروض والتخمينات.

واحد يفترض أن الكائن الأول سقط علينا من السماء في لفافات الشهب والنيازك قادماً من كواكب بعيدة مأهولة.

وهو جواب يحملنا إلى نفس السؤال الأول، فمن أين نشأت هذه الكائنات الأولية على تلك الكواكب البعيدة؟

وعالم آخر يقول: الحياة تخلقت من المادة الموات نتيجة ترتيب فريد في ذراتها. وشهادته على ذلك أن المادة الحية تتألف من نفس العناصر الميتة التي نراها حولنا في الصخور والمياه والطين. نفس الذرات: الكربون والإيدروجين والأوكسجين والنتروجين، وقد أعيد بناؤها بنسب وأنماط وعلاقات فريدة لتعطي الأحماض الأمينية والبروتينات والنشويات والسكريات التي نراها في الكائنات الحية، وهو

لا يكتفي بالافتراض، بل يقدم تجربة مثيرة يطلق فيها شرارة كهربائية وإشعاعات فوق بنفسجية في مزيج من غازات النوشادر وثاني أوكسيد الكاربون والميثان وبخار الماء، ثم يجمع نواتج التفاعل فإذا بها آثار أحماض أمينية.

والأحماض الأمينية تعرف بأنها اللبنة الأساسية التي صنع منها الكائن الحي. فمن تشابك هذه الأحماض بطريقة أو بأخرى ينشأ نوع أو آخر من أنواع البروتين. وهذه يمكنها أن تتشابك بمليون ومليون طريقة كما تتشابك حروف الهجاء في اللغة الواحدة لتؤدي إلى ما لا نهاية من العبارات والكلمات والمعاني. والبروتينات الناتجة هي دائماً مواد شديدة الحساسية للحرارة والبرودة والضوء والكهرباء فتنحل وتتركب لأقل مؤثر خارجي، فهي إذن تملك صفة الحياة الجوهرية: الانفعال بالبيئة والتأثر بمؤثراتها.

ولقد كانت الظروف منذ ملايين السنين على الأرض ملائمة لتكرار مثل تلك التجربة ولتكوين هذه المركبات الفريدة التي اسمها الأحماض الأمينية، وكانت تذوب في الماء بمجرد تكوينها فتتشابك مع بعضها لتؤلف ملايين الاحتمالات من المواد البروتينية. وكان لا بد أن تلتقي هذه الأحماض الأمينية ذات مرة على النمط الفريد المعروف باسم «حامض ديزوكسي ريبونيوكلييك» .D.N.A ذلك الجزيء الذي يتكون منه الفيروس.

إنها مجموعة من الفروض. كل فرض منها يأخذ برقبة الآخر.

إن هؤلاء العلماء يقولون إن قانون الصدفة يؤيدنا. فالقرد الذي يجلس على الآلة الكاتبة يدق عليها إلى ما لا نهاية من الزمان لا بد أن يدق مرة شعراً لشكسبير. أليست أمامه لا نهاية من الفرص ولا نهاية من الزمان؟

إن كل ما يطلبون أن تتراص الأحماض الأمينية على الهيئة الفريدة التي اسمها .D.N.A، وسوف تتولى المادة الفريدة أمر نفسها فتتكاثر بآليتها الخاصة واضعة بذلك بذور الحياة الأولى.

صدقنا وآمنا جدلاً وافتراضاً أن عناصر التراب والماء التقت صدفة واعتباطاً واتفاقاً على شكل الحامض البدائي .D.N.A.

ثم بدأ الحامض يتناسل بطريقته الآلية ليصنع من نفسه ملايين النسخ.

إن كل هذا ليس الحياة التي نراها.

لا بد إذن أن نعود فنفترض أن مفردات هذا الحامض عادت فالتقت صدفة واتفاقاً واعتباطاً لتؤلف البروتين.

ثم إن البروتين صدفة واعتباطاً شكل نفسه على صورة خلية.

ثم نعود فنقول: إن إحدى الخلايا اختارت لنفسها صدفة واعتباطاً الشكل النباتي وخلية أخرى اختارت لنفسها صدفة واعتباطاً الخط الحيواني.

ثم نتسلق شجرة الحياة درجة درجة، ومعنا هذا المفتاح السحري كلما أعيتنا الحيلة في شيء قلنا: إنه حدث صدفة.

هل هذا معقول؟!

بالصدفة تستدل الطيور والأسماك المهاجرة على أوطانها على بعد آلاف الأميال وعبر الصحاري والبحار.

بالصدفة يكسر الكتكوت البيضة عند أضعف نقطة فيها ليخرج.

بالصدفة تلتئم الجروح وتخيط نفسها بنفسها بدون جرَّاح.

بالصدفة يدرك «عبَّاد الشمس» أن الشمس مصدر حياته فيتبعها.

بالصدفة تصنع أشجار الصحاري لنفسها بذوراً مجنحة لتطير عبر الصحاري إلى حيث ظروف إنبات وري وأمطار أحسن.

بالصدفة اكتشف «الفيروس» طريقته المرعبة في السطو على الخلية وسرقة حياتها من داخلها وتدميرها.

بالصدفة اكتشف النبات «الكلوروفيل» واستخدمه في توليد طاقة حياته.

بالصدفة صنع البعوض أكياساً للطفو لكل بيضة من بيضاته لتطفو على الماء ولا تهلك.

والنملة التي تحقن السم في المراكز العصبية للدودة لتشلها ثم تسحبها لتحتفظ بها في عشها طعاماً مخزوناً للصغار، هل تتم هذه القصة المحبوكة بالصدفة؟.

والنحلة التي أقامت مجتمعاً ونظاماً ومارست العمارة وتخصصت في عمليات كيميائية معقدة تحول بها الرحيق إلى عسل والزهر إلى شمع هل تقوم بكل هذا صدفة؟

وحشرة «الترميت» التي اكتشفت القوانين الأولية لتكييف الهواء وطبقت في مجتمعها نظاماً صارماً للطبقات هل وصلت إلى ذلك بالصدفة؟.

والحشرات الملونة التي اكتشفت أصول فن ومكياج التنكر والتخفي؟

والحشرات «قاذفة القنابل» التي تولد الغازات السامة وتطلقها، هل كل هذا تمَّ صدفة وخبط عشواء؟.

لو أننا صدقنا وآمنا بأن الحياة بدأت صدفة!

فكيف نصدق أن كل هذه الأحداث تمت بالصدفة.

إنها السذاجة بعينها أن نقول مثل هذا الكلام.

وقد وجد الفكر المادي نفسه في مأزق أمام هذه السذاجة فبدأ

يحاول التخلص من كلمة «صدفة» ليفترض فرضاً آخر فقال: إن كل هذه الحياة المذهلة بألوانها وتصانيفها بدأت من «حالة ضرورة» مثل الضرورة التي تدفعك إلى الطعام ساعة الجوع، ثم تعقدت «الضرورة» بتعقد البيئات والظروف والحاجات فنشأت كل هذه الألوان.

وهذا مجرد لعب بالألفاظ.

فمكان «الصدفة» وضعوا كلمة «تعقد الضرورة».

وهي في نظرهم تتعقد تلقائياً وتنمو تلقائياً؛ كيف؟!.

كيف ينمو الحدث الواحد إلى قصة محبوكة بدون عقل مؤلف؟.

ومن الذي أقام «الضرورة» أصلاً؟.

وكيف تقوم «الضرورة» من «لا ضرورة»؟.

إنها استماتة وتفانٍ من أجل تجنب حقيقة فطرية بديهية تفرض نفسها على ذلك كله فرضاً: إن هناك خالقاً مدبراً.

فلماذا المكابرة؟.

ولماذا نلتمس المستحيل لنتجنب الحقيقة الواضحة التي تهتف بها الفطرة والبداهة من أعماقنا؟.

وإذا كذبنا البداهة فماذا يبقى من عقلنا؛ وهو يقوم كله على نظام منطقي من البديهيات؟.

وليس من معنى لذلك كله سوى أن نهدم عقلنا ومعطياته من حيث ندعي أننا عقلانيون علميون نستهدي الموضوعية العلمية في كل شيء.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢] ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

[يونس: ٥] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ﴾ [ابراهيم: ٣٢ ـ ٣٤] ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

المصادر والمراجع

١ ـ **الله**: لعباس محمود العقاد، القاهرة، ١٩٦٤م.

٢ ـ **الله والعلم الحديث**: لعبد الرزاق نوفل، القاهرة، ١٣٧٦هـ.

٣ ـ **الله يتجلى في عصر العلم**: لجماعة من الأساتذة الغربيين، القاهرة، د.ت.

٤ ـ **حق اليقين**: للسيد عبد الله شبر، صيدا، ١٣٥٣هـ.

٥ ـ **العلم يدعو إلى الإيمان**: لموريسون، القاهرة، ١٩٦٥م.

٦ ـ **لغز الحياة**: لمصطفى محمود، بيروت، ١٩٧١م.

٧ ـ **مطارحات فلسفية**: لنصير الدين الطوسي، بغداد، ١٣٧٥هـ.

العدل الإلهي

بين الجبر والاختيار

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ .

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ .

«صدق الله العلي العظيم»

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على نعمائه، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه، وعل آله الطيبين الطاهرين حجج الله وأوليائه.

❀ ❀ ❀

العدل الإلهي ـ عند المؤمنين بالله تعالى ـ قضية بديهية لا يرقى إليها شك، ولا يعتريها ريب، ولا تحوم حولها شبهة.

وكل الأديان السماوية، وكل معطيات العقل السليم والمنطق العلمي مقرّان بذلك أتم إقرار ومذعنان له أكمل إذعان.

ولهذا لم يكن العدل الإلهي ـ بمعناه البحت المجرد ـ معضلة من المعضلات الفكرية المعقدة التي تحتاج إلى تجريد بحث خاص، يعنى بتسجيل براهينها وإيراد أدلتها ومناقشة ما قيل ويقال بشأنها من شبهات وشكوك. بل ربما يعتبر البحث فيها تافهاً إلى حد بعيد، لأنه من قبيل الحديث عن توضيح الواضحات والاستدلال على المسلمات.

ولكن المسائل الفكرية البديهية قد تحوطها ملابسات هامشية معينة، وتضاف إليها تفريعات جانبية معقدة، وتلقى عليها ظلال قاتمة من

التفاسير والشروح والتأويلات، فيتكدر صفاؤها وينطمس إشراقها وينقلب وضوحها إلى لغز وجلاؤها إلى غموض، ويصبح استكشاف الواقع ـ في هذه الحال ـ محتاجاً إلى كثير من البحث والمناقشة والأخذ والرد، لتظهر الحقيقة الضائعة جلية ناصعة، لا يحجبها ضباب الحواشي والتفريعات، ولا تطمس معالمها تلك الأكداس الهائلة من المجادلات العقيمة المطولة.

❀ ❀ ❀

لقد تحدث علماء الكلام فأطنبوا في بحث مسألة «الجبر والاختيار» وانقسموا فيها إلى صفين متقابلين ـ وربما متضادين ـ يتراشقان التهم ويتبادلان الطعون، ثم حمَّلوا العدل الإلهي نتائج ذلك كله، فأصبح موضوع الجبر والاختيار فصلاً من فصول «العدل» وباباً من أبوابه.

وعندما تحدث علماء الكلام في مسألة «القضاء والقدر» أطالوا أيضاً وأفرطوا، حتى خلقوا من المسألة مشكلة ذات خطوط فكرية متوازية لا تلتقي مهما طال بها الامتداد، ثم أضافوا ذلك بأجمعه إلى قضية العدل الإلهي فجعلوا منه فصلاً جديداً في فصول هذا البحث الرئيس.

وكان من أول ما ترتب على ذلك كله: نَقلُ البديهية الأولى من عالمها المشرق المفتوح إلى بحث ملتوٍ معقد لن يتضح إلا بمزيد من الشرح والمناقشة والتعليق.

ثم كان من جملة ما ترتب على هذا التعقيد: جهلُ أكثر المسلمين بهذه المباحث، وشكُّ كثير من الشباب الطالع بمسألة القضاء والقدر وبما يتفرع عليها من أفكار وآراء.

ومن هنا كان لا بد لي ـ أداءاً للواجب الديني وخدمة للقارىء المسلم ـ أن أعني ببحث هذا الجانب الفكري الأساسي من جوانب عقيدتنا الإسلامية، عسى أن أوفق فيه إلى ما يوضح المقصود، ويجلو اللبس، ويكشف الغطاء عن الحقيقة المحجبة بالأوهام والأساطير والخيالات المجنحة.

وعلى الرغم من كون هذه المسألة من أكثر مسائل علم الكلام تعقيداً في الألفاظ والمصطلحات، وتفريعاً في الأقوال والنظريات، وتوسعاً في الشبهات والاحتمالات، فقد حاولت ـ جهد الطاقة ـ تبسيط اللفظ وتيسير المعنى وتوضيح الفكرة، ليكون البحث في مستوى الفهم العام لجيلنا المتعلم وفي متناول الكثرة الكاثرة من طلاب الحقائق والراغبين في المعرفة.

وكل أملي بالله تعالى أن يتقبل عملي هذا بقبوله الحسن ويجعله مصدر نفع وهدى، ووسيلة ثواب وأجر.

والحمد لله الذي هدانا لهذا

وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

العراق ـ الكاظمية

محمد حسن آل ياسين

اللّٰه عَدْل

الإيمان الصادق بالله تعالى ـ كما دلنا عليه العقل وأرشدنا إليه البرهان ـ إنما هو الإيمان المطلق بتلك الطاقة الخلاقة التي أوجدت هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه ووضعت له ذلك النظام الرتيب والمنهج الدقيق والقوانين الثابتة التي يطلق عليها العلماء اسم قوانين «الأسباب والمسببات» أو «العلل والمعلولات».

إن إيجاد هذا النظام الكوني الهائل بكل ما في قوانينه ونظمه من دقة متناهية في الحساب والتقدير، وصرامة بالغة في العمل والسلوك، وتنظيم هو الغاية في الصواب والثبوت والاستقرار ـ كما مر تفصيله في رسالتنا السابقة ـ. إن ذلك كله ليدلنا بوضوح على أن هذا الخالق عاقل بلا شك، وحكيم كذلك، ومختار دون أدنى ريب، وقادر قطعاً، وحي على وجه اليقين، بل جامع لكل صفات الجمال المطلق والكمال اللامحدود ـ بكل ما تحمله هذه الكلمات من معان وآفاق ـ، ولكنها ليست تلك الصفات الإضافية التي ربما تتبادر إلى بعض الأذهان ـ جرياً مع الاستعمالات الأرضية المألوفة ـ، وإنما هي الصفات الذاتية اللازمة التي يعبر عنها علماء الكلام بأنها «عين الذات».

وحيث قد ثبت في موضعه أن الحاكمية الواقعية ـ بكل أبعادها ـ إنما هي لله تعالى، باعتباره القادر على كل شيء، والفعال لما يريد، والذي ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] و﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ

﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، والمنزه عن كل معاني الخطأ والاشتباه، والقوي الذي لا تحد سلطته قوة من القوى.

وحيث قد ثبت كذلك أن الحاكمية القانونية ـ بكل سلطاتها ـ إنما هي لله تعالى أيضاً من غير مشارك أو منازع ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وحيث قد ثبت ـ نصاً وانتزاعاً من كل ما سلف ـ أن هناك حساباً دقيقاً سيتعرض له الإنسان يوم العود بعد الموت، إذ يثاب المطيع فيمنح السعادة والنعيم جزاء طاعته، ويعاقب العاصي فيفرض عليه الشقاء والعذاب جزاء معصيته.

من ثبوت ذلك كله نصل إلى نتيجة ضرورية لا مناص من الأخذ بها، تلك هي الإقرار بأن هذا الحاكم الذي تتجمع لديه سلطات الحاكمية الواقعية والقانونية وتتركز بيده شؤون الإثابة والعقوبة، لا بد أن يكون نزيهاً عادلاً وبمنتهى درجات النزاهة والعدل المطلق، لكي يختار الإنسان ـ بكل رضا وطمأنينة وتسليم ـ طريق الإطاعة والرضوخ على ما فيها من كبح لجماح الشهوة وحدٍّ من رغبات النفس وميولها، معتمداً على عدالة الحاكم في حكمه وعدالته في تقرير التعويض عن ذلك. ولولا الإيمان بعدل هذا الحاكم ونزاهته عن الظلم والحيف والجور لما وجد الإنسان في نفسه باعثاً على محاربة الهوى، وحافزاً على فعل الخير، ودافعاً إلى تنفيذ كل الأوامر واجتناب سائر الممنوعات والمحرمات.

❀ ❀ ❀

وحسبنا من أهمية العدل عقيدياً وكونه ركناً من أركان الدين وركيزة

أساسية للطاعة والانقياد، ومن قبح الظلم وكونه مصدر الفوضى والسوء والفساد، أن نجد القرآن الكريم قد عزز حكم العقل بذلك، فأمر الناس بالعدل، ونهاهم عن الظلم، واستعمل لذلك مختلف أساليب التعبير والحث والتشجيع.

ومما جاء في القرآن المجيد ـ فيما يخص العدل ـ قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥].

﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

ومما جاء في القرآن الكريم في النهي عن الظلم والتحذير من عواقبه قوله تعالى:

﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ [الكهف: ٨٧].

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

﴿لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥].

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨].

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١].

وهكذا كانت صراحة القرآن الكريم في الأمر بالعدل والحث عليه، وفي تقبيح الظلم والنهي عنه باعثة للمسلمين ـ أكثر وأكثر ـ على القول بضرورة الاعتقاد المطلق بعدل الله تعالى وتنزيهه عن الظلم.

❀ ❀ ❀

والحقيقة أن الإيمان بعدل الله عز وجل مستغن كل الغنى عن النص القرآني والدليل اللفظي، فإن العقل دال على ذلك أوضح الدلالة، وأن حسن العدل وقبح الظلم من البديهيات العقلية التي لا تحتاج إلى دليل. ولو أطاعك إنسان كل الطاعة ونفّذ كل أوامرك بحذافيرها ثم قابلته بالأذى أو الحرمان جزاء طاعته وانقياده، فإن العقل البشري ـ مؤمنه وكافره ـ لن يرضى منك ذلك أبداً، بل يعتبره من أقبح القبائح وأخس الصفات.

وهذا مما لا يختلف فيه اثنان.

ولن يكون الله ـ وهو الكمال المطلق ـ أقل مستوى وأدنى خلقاً من الإنسان العادي في تصرفاته وأحكامه!! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولزيادة الإيضاح نقول:

إننا نؤمن ـ نزولاً على حكم العقل ـ بقاعدة أساسية كبرى خلاصتها: أن الله تعالى لا يفعل إلا الفعل الحسن، بل إن من المستحيل عليه أن يفعل أي فعل قبيح، لأنه جل وعلا يعلم بقبحه، وليس لديه الداعي إلى فعله. وإذا كان الإنسان قد يفعل القبائح بدافع من حاجته إليها أو جهله بقبحها أو وجود مصلحة شخصية له فيها فإن الله تعالى لن يفعلها، لأنه المستغني عن كل شيء والعالم بكل شيء وغير المحتاج لأي شيء.

وإننا نؤمن كذلك ـ تفريعاً على الأصل السابق ونزولاً على حكم العقل أيضاً ـ بأنه تعالى لا يفعل شيئاً إلا لغرض وفائدة ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨] ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، والعبث المنفي في الآية هو فعل الشيء بلا غرض، وفعل الشيء بلا غرض قبيح من الحكيم، وفعل القبائح ـ كما أسلفنا ـ مستحيل على الله عز وجل.

ولسنا نعني بـ«الغرض» ـ كما حاول بعض المتلاعبين بالألفاظ أن يفسروه لينفوه ـ أنه الغرض الذي يعود على الله تعالى بالمصلحة الذاتية والمنفعة الشخصية، فالله تعالى غير محتاج لشيء، وليس لديه ما نصطلح عليه بالمصلحة والمنفعة العائدتين له، وإنما نعني به الغرض العائد على مصالح الناس والمنساق مع اقتضاء نظام الكون والوجود.

ولما كان الفعل الإلهي منزهاً من العبث واللعب، فلا بد لنا أن نؤمن بأنه تعالى يريد طاعة العباد ويكره معاصيهم:

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنفال: ٧].

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

وليس تقرير هذه الحقيقة محتاجاً إلى دليل لفظي، بل يكفينا فيه أنه جل وعلا قد أمر الناس بالطاعة ـ ولا يصح أن يأمر إلا بما يريد ـ،

ونهى عن المعصية ـ ولا يجوز أن ينهى إلا عما يكره ـ، بل لا يصح في العقل أن يأمر بما لا يريد وينهى عما لا يكره.

ولكن بعض المتكلمين المسلمين قد امتنع من التسليم بذلك، وذهب إلى أن كل الطاعات والمعاصي التي يفعلها الناس ـ سائر الناس ـ إنما هي من عمل الله تعالى، وقد وقعت بإرادته الذاتية الخاصة. وكان دليله على ذلك أمرين:

الأول ـ أنه تعالى لو كان مريداً للطاعة ـ كما أسلفنا ـ فلا بد أن تتحقق إرادته على كل حال وإن أراد العبد مخالفته، لأن وقوع المعصية كما أراد العبد خلافاً لإرادة الله معناها انهزام الإرادة الإلهية وتغلب غيرها عليها، وهذا غير ممكن وغير معقول، وإذن فالله تعالى لا يريد الطاعة دائماً ولا يقع منها إلا ما يريد.

وخلاصة الرد على هذه الشبهة: أن الله تعالى يريد الطاعة قطعاً، ولكنه لا يفرضها على عباده فرضاً، وإنما يريدها صادرة من العبد بمحض اختياره ورغبته وإذعانه، وهذا إنما يتحقق بإرادة المكلف وحده، ومن دون أن يرتبط ذلك بإرادة الله تعالى.

الثاني ـ أن كل ما علم الله وقوعه لا بد أن يقع حتماً، وكل ما علم عدمه امتنع. فإذا علم الله تعالى عدم صدور الطاعة من إنسانٍ مّا استحال على هذا الإنسان فعلها، لأنه يصبح مريداً لما يستحيل وجوده، وحيث إن علم الله محيط بكل شيء فإن أفعال العباد كلها ستقع كما علمها الله تعالى، سواء أراد العباد ذلك أم لم يريدوه، وليس لهم أي اختيار فيه من طاعة أو معصية.

وملخص الجواب على هذا الاعتراض: أن علم الله جل وعلا إنما هو عبارة عن انكشاف الواقع أمامه على حقيقته ووضوحه لديه على

طبيعته، ولهذا لم يكن إخباره تعالى عن كفر أبي لهب ـ مثلاً ـ وخلوده في العذاب إلا تسجيلاً لما انكشف له من عدم إقرار هذا الرجل برسالة الإسلام ومن إصراره على الكفر إلى آخر عمره، وليس معناه أن العلم الإلهي قد كان السبب في عدم إيمان أبي لهب وفي بقائه على الكفر والضلال إلى حين موته.

وتقريباً لهذه الفكرة إلى الأذهان نضرب المثل على ذلك بشبه دنيوي فنقول: إن الطبيب قد يفحص مريضاً من المرضى فلا يجد أملاً في شفائه فيخبر بموته، لما يعلم من شدة المرض وعنفه، وقد يصف لمن حوله ما سيعرض لهذا المريض من آلام وتغيرات قبل وفاته، لما يعلم من تطورات المرض ومضاعفاته، فهل يعد قول الطبيب وعلمه هو السبب في موت المريض، أم أن ذلك القول والعلم إنما هو من باب انكشاف الواقع لدى الطبيب ووضوح الأمر عنده.

والظاهر أن قائل هذه المقالة قد التبس عليه الأمر فخلط بين علم الفاعلين وعلم غيرهم فإن الفاعل كالمهندس أو المؤلف أو الشاعر لا بد أن يمهد لفعله أولاً بتصور الموضوع ورسم خطة العمل والتنفيذ في ذهنه، فيكون التصميم الهندسي أو الكتاب أو القصيدة بعد التنفيذ والانتهاء معلولاً للعلم الذهني السابق.

ولكن العلم بالواقعيات ـ ومنه علم الله تعالى بأفعال عباده ـ على خلاف ذلك ولا يكون العلم بها إلا محض انكشافها ومعرفتها على حالتها التي ستكون، وليس في هذا الانكشاف أي معنى من معاني العلية والسبب في الوقوع.

وهكذا يتضح لنا أنه ليس في هاتين الشبهتين ما يستطيع الثبوت والبقاء بوجه المناقشة والمنطق والدليل، وأن الله تعالى لا يفرض إرادته

على عباده فرضاً ولا يجعل من علمه سبباً في وقوع معصية إنسان أو طاعة آخر، وأن ﴿لَيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] و﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧] و﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

وسيجد القارىء الكريم مزيداً من التفنيد والرد على هاتين الشبهتين وما كان على شاكلتهما في الفصل التالي من هذا الكتاب.

الجبُر والاختيار

الحديث عن مسألة «الجبر والاختيار» حديث طويل شائك لا تستوعبه صفحات، ولا يتسع لتفاصيله مجال محدود.

وعلى الرغم من أن منشأ قصة «الجبر» سياسي بحت أُريدَ به تصحيح تصرفات الحكام الطغاة الخارجين على تعاليم الدين؛ وخلق الأعذار غير الاختيارية تبريراً لأعمالهم المنافية لأحكام الإسلام، فإن الموضوع قد تطور وتشعب حتى أصبح مسألة رئيسة من مسائل علم الكلام، وباباً مهماً من أبواب العقيدة، وقضية معقدة من قضايا الفكر الديني.

وكان أساس فكرة «الجبر» أو شبهته ما ذهب إليه بعض المسلمين من أن أفعال الناس ـ كل الناس ـ لم تقع بمحض إرادتهم واختيارهم، وإنما وقعت بفعل الله تعالى وإرادته، وليس للإنسان أي ارتباط بها إلا كونه معرضاً لها ومحلاً لتحققها. وقد أطلق على هذا الرأي اسم «الجبر» لأن نتيجته كون الإنسان «مجبوراً» على فعل الطاعة والمعصية ومكرهاً على القيام بذلك سواء أراد أو لم يرد.

واستند هؤلاء القائلون بالجبر ـ لتصويب ما زعموه ـ على ظاهر بعض الآيات القرآنية التي قد يستشعر منها هذا المعنى، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١] وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]

وهي الآيات التي ظنوا أن إطلاقها وتعميمها يشمل سائر أعمال الإنسان وأفعاله وتصرفاته.

وتطرف بعض المسلمين ـ انطلاقاً من الإحساس بفساد هذا الرأي وبطلانه ـ فذهب إلى عدم وجود أي علاقة بين الإنسان وربه غير علاقة الخلق الأول، وأن الله تعالى ترك للإنسان ـ بعد خلقه ـ كل حريته وإرادته، وفوض إليه كل شيء، ولم تعد له أية علاقة أو إفاضة أو ارتباط به. وكان الأساس النظري لهذه الفكرة ما ذهبوا إليه من أن العلة المحدثة كافية في بقاء معلولاتها، حيث يستغني البقاء عن علة مستمرة معه، ولن يحتاج إلا إلى علة الحدوث الأولى فقط. وقد أطلق علماء الكلام على هذه الشبهة اسم «التفويض» الإلهي المطلق للإنسان نتيجة انقطاع علاقته بربه.

والحقيقة أن الرأي الوسط بين الرأيين هو الصحيح، وقد عبر عنه الإمام الصادق (ع) أجمل تعبير وأدقه عندما قال كلمته المأثورة المشهورة: «لا جبر ولا تفويض بل منزلة بين المنزلتين».

وتوضيح ذلك:

إن كل إنسان يدرك بفطرته الذاتية أنه قادر على فعل كثير من الأشياء، وأن بإمكانه أن يفعل منها ما يريد فعله ويترك ما يشاء تركه، ولا أظن أن في الناس من يشك ببداهة هذا الإدراك الذي هو من أبرز الأدلة على الاختيار الكامل والحرية المطلقة.

وإن كل إنسان يدرك أيضاً بكل وضوح أن العقلاء بأجمعهم متفقون على مدح من يفعل الفعل الحسن وذم مرتكب الفعل القبيح، وذلك برهان آخر على كون الإنسان مختاراً كل الاختيار في فعله، إذ لا يصح من العقلاء ـ لولا الاختيار ـ إطلاق كلمات المدح والذم.

كذلك فإن كل إنسان يشعر ـ بإدراكه الشخصي ـ أن حركته حين يهبط من العلو بواسطة السلم تغاير حركته عند سقوطه من شاهق إلى الأرض، حيث يحس أنه مختار في الحالة الأولى ومجبور في الثانية.

وقد ثبت ـ في العقل السليم ـ بما لا ريب فيه أن خالق هذه الشؤون والقدرات في الإنسان لم ينعزل عن خلقه بعد الإيجاد، وأن بقاء الأشياء واستمرارها في الوجود محتاج إلى المؤثر في كل آن، إذ ليس خالق الأشياء بالنسبة إلى مخلوقاته من قبيل البنَّاء الذي يبني البيت ويقيم جدرانه ثم يستغني البيت عن مشيِّده ويستمر وجوده وإن مات بانيه؛ أو مثل الكتاب يحتاج إلى كاتبه في حدوثه ثم يستغني عنه في مرحلة بقائه واستمراره، بل إن موجد الكون بكل ما فيه ومن فيه بالنسبة إلى موجوداته من قبيل الطاقة الكهربائية في الضوء حيث لا يوجد إلا حين تمده هذه الطاقة بتيارها، ولا يزال يفتقر في بقاء وجوده إلى مدد هذه القوة في كل حين، فإذا انفصلت أسلاكه عن مصدر الطاقة في آن ما انعدم الضوء في ذلك الحين. وهكذا تستمد جميع الأشياء والكائنات وجودها من مبدعها الأول في كل وقت وكل لحظة حدوثاً وبقاءاً، وهي مفتقرة إلى عونه ومدده في كل حين.

وباتضاح ما سلف يظهر أن أعمال الإنسان وسط بين «الجبر» و«التفويض»؛ وله حظ من كل منهما، فإن إعمال قدرته في الفعل أو الترك وإن كان باختياره إلا أن هذه القدرة ـ بسائر ما تحتاج إليه من مبادىء ـ إنما تفاض من الله تعالى، فالفعل مستند إلى الإنسان من جهة وإلى الله جل وعلا من جهة أخرى، والآيات القرآنية التي استدل بها «الجبريون» متجهة نحو بيان أن اختيار الإنسان في فعله لا يمنع من نفوذ قدرة الله وسلطانه ولا يعني استغناء الإنسان عن الله وانقطاعه عن حوله وقوته.

وكان أستاذنا آية الله الإمام الخوئي قد ضرب مثالاً لتوضيح «المنزلة بين المنزلتين» في مجلس درسه فقال ما فحواه:

لو أن إنساناً أصيبت يده بالشلل فلم يعد يقدر على تحريكها بنفسه، ثم أتيح له ـ طبياً ـ أن تبعث فيها الحركة بواسطة جهاز كهربائي يربط بيد هذا المريض، بحيث يصبح قادراً على تحريك يده بنفسه في حالة اتصال يده بذلك الجهاز وتعود إلى حالتها السابقة بمجرد انفصالها عن مصدر حركتها. ففي حال الاتصال والقدرة على تحريك اليد وقيامها بأعمالها الاعتيادية تكون الحركة أمراً بين أمرين، فهي ليست مستندة إلى صاحبها بنفسه كل الاستناد، لأن قدرته بحاجة إلى الاتصال بالجهاز الذي يمكّن من الحركة، وليست مستندة إلى الجهاز وحده؛ لأن الحركة إنما تكون باختيار الرجل وإرادته.

وهكذا يوضح لنا المثال السابق ما نحن بصدده من مسألة «الجبر» و«التفويض»، فمن حيث كون الإنسان محتاجاً إلى المبادىء الأساسية للفعل كالحياة والقوة وما شاكلها وهي مفاضة عليه من الله تعالى في كل آن فـ«لا تفويض»، ومن حيث كونه غير مجبور على الفعل ولا يقع منه بلا إرادة واختيار فـ«لا جبر».

ولم يبق لدينا ـ على ضوء هذه المناقشة ـ غير الاختيار الكامل في الفعل والترك، بلا شائبة تسيُّب ولا شبهة إكراه.

❀ ❀ ❀

ولزيادة الاستيعاب والتفصيل في دحض الشبهات وإثبات المطلوب نسوق فيما يلي طائفة من الأدلة على اختيار الإنسان في أفعاله، مستعرضين ما قيل في الرد على هذه الأدلة وما نقوله في تفنيد تلك الردود:

١ ـ الفرق بين الفعل الاختياري والاضطراري:

لقد سبقت منا الإشارة إلى الإحساس بالفرق الجلي البديهي بين صدور الفعل من الإنسان بقصد إليه ورغبة فيه، وبين ما يقع منه بدون قصد إليه مطلقاً، فارتعاش اليد وتحرُّكها ـ مثلاً ـ ربما يكون مَرَضياً لا يستطيع الإنسان السيطرة عليه فيحس بأنه خارج اختياره واستطاعته، وربما يكون اختيارياً يتحكم فيه الإنسان ويوقفه متى شاء.

وهكذا الأمر في الأفعال بشكل عام وفي الإحساس بالفرق الواضح بين ما يقع منها بالاختيار وغيره.

فإذا كانت أفعالنا كلها ـ حسب الزعم ـ مخلوقة من قبل الله تعالى وليس فيها أي اختيار، فلماذا نحس بالفرق الكبير بين الاختيارية منها والاضطرارية؟!.

وتفلسف بعض المتكلمين في بيان الفرق بين الفعلين فذهب إلى أن الاضطراري منه إنما يقع بفعل الله تعالى من دون وجود قدرة للإنسان أو إرادة في وقوعه، بخلاف الاختياري الذي يوجده الله تعالى مقارناً لإرادة العبد له.

وهذا القول واضح البطلان:

فإن القدرة المشار إليها إن كانت بمعناها اللغوي المعروف القائم على أساس «إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل» فإن ذلك مخالف للجبر الزعوم، بل هو الدليل على ما نقوله نحن من الاختيار، وإن كانت بمعنى آخر لا ينافي الإكراه فهي ليست قدرة أبداً ولا يصح تسميتها بذلك مطلقاً.

وأما الإرادة التي ذكرها هذا المتفلسف فإن كان معناها هو

الاختيار في الفعل ـ كما هو الصحيح ـ فإن الاختيار غير موجود في زعم القائل؛ لأن الفعل ـ حسب ادعائه ـ غير خاضع لاختيار العبد وإشاءته، وإن قصد بها القائل معنى الرغبة النفسية في وقوع الفعل فإن الرغبة ـ هذه ـ ليست إيجاداً للفعل كما نحس بالوجدان، وكثيراً ما يرغب الإنسان في شيء ما ولكنه لا يتحقق بمجرد الرغبة، وإذا لم تكن الرغبة عين الفعل ـ كما ذكرنا ـ كان التفريق المشار إليه بين الاختيار والاضطرار بلا محصل أبداً.

❀ ❀ ❀

٢ ـ صراحة القرآن الكريم في الاختيار:

لعلَّ من أبرز أدلة الاختيار الذي نحن بصدد إثباته: ذلك التأكيد القرآني على نسبة العمل إلى الإنسان والتصريح باختياره الكامل وإضافة الفعل إليه على وجه مطلق آب عن الحمل والتأويل:

﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٧].

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧].

﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران: ١٩٥].

إلى كثير من أمثال هذه الآيات الشريفة وكلها نص قاطع على نسبة الفعل إلى العبد بمحض اختياره وعدم وقوعه إلا بمشيئته وإرادته.

وقد شذ بعضهم فقال: إن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢] صريح في أن أفعال العباد كلها ـ وهي مشمولة لعموم «كل شيء» ـ مخلوقة من قبل الله تعالى وليست من خلق الإنسان نفسه، وهل هذا إلا «الجبر» بعينه؟!.

والصواب في الأمر أن هذه الآية غير ناظرة إلى أفعال العباد وأعمالهم، لأنها في صدد الرد على أولئك القائلين بتعدد الخالقين: خالق للأرض وخالق للأفلاك وخالق للناس.. إلخ فكان الرد على أولئك أن الله تعالى هو خالق هذه الأشياء كلها وليس من خالق غيره.

أما اختصاص كلمة «خالق» به تعالى فليست دليلاً على صحة تعميم خلقه لكل شيء حتى أفعال العباد، فقد ورد الخلق في القرآن منسوباً إلى الإنسان أيضاً، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي﴾[1] وقوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾[3] كما أن قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[5] دليل على أن الإنسان خالق أيضاً وإن كان الله تعالى أحسن الخالقين.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.
(٥) سورة الصافات، الآية: ١٢٥.

وأما الاستدلال على إيجاد الله لأفعال الناس بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[١] حيث صرحت الآية بأن ما يعمله الناس إنما هو من خلق الله تعالى، فمردود أوضح رد، لأن هذه الآية الشريفة إنما هي تتمة لآية سابقة عليها هي قوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾[٢]، وكان جواب هذا الاستفهام: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾. ومن الجمع بين الآيتين يظهر أن المقصود بهما الرد على أولئك الذين ينحتون الأصنام من الصخور أو يعملونها من التمور ـ مثلاً ـ ثم يتوجهون إليها بالعبادة ويقربون لها القرابين، فأبان الله تعالى بهذه الآية أنه جل وعلا قد خلق أولئك المشركين وخلق تلك المواد التي ينحتون منها أصنامهم. وليس لذلك أي ارتباط بمسألة أفعال العباد وأعمالهم وتصرفاتهم.

٣ ـ العقاب دليل الاختيار:

إن العقاب الإلهي لفاعل المعصية ـ كما ورد في القرآن الكريم ـ دليل صريح على اختيار الإنسان في فعله:

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤].

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤].

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣].

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٩٦.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٩٥.

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].

أما أن يكون الله تعالى هو الموجد للفعل في عبده ثم المعاقب له عليه فذلك مستحيل كل الاستحالة، لأنه ظلم صارخ ننزه الله تعالى عنه كما نزه نفسه:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٣] ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨] ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤] ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقد حاول بعض المتنطعين من علماء الكلام تصحيح نسبة الظلم إلى الله فقال ما خلاصته:

إن الظلم ليس قبيحاً على الله تعالى، لأن الظلم القبيح الذي يستنكره العقل هو التعدي على الغير سواءاً كان ذلك تعدياً على بدنه أو عرضه أو ماله. أما تصرف الإنسان فيما يملك فهو غير قبيح لما له من الحرية في التصرف المطلق فيه بلا قيد أو شرط، ومن ذلك تصرف الله تعالى في مخلوقاته؛ باعتباره خالق الكون ومالكه؛ وباعتبار أن كل ما في هذا الكون ملك له وخاضع لقدرته وسلطانه، فله أن يتصرف فيه كما يريد، فيعذب من يشاء ولو كان مؤمناً، وينعم من يشاء ولو كان كافراً، لأن الجميع ملكه وسلطانه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ولا يحق للعقل الإنساني أن يرقى إلى المقام الإلهي فيحكم على أفعاله بحسن أو قبح.

وهذه الشبهة مردودة من جهات:

أولاً ـ أنه ليس المقصود بالبحث فرض حكم العقل على الله تعالى وإنما هو بيان ما ينتظر من فضله ولطفه في معاملة عباده. وإننا إذ نسلم

كل التسليم أن التكليف بالمحال؛ وبما هو فوق الطاقة؛ وإدخال العاصي الجنة والمطيع النار؛ مقدور لله تعالى كل القدرة وباستطاعته جل وعلا أن يتصرف كذلك ويأمر بمثل ذلك، فإننا نقطع يقيناً بأنه لن يفعلها، لطفاً منه وكرماً، لا قصوراً وعجزاً.

وثانياً ـ أن القول بعدم قبح الظلم سيحمل الإنسان على عدم امتثال أوامر الله تعالى، لعدم الثقة بنزاهة الحكم وسلامة النتائج؛ وعدم الاطمئنان بأن الله تعالى سوف لن يخلف وعده وإن قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾، لأن ذلك كله يعتمد على قبح الظلم والكذب وخلف الوعد، أما إذا انتفى موضوع القبح كما زعم الزاعم فليس هناك من الثقة والاطمئنان ما يحمل الإنسان على الطاعة ومخالفة الهوى ومحاربة النفس الأمارة.

وثالثاً ـ أن معنى الظلم ليس مختصاً بالتعدي على الغير فحسب، بل إن كل خروج عن النهج الوسط وكل ميل إلى إفراط أو تفريط هو ظلم أيضاً، ومنه ما يقال من أن فلاناً ظالم لنفسه؛ ويقصد به خروجه عن حد الاعتدال في تصرفاته في مأكل أو ملبس أو إنفاق، مع أن ذلك كله ملك له؛ ولديه الحرية المطلقة في التصرف به كما يشاء، ولكنه على الرغم من ذلك ظلم في العرف العام.

ولو أن رجلاً مّا عذب حيواناً يملكه مع انقياده الكامل وعدم إيذائه أكان يعذر على ذلك بأنه ملكه؟!.

٤ ـ الظلم قبيح:

لو لم يكن الإنسان مختاراً في فعله وقادراً عليه وموجداً له بمحض إرادته؛ لكان الله أظلم الظالمين، لأن عقاب فاعل المعصية حتمي،

وحيث إن المعصية ـ حسب الزعم ـ لم تكن باختيار الإنسان فإن عقابه سيكون من أفظع ضروب الظلم.

وقد أجاب القائلون بالجبر على ذلك بجوابين:

أولاً ـ أن العقاب ليس على الفعل وإنما هو على الكسب.

ونقول نحن في رد ذلك:

إن المفهوم من المعنى اللغوي والاستعمال القرآني للفظ «الكسب» أنه الفعل القائم على الاختيار، قال تعالى:

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [النساء: ١١١].

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة: ٣٨].

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس: ٢٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

إلى كثير من الآيات الشريفة الدالة على أن الكسب هو العمل بالاختيار والطواعية؛ وإن من شروطه القدرة النابعة من نفس الإنسان، وعندما أدرك هؤلاء فساد ادعائهم على إطلاقه زعموا: أن الكسب الذي يوجب العقاب إنما هو صدور الفعل من الله تعالى مقارناً لإرادة الإنسان لتحقق هذا الفعل في الخارج.

ونجيبهم على ذلك: بأن هذه المقارنة خارجة عن الاختيار فلا يصح العقاب عليها، لأن الإنسان ليس له ـ حسب فرض هؤلاء ـ إلا الرغبة في تحقق الفعل، وأما إيجاد الفعل فهو ـ بزعمهم ـ من الله تعالى، والمقارنة الواقعة بين رغبة العبد وإيجاد الله إنما تحققت بإرادة

الله وفعله وقوته باعتباره الفاعل الحقيقي حسب ادعائهم، فكيف يصح منه جل وعلا أن يعاقب العبد على فعل لم يوجده ومقارنة ليس له أي اختيار فيها.

وثانياً ـ أن ظلم الله تعالى لعباده غير قبيح لأنه جزء من تصرف المالك فيما هو داخل في ملكه وسلطانه ـ وقد سبق لنا تفنيد هذا القول وإيضاح وجوه الخطأ فيه ـ، ولأن الأفعال ليست لها قيم ذاتية يصح وصفها بالحسن أو القبح، بل إن الحُسن والقبح في أفعال العباد مستفاد من الشرع، فما نهى عنه الشرع فهو قبيح، وما أمر به فهو حسن، ولو عاد الشرع إلى ما نهى عنه فأمر به أو إلى ما أمر به فنهى عنه انقلب القبيح حسناً والحسن قبيحاً.

وإذا كان حسن الأفعال وقبحها مستفاداً من الشرع دون العقل ـ حسب الزعم ـ فإن فعل الله تعالى لا يحكم عليه بحسن أو قبح لأنه فوق الشرع والتكليف، وتكون النتيجة أن كل ما يفعله الله ـ وإن انطوى على الظلم ـ حسن وجميل وأن العقل قاصر عن الحكم بقبح صدور الظلم من الله جل شأنه.

ويجدر بنا قبل بيان الرأي الصحيح في هذا الموضوع أن نشير إلى أن للحسن والقبح معانياً ثلاثة.

المعنى الأول:

إطلاق الحسن والقبح على معاني الكمال والنقص، فالعلم حسن والجهل قبيح، والشجاعة والكرم حسنان، ويقابلهما الجبن والبخل فهما قبيحان. وليس في ذلك خلاف بين المفكرين لأنه من القضايا اليقينية التي لها واقع خارجي يطابقها.

المعنى الثاني:

إطلاق الحسن والقبح على ما يلائم النفس أو ينافرها، فهذا منظر حسن وهذا صوت حسن والأكل عند الجوع حسن؛ وهكذا، كما يقال: هذا منظر قبيح وصوت الأنين قبيح. وهذا المعنى مما لا نزاع فيه بين أطراف المناقشة؛ لأنه مستمد من أعماق الشعور النفسي بعيداً عن حكم الشرع وتكاليفه.

المعنى الثالث:

إطلاق الحسن والقبح على ما يستحق المدح والذم، ويقعان وصفاً بهذا المعنى للأفعال الاختيارية، حيث يكون الحسن ما استحق فاعله المدح والثواب عند العقلاء؛ والقبيح ما استحق فاعله الذم والعقاب عندهم كافة.

وهذا المعنى ـ الثالث ـ هو محل النزاع.

فالأشاعرة قد ذهبوا إلى نفي وجود حكم للعقل في حسن الأفعال وقبحها، بل إن ما حسَّنه الشرع فهو حسن وما قبحه فهو قبيح، ولا دخل للعقل في كل ذلك.

ورفضت الإمامية والمعتزلة هذه الفكرة وقالوا: إن للأفعال قيماً ذاتية عند العقل مع غض النظر عن حكم الشرع، فمنها ما هو حسن في نفسه، ومنها ما هو قبيح في نفسه، ومنها ما ليس له أحد هذين الوصفين، والشرع المقدس لا يأمر إلا بما هو حسن ولا ينهى إلا عما هو قبيح. فالصدق مثلاً حسن في نفسه ولحسنه أمر الله تعالى به؛ لا أنه صار حسناً بعد أمر الله به، والكذب في نفسه قبيح ولذلك نهى الله عنه؛ لا أنه قبح بعد النهي عنه.

ودليلنا على ذلك أن غير الملتزمين بالدين ـ على اختلاف فصائلهم ـ يصفون الصدق بالحسن وينعتون الكذب بالقبح، من غير أن يكون للحكم الشرعي أي أثر في هذا التحسين والتقبيح.

ومنه يظهر أن الحسن والقبح الذاتيين عقليان قبل أن يكونا شرعيين، وأن العدل حسن بما هو عدل والظلم قبيح لأنه ظلم، من دون أن يكون لتحسين هذا وتقبيح ذاك علاقة بالنص الشرعي والحكم الديني.

وإذن. فيجب أن يكون الله تعالى عادلاً بحكم العقل لأن العدل حسن، ويستحيل أن يكون ظالماً بحكم العقل أيضاً لأنه قبيح.

وخلاصة القول: إن كل أدلة القرآن والعقل صريحة في اختيار الإنسان في فعله؛ وحريته في سائر تصرفاته بلا جبر ولا إكراه، وإن كل ما أثير من شبهات بشأن الجبر لن تقوى على الثبوت أمام تلك الأدلة الصريحة والنصوص القاطعة. وصدق الله العلي العظيم حيث يقول:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

القضاءُ والقَدَر

البحث في مسألة «القضاء والقدر» ـ وإن عنونه علماء الكلام بعنوان خاص ـ جزء لا يتجزأ من البحث في الجبر والاختيار وتتمة لا يمكن فصلها عنه، لأنه قائم ـ نظرياً ـ على نفس الأساس الفكري الذي قامت عليه المسألة الأم المشار إليها.

ونحن لا نريد في هذا الاستعراض العاجل أن نلم بكل جوانب الموضوع، لأن كثيراً منها خارج الصدد وتطويل بلا طائل، وإنما غاية ما نهدف إليه ـ هنا ـ أن نوضح المعنى الإسلامي لهذه المسألة كما دلنا عليه كتاب الله والسنة الشريفة، لنعرف ما يجب علينا الاعتقاد به في هذا الأصل المهم من أصول الدين، خصوصاً ونحن نرى الناس يحمِّلون القضاء والقدر كل شؤونهم اليومية من بلاء وشقاء وخير وشر وصلاح وفساد، فهل كان ذلك كله من صميم العقيدة ومن معطيات الفكر الإسلامي؟

وتمهيداً لبيان الفهم الإسلامي السليم لهذه الفكرة يجدر بنا أن نستعرض بإيجازٍ معاني هاتين الكلمتين كما وردت في مصادر اللغة وكما استعملت في القرآن الكريم، لنستطيع من طريق هذا الفهم المستوعب لمعانيهما أن نعرف الغرض الشرعي منهما في استعمالات النصوص الإسلامية:

١ ـ المعنى اللغوي:

«القضاء بمعنى العمل، ويكون بمعنى الصنع والتقدير» «قضى الشيء قضاءاً صنعه وقدَّره» و«كل ما أُحكم عمله أو أُتم أو ختم أو أدي أداءاً أو أُوجب أو أعلم أو أنفذ أو أمضي فقد قُضي».

«وقضى أي حكم»، «ومنه القضاء للفصل في الحكم».

والقضاء: الإعلام، تقول: «قضينا إليه ذلك الأمر أي أنهيناه إليه وأبلغناه ذلك»[١].

أما القدر فهو «القضاء والحكم»[٢].

٢ ـ المعنى القرآني:

أُطلق القضاء ـ قرآنياً ـ على المعاني الآتية:

أ ـ الخلق والإيجاد نحو قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] أي خلقهن وأوجدهن..

ب ـ الإيجاب والحكم مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي أوجب وحكم.

ج ـ الإعلام والأخبار كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: ٤] أي أعلمناهم وأخبرناهم.

واستعمل القدر ـ قرآنياً ـ في المعنيين الآتيين:

أ ـ الخلق والتنظيم والتدبير والترتيب مثل قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ

(١) لسان العرب: ١٥/١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) لسان العرب: ٥/٧٤.

أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [المزمل: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

ب ـ البيان والإخبار نحو قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧] أي أخبرنا وبيّنا أنها من الغابرين.

وإذا اتضح لنا المعنى اللغوي وموارد الاستعمال القرآني لهاتين الكلمتين أصبح من الضروري أن يكون انتساب أفعالنا إلى القضاء والقدر منسجماً مع هذه المعاني وناظراً إليها وغير خارج عن إطارها المحدد، فإذا قلنا بأن فعلنا الفلاني كان بقضاء الله وقدره فما هو المقصود من ذلك؟

إننا لا نستطيع أن نفسر ذلك بالخلق الذي هو أحد معاني القضاء والقدر، لما سبق لنا بيانه في الفصل السابق من أن أفعالنا إنما تقع باختيارنا وإرادتنا وإيجادنا، وليست بخلقٍ من الله تعالى وإيجاد من عنده.

وإذا انتفى هذا المعنى بحكم الدليل انحصر المقصود من هاتين الكلمتين حصراً، حيث يكون قضاءُ الله: إيجابَه وحكمه؛ وقدرُه: بيانه وعلمه، ويصبح مؤدى إخبارنا بوقوع الفعل المعين بقضاء الله وقدره أنه وقع بإيجابه وبيانه وعلمه.

وعلى هذا الأساس نقول بوجوب الرضا بقضاء الله وقدره أي وجوب القبول والاستسلام والإيمان والإذعان لما أوجب الله علينا وبيّن لنا من أمر وحكم، وذلك هو المقصود، ولا مقصود غيره.

وحسبنا في الاستدلال على صحة هذا الفهم ما ذكره أمير

المؤمنين (ع) في جوابه على سؤال الشامي منه عن المسير إلى صفين هل كان بقضاءٍ من الله وقدر؟ فقال (ع):

«نعم يا شيخ، ما علوتم تلعة ولا هبطتم وادياً إلا بقضاء وقدر من الله».

«فقال الشامي: عند الله أحتسب عنائي يا أمير المؤمنين».

فقال (ع):

«مه يا شيخ، فإن الله قد عظم أجركم في مسيركم وأنتم سائرون، وفي مقامكم وأنتم مقيمون، وفي انصرافكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من أموركم مكرهين»[١].

ثم قال (ع):

«لعلك ظننت قضاءاً لازماً وقدراً حاتماً، ولو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد. إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلَّف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً»[٢].

إن هذه الجمل العلوية البليغة واضحة في الدلالة على صحة ما قلناه، حيث صرح بأن المسير إلى الشام كان بإيجاب الله تعالى وحكمه ـ ويعني به حكم الله في وجوب محاربة البغاة ـ وأن الله تعالى قد عظم أجر أولئك المحاربين لأنهم فعلوا ذلك امتثالاً لأمر الله وتنفيذاً لحكمه.

ويقول أمير المؤمنين سلام الله عليه في كلام له في ذكر الملائكة:

---

(١) تحف العقول: ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

(٢) نهج البلاغة: ٣/ ١٦٧.

«ومنهم أمناء على وحيه، وألسنة إلى رسله، ومختلفون بقضائه وأمره»[١].

وليس يعني بالقضاء والأمر إلا تلك الواجبات والأحكام التي يحملها الملائكة إلى الأنبياء والمرسلين ليبلغوها أممهم وأقوامهم.

ويقول الإمام الصادق (ع) في توضيح الإيمان بالقدر:

«الناس في القدر على ثلاثة أوجه:

رجل يزعم أن الأمر مفوض إليه، فقد وهن الله في سلطانه، فهو هالك.

ورجل يزعم أن الله جل وعز أجبر العباد على المعاصي وكلفهم ما لا يطيقون فقد ظلم الله في حكمه، فهو هالك.

ورجل يزعم أن الله كلف العباد ما يطيقون ولم يكلفهم ما لا يطيقون، فإذا أحسن حمد الله، وإذا أساء استغفر الله، فهذا مسلم»[٢].

وهكذا يكون قضاء الله وقدره تعبيراً آخر عن أمره وحكمه وتكاليفه الموجهة للعباد، ويكون رضانا بالإسلام وإقرارنا بالشريعة رضاً بقضاء الله وإقراراً بقدره.

(١) نهج البلاغة: ١/ ١٣.

(٢) تحف العقول: ٣٤٤.

الهدى والضلال

بقي الكلام في مسألة «الهدى والضلال» التي عدها العلماء من توابع قضية الجبر والاختيار والقضاء والقدر، وقد وردت في القرآن الكريم عدة آيات يشعر ظاهرها بأن الله تعالى هو الذي يهدي ويضل من دون اختيار للإنسان في ذلك ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٤] ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦]، وإذا كانت الهداية والإضلال من الله تعالى فلماذا يعاقب الضالين على ضلالهم ويثيب المؤمنين على هداهم، وكلاهما من فعل الله تعالى وبإشاءته؟.

ويجدر بنا قبل الجواب على هذه الشبهة أن نستعرض معاني الهدى والضلال كما وردت في كتب اللغة وكما استعملها القرآن الكريم في طيات آياته، لنفهم الغرض منها بدون لبس أو غموض:

«أصل الهداية في اللغة: الدلالة على طريق الرشد»[1]، «وهداه للطريق وإلى الطريق... إذا دلّه على الطريق، وهديتُه الطريق والبيت هداية أي عرفته»[2]، و«الهدى ضد الضلال، وهو الرشاد والدلالة»[3]، ويقال: «هديت لك في معنى بينت لك»[4] كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [طه: ١٢٨]. أما «قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، معناه: خلق كل شيء على الهيئة التي بها يُنتفع. ثم هداه لمعيشته»[5].

---

(١) التبيان: ١/ ٤١.

(٢) لسان العرب: ١٥/ ٣٥٥.

(٣) و(٤) و(٥) لسان العرب: ١٥/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

و«الهداية في كلام العرب بمعنى التوفيق، قال الشاعر:

لا تحرمنِّي هداك الله مسألتي ولا أكونَنْ كمن أودى به السفرُ

يعني به: وفقك الله لقضاء حاجتي»[١].

وقوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] «أي أدخولهم النار، كما تهدى المرأة إلى زوجها يعني بذلك أنها تدخل إليه»[٢].

و«يقال لمن يتقدم القوم ويدلهم على الطريق: هاد»[٣]، و«الهداية: هي الثواب»[٤] قال تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩] أي يثيبهم وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧] ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢] أي لا يثيب، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] أي ليس عليك ثوابهم ولكن الله يثيب من يشاء.

و«أصل الضلال الهلاك، ومنه قوله تعالى: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] أي هلكنا... والضلال في الدين: الذهاب عن الحق، والإضلال، الدعاء إلى الضلال والحمل عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه: ٨٥]، والإضلال الأخذ بالعاصين إلى النار»[٥].

إن النظرة الفاحصة لهذه المعاني التي يستعمل فيها لفظا الهدى والضلال ترشدنا إلى ما يلي:

١ ـ إن الإضلال قد يطلق على الإشارة إلى خلاف الحق والدعوة إلى

---

(١) و(٢) تفسير الطبري: ١/ ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) و(٤) مجمع البيان: ١/ ٢٧ ـ ٢٨.

(٥) التبيان: ١/ ٤٦.

الضلال والحمل عليه. وذلك ما لا يمكن وصف الله تعالى به أو نسبته إليه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ [التوبة: ١١٥]، بل إن الضلال ـ بصريح القرآن ـ لن يتحقق إلا بفعل الإنسان ومحض اختياره، قال تعالى:

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ [سبأ: ٥٠].

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [القلم: ٧].

كذلك يطلق الإضلال أيضاً على الإبطال والإهلاك مثل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١] أي يهلكهم، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[٢] أي: ومن يهلك الله من الكافرين والظالمين فما له من مثيب، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[٣] أي فلن يبطل أعمالهم.

٢ ـ يطلق الهدى على الدلالة إلى الحق مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[٦].

---

(١) سورة غافر، الآية: ٧٤.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٣.
(٣) سورة محمد، الآية: ٤.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.
(٥) سورة الحجرات، الآية: ١٧.
(٦) سورة فصلت، الآية: ١٧.

كما يطلق الهدى على الإثابة أيضاً مثل قوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾[1] أي سيثيبهم.

وعلى ضوء هذه الخلاصة لمعاني الهدى والإضلال نصل إلى نتيجة البحث، وهي:

أن الإضلال بمعنى الإشارة إلى خلاف الحق مستحيل على الله تعالى لأنه الآمر بالحق، ولا يجوز في العقل أن يشير إلى خلافه أبداً.

وأن الهدى بمعنى الدلالة إلى الحق قد فعله الله وحقَّقه بإرسال الأنبياء وإنزال الكتب جيلاً بعد جيل.

ولم يبق لدينا من المعاني المنسجمة مع الواقع سوى الإضلال بمعنى الإهلاك في العقاب والهدى بمعنى الثواب، ويكونان هما المقصودين حصراً بما يتكرر وروده في القرآن الكريم نحو قوله تعالى:

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ [النساء: ٨٨]: أي أتريدون أن تثيبوا من أهلك الله بالعقاب، ونحو قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] أي بالقرآن؛ حيث يهلك الله تعالى بنزول القرآن كثيراً من الناس لتمردهم عليه وعدم تنفيذهم لأوامره ونواهيه بعد إلزامهم بها ويثيب به كثيراً من الناس لإطاعتهم وتسليمهم وإذعانهم.

وإذا لم يكن الغرض من الهداية الإثابة لما فهمنا معنى مقبولاً لما جاء في قوله تعالى مخاطباً نبيَّه الأعظم: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ولو كانت الهداية

(١) سورة محمد، الآية: ٥.

بمعنى الإرشاد والدلالة لكانت هاتان الآيتان هدماً لرسالة النبي في أبرز واجباتها وهو الدلالة والإرشاد والتوجيه.

وعلى هذا المنهج نسير في فهم سائر الآيات المباركة التي تحمل كلمات الهدى والإضلال، حيث يتجلى لنا سلامة كل هذه النصوص القرآنية مما يتنافى مع الاختيار الكامل والإرادة الحرة المنبعثة من نفس الإنسان ورغبته.

وبذلك نفهم أوضح الفهم معنى قول النبي (ص): «الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمه»، إذ ليس المقصود به أنه تعالى قد خلقه مجبوراً على فعل ما يشقى به من معصية وضلال أو ما يسعد به من طاعة وهدى ورشاد، وإنما الغرض منه كما قال الإمام الصادق (ع) بيان أن «الشقي من علم الله وهو في بطن أمه أنه سيعمل عمل الأشقياء والسعيد من علم الله وهو في بطن أمه أنه سيعمل عمل السعداء»، وهذا من باب انكشاف الواقع لعلم الله تعالى كما سلفت الإشارة إليه، وليس فيه أي معنى من معاني الجبر والإكراه.

❀ ❀ ❀

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١ ـ **القرآن الكريم**.

٢ ـ **أصول الفقه**، للشيخ محمد رضا المظفر، النجف ١٣٧٢هـ.

٣ ـ **أوائل المقالات**، للشيخ المفيد، إيران ١٣٧١هـ.

٤ ـ **تحف العقول**، لابن شعبة الحراني، النجف ١٣٨٣هـ.

٥ ـ **تفسير التبيان**، للشيخ الطوسي، النجف ١٣٧٦هـ.

٦ ـ **تفسير الطبري**، القاهرة ١٣٧٣هـ.

٧ ـ **تفسير مجمع البيان**، للطبرسي، صيدا ١٣٣٣هـ.

٨ ـ **شرح تجريد الاعتقاد**، للعلامة الحلي، صيدا ١٣٥٣هـ.

٩ ـ **شرح نهج البلاغة**، للشيخ محمد عبده، القاهرة (د.ت).

١٠ ـ **لسان العرب**، لابن منظور، بيروت ١٩٥٥م.

النبوة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

«القرآن الكريم»

❀ ❀ ❀

«وواترَ إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول».

«أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)»

مُقَدِّمَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

❖ ❖ ❖

عندما يكون الحكم في السماء والأرض لله تعالى ـ وله وحده ـ بلا شريك أو منازع، باعتباره ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ و﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ و﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

عندما يكون الحكم لله تعالى بهذا العمق والشمول وبشهادة البرهان والدليل والفطرة، فإن من أول واجبات هذا الحاكم ـ لطفاً منه وكرماً وتفضلاً ـ أن يضع للبشرية ما يكفل أمنها واستقرارها، ويحمي حقها وكرامتها، ويهذب سلوكها وسيرتها، كما أن من أول واجباته ـ إكمالاً لتفضله ومنته ولطفه ـ أن يوصل إلى البشر في كل أجيالهم تفاصيل تلك التشريعات والأحكام، ليعم النفع وتتم الحجة.

وهذا هو ـ باختصار ـ معنى «النبوة» بمدلولها العام.

❖ ❖ ❖

ولما كان العقل البشري ـ على مر القرون ـ يعيش تطوره المستمر وسيره الحثيث نحو النضج والعمق والفهم الأشمل، كانت الشرائع السماوية متدرجة مع هذا العقل في تقدمه وتطوره، حيث تكون في كل زمن ولكل قوم بمستوى ما يلائم مصالح الزمن والقوم ويتمشى مع درجة النضج الفكري لذلك العصر وأهله، حتى بلغت ذروة الذروة في رسالة الإسلام التي اختارها الله جل وعلا لتكون شريعة الإنسان المثلى في عصور نموه العقلي الكبير وتقدمه الحضاري الهائل.

وهذا هو ـ بإيجاز ـ معنى «النبوة» بمفهومها الخاص.

❀ ❀ ❀

وستعنى هذه الرسالة بشرح مسألة «النبوة»: بمدلولها «العام» المرتبط بسائر الرسالات السماوية ومبلغيها على امتداد التاريخ، وبمفهومها «الخاص» المتعلق برسالة الإسلام ومبلغها الأعظم عليه الصلاة والسلام. مع مراعاة بساطة العرض في كل ذلك ووضوح العبارة وجلاء الدليل.

ولن يفوتني وأنا في نهاية هذه السطور أن أشير إلى أنني لم أتعرض عند ذكر نبينا الأعظم (ص) إلى تاريخ حياته المباركة وجوانب سيرته الشريفة، نظراً لما تحتاجه من مجال واسع وتفصيل واف تضيق عنه صفحات هذه السلسلة، مرجئاً ذلك بأجمعه إلى كتابي الكبير «في رحاب الرسول (ص)» الذي أرجو أن أوفق إلى إتمامه ونشره في أقرب فرصة ممكنة إن شاء الله.

ولذلك فسوف لن يجد القارىء الكريم في هذه الرسالة سوى الحديث عن «النبوة» في حدود هذه المسألة وإطارها العلمي الخاص. ومن الله العون والتسديد.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الكاظمية ـ العراق

محمد حسن آل ياسين

النُّبوَّة

بمعناها العَام

انتهينا في دراسات سابقة[1] إلى نتيجة ثابتة لا مناص من الإقرار بها بحكم الدليل هي: أن الإيمان بوجود خالق لهذا الكون ـ بكل ما فيه ومن فيه ـ بديهية من بديهيات العقل والمنطق والفطرة والوجدان، وأن كل ما قيل بصدد التشكيك في صحة هذه البديهية لا يقوى على الصمود أمام المناقشة والبرهان، وأن المادة لما كانت معلولة الوجود فلا بد أن يكون لها مصدر أول غير معلول هو واجب الوجود وضروري الوجود، وأن هذا المصدر الأول لا بد أن يكون عاقلاً وواعياً وحكيماً، وتلك صفات لا يمكن تحققها في المادة العمياء العشواء الصماء المتخبطة.

ثم انتهينا ـ في دراسة سابقة أيضاً ـ إلى نتيجة أخرى خلاصتها: أن الحاكمية الواقعية ـ بكل أبعادها ـ إنما هي لله تعالى، باعتباره القادر على كل شيء والفعال لما يريد، و﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣]، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، والمنزه عن الخطأ، وهو الغني الحميد. ولا يمكن لنا أن نعترف لأي قوة بالحاكمية الواقعية

---

(١) يراجع: «الله بين الفطرة والدليل»، [أول كتب هذا المجلد]. و«هوامش على كتاب نقد الفكر الديني» [في المجلد التاسع ـ الموسوعة، ص ٣٦١ ـ ٤٧٧].

وكونها مصدر السلطات إلا إذا جمعت هذه الصفات، ولن يمكن اجتماعها أبداً لغير الله تعالى بحكم العقل والبديهة[١].

وإذا كانت هذه الحاكمية الواقعية خاصة بالله تعالى ـ كما مر ـ فلا بد أن تكون الحاكمية القانونية ـ بكل سلطاتها ـ له جل وعلا أيضاً من غير مشارك أو منازع، لعدم إمكان الفصل بينها وبين الحاكمية الواقعية المارة الذكر أبداً.

وتكون المسلمة المستنبطة من ذلك كله:

إن هذا الإله القادر العاقل الواعي الحكيم المتفرد بالحاكمية الواقعية بكل أبعادها والحاكمية القانونية بكل سلطاتها لا بد أن يضع للبشرية النظام الذي تتجلى به تلك الحاكمية فيما تريد وما لا تريد، خصوصاً وأنه تعالى على علم ـ ليس مثله علم ـ بما سيؤول إليه أمر الإنسان في عشرات القرون وفي مئات القرون من كثرة عددية هائلة، متباينة الأذواق والرغبات، مختلفة المصالح والأهواء، متفاوتة الأفكار والذهنيات، بالشكل الذي لن يستقيم به لهذه الكثرة عيش هادىء مستقر من دون نظام يحكم الجميع ويخضع له الجميع، يحدد فيه لكل من الفرد والمجتمع حقه وواجبه، ويخطط فيه لكل إنسان منهج سلوكه مع نفسه وفي حياته العامة، وتوضع في ظله أفضل الحلول لمشاكل البشرية على مداها القريب والبعيد.

وهذا هو ما يصطلح عليه علماء الكلام «سر بعثة الأنبياء» وما نعبر عنه للتوضيح بـ«الهدف المنشود من وراء النبوة».

❀ ❀ ❀

(١) يراجع: «العدل الإلهي بين الجبر والاختيار»، من كتب هذا المجلد.

لعل هناك من يتساءل في نفسه فيقول:

لماذا يفرض الله على البشرية نظام حياتها ومنهج سلوكها، ولا يترك للإنسان حريته الكاملة في التشريع والتقنين معتمداً في ذلك على فكره ونظره ومستفيداً من تجاربه وخبره، خطأً وصواباً وحذفاً وإصلاحاً واستمراراً في التعديل والتبديل، حتى يصل في نهاية الشوط إلى النظام الأمثل والمنهج الأفضل؟.

والجواب على ذلك:

أولاً:

إن وضع النظام والتشريع إنما هو من حق «مصدر السلطات» بمفرده ومن دون أن يشاركه فيه أحد غيره. وهذا هو ما اجتمعت عليه كلمة علماء القانون والسياسة في عالم اليوم.

ولما كنا نعتقد ـ كما أسلفنا ـ أن الله تعالى هو مصدر السلطات وأنه الحاكم الواقعي والقانوني الذي لا ينازعه منازع كان لا بد من القول بأنه صاحب القول الفصل في وضع القانون واختيار النظام. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٧١].

وثانياً:

إننا نعتقد أن العقل البشري مهما أوتي من قوة الإبداع والابتكار والنفاذ لن يستطيع إدراك المصالح البعيدة المدى لمشاكل الإنسانية المعذبة وحلولها الصحيحة إلا بعد لأي طويل تتعدد فيه التجارب ويكثر التخبط والخطأ والاشتباه، وقد لا ينتهي المطاف به ـ على رغم كل ذلك ـ للحل الصائب والنتيجة المطلوبة، ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤].

وثالثاً:

إن وضع النظام من قبل البشر لن يخلو من تحكيم للمآرب الخاصة وإيثار للامتيازات الكبرى، وانعكاس للمشاعر الذاتية والطبقية لواضعي النظام، أياً كانوا وإلى أي طبقة انتسبوا.

ومن هنا كان لا بد لإنقاذ الإنسانية من عذاب التخبط والجهل والتجارب الخاطئة أن يضع نظامها العام من يعلم حاجاتها وتطلعاتها، ويدرك مشاكلها في يومها وغدها، ويميز بين ما ينفعها ويضرها، ويساوي بين سائر أفرادها، بدون تمييز بين فئة وفئة، وطبقة وأخرى، وفرد وغيره، وعنصر وسواه، وبلد وما عداه.

وليس في الكون من تجتمع فيه هذه الصفات سوى الله تعالى.

وليست أنظمته وتشريعاته سوى تلك الرسالات التي حملها أنبياؤه ورسله إلى الأرض لتسعد الإنسانية وتخرج الإنسان من الظلمات إلى النور.

وهذا هو معنى «اللطف» الذي عناه علماء الكلام باستنادهم إليه في القول بوجوب النبوة وضرورة استمرارها في الأرض ما دامت الحياة وما بقي الأحياء.

❀ ❀ ❀

وذهب قوم من الناس ـ أطلق عليهم اسم «البراهمة»[1] ـ إلى القول بعدم الحاجة إلى الرسالات السماوية ورسلها، واستدلوا على ذلك بزعم أن الرسالة إن جاءت بما يوافق العقل ففي العقل غنى عنها، وإن جاءت بما يخالف العقل فهي مرفوضة سلفاً.

---

(١) أشار إليهم وإلى زعمهم هذا: الإمام الغزالي في المنخول: ١٣. ويراجع مذاهب الإسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوي: ١/ ٧٣٦.

وهذا الزعم واضح البطلان متهافت البرهان، لأن كل مطلع على الشرائع السماوية يعلم أنها قد اشتملت على ما تعرفه العقول وعلى ما لا تعرفه، فأما ما تعرفه العقول فكان لهذه الشرائع دور التأكيد عليه والإلزام به، وفي ذلك دعم لمقام العقل وتعبير عملي عن أهميته في بناء الحياة.

وأما ما لا تعرفه العقول ـ وهو الأكثر الأكثر ـ فقد كان الغرض منه إرشاد الناس وتوجيههم نحو تعيين الأصلح لهم فيما يصطدمون به من مسائل الحياة المعقدة وشؤونها المجهولة ومشاكلها المتجددة.

وهذا الذي لا تعرفه العقول هو الذي عبر عنه البراهمة بـ«ما يخالف العقل»، وهو تعبير بعيد عن الدقة، لأن الرسالات السماوية بأجمعها لم يكن فيها ما يخالف العقل أبداً، إلا إذا اعتبر هؤلاء كل ما يجهله العقل مخالفاً له، وحينذاك يكون للرسالة دور الكشف عن المجهول، والتحرير للعقول ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [النحل: ٨٩].

❀ ❀ ❀

لقد وصف الله تعالى هؤلاء السفراء العظام بوصف الإمامة ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، والخلافة ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، والرسالة ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، والنبوة ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. ولم يصفهم بوصف «الحاكمية» لا بمعناها القانوني ولا السياسي أبداً، لأن النبي والرسول ليس «حاكماً أعلى»، وإنما هو نائب عن الحاكم الأعلى وهو الله عز وجل.

ومع تعدد الأوصاف المشار إليها فقد اقتصر القرآن الكريم في

خطاب محمد (ص) على صفتي: «الرسول» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] و«النبي» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤]، وقد تكرر استعمال هذين الوصفين في القرآن كثيراً، فهل هما بمعنى واحد أم أن هناك فرقاً بين الوصفين؟

وإذا كان ذلك ليس بذي بال بالنسبة إلى محمد بن عبد الله (ص) باعتباره جامعاً للعنوانين ومصداقاً لهذين اللفظين، فإن الفرق ـ لو وجد ـ يتجلى أثره فيما سبق على عهد رسول الله (ص) من نبيين ومرسلين.

وعلى الرغم من كثرة ما قيل في ذلك وتعدد الوجوه في المسألة فإن أرجح ما قرأناه في هذا الصدد أن «النبي: هو الإنسان المخبر عن الله بغير واسطة بشر، أعم من أن يكون له شريعة كمحمد (ص)، أو ليس له شريعة كيحيى (ع)»، وأنه إنما سمي نبياً «لأنه أنبىء من الله تعالى أي أخبر، فعيل بمعنى مفعل»[1].

و«الرسول: هو المخبر عن الله بغير واسطة أحد من البشر، وله شريعة».

وهكذا يظهر أن كلا من النبي والرسول متساويان في صفة الإخبار عن الله تعالى، ولكن الرسول له ميزة خاصة هي ميزة الإرسال بشريعة، أما النبي فهو أعم من حامل الشريعة أو القيم عليها بعد وفاة حاملها.

وهذا هو أرجح الوجوه في التفريق بين الوصفين، ومن هنا قال المتكلمون: إن كل رسول نبي ولا عكس.

❀ ❀ ❀

وحيث قد تبين من مجموع ما مر صحة القول بوجوب النبوة على

(١) مجمع البحرين للطريحي: ١/ ٤٠٥، طبعة النجف ١٣٧٨هـ.

الله تعالى بحكم العقل ومن باب اللطف، وضرورة القول بوجود سفراء أمناء بين الله سبحانه وبين الناس لإبلاغ التكاليف. كان لا بد من وجود أمارة تدل على صدق مدعي النبوة في ادعائه، لأن هذه السفارة الإلهية من المناصب العظيمة التي يكثر المدعون لها فيشتبه الصدق بالكذب، ويجب أن تكون هذه الأمارة فوق الأفعال العادية التي يستطيع المدعي الكاذب أن يأتي بمثلها. وبذلك ينحصر الأمر في الإتيان بـ«المعجز» أي بما يخرق القوانين الطبيعية.

والإعجاز في اللغة: إحداث العجز، يقال: أعجزت زيداً أي جعلته عاجزاً. وفي الاصطلاح: أن يأتي المدعي لمنصب إلهي بما يخرق قوانين الطبيعة ويعجز عنه الناس، شاهداً على صدق دعواه.

وينبغي أن لا نغفل: أنه ليس من الإعجاز المصطلح عليه: ما يظهره الساحر أو العالم ببعض العلوم النظرية الدقيقة، وإن أتى بشيء يعجز عنه غيره. ذلك لأن العلوم النظرية ذات قواعد معلومة عند أهلها، ولا بد لتلك القواعد أن توصل إلى نتائجها وإن احتاجت إلى دقة ومهارة في التطبيق.

وقد يدعي واحد من الناس منصباً إلهياً ويأتي بما يعجز عنه غيره من البشر، ثم يكون ذلك المعجز دليلاً على كذب ادعائه، نحو ما ينسب إلى مسيلمة الكذاب من أنه تفل في بئر قليلة الماء ليكثر ماؤها فغار جميع ما فيها من الماء، وأنه أمر كفه على رؤوس صبيان قومه فأصاب القرع كل صبي مسح رأسه.

وإذن. فلا بد في النبوة من المعجز.

ولا بد أن يكون هذا المعجز مطابقاً للمدعى.

وبذلك يكون صاحب هذا المعجز هو النبي من قبل الله تعالى صدقاً ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [غافر: ٧٨].

وإنما صح القول بكون الإعجاز دليلاً على صدق المدعي وصحة الادعاء، لأن المعجز باعتباره قائماً على خرق قوانين الطبيعة ونواميسها المعروفة لا يمكن أن يقع من أحد إلا بأقدار من الله تعالى ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يوسف: ١١١]. وبذلك يكون المعجز الذي يظهر على يد مدعي النبوة دليلاً على صدقه بما يكشفه من رضا الله عز وجل بنبوته حيث أقدره على الإتيان به، وقد أشار جل وعلا إلى هذا المعنى بقوله في كتابه المجيد: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦] وبقوله أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٦، ٣٧].

مُحمَّد (ص)
خاتَمُ النبيِّين

كانت خلاصة الفصل السابق: أن «النبوة» ضرورة يقضي بها العقل المؤمن بالله وتفرضها حاجة البشرية الملحة، وأن الله تعالى ـ بلطفه ورحمته ـ أرسل للناس الرسل والأنبياء والشرائع والكتب في كل عصر وكل جيل، حتى انتهى بتلك السلسلة المقدسة إلى نبينا محمد (ص)، فكان سيد المرسلين وخاتم النبيين وكانت شريعته خاتمة الشرائع والباقية ما بقيت السماوات والأرض.

ولعل أول ميزة نستطيع تسجيلها لهذا النبي الخاتم أن الله تعالى قد فضله على سائر المرسلين بكونه ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وبكون رسالته الكبرى عالمية الزمان والمكان، لا تختص بقوم دون قوم، ولا برقعة من الأرض دون أخرى، ولا بأمة دون سائر الأمم، ولا بزمن معين دون غيره من الأزمان. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩]، فقد نصت هذه الآيات الشريفة بما لا يقبل المناقشة والتأويل على أن محمداً (ص) رسول الله إلى الناس جميعاً، من كان منهم حين البعثة ومن سيكون بعدها، ومن كان منهم في جزيرة العرب ومن كان خارجها.

وتلك ميزة كبرى لم يؤتها الأنبياء السابقون، ولم يكرم بمثلها الرسل الأولون، حيث كان كل واحد منهم مرسلاً إلى مجموعة معينة من الناس وطائفة مخصوصة من البشر، ولمدة معينة من الزمن، كما صرح القرآن الكريم بذلك. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣] ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [الزخرف: ٤٦] ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ [الصف: ٦].

وهكذا يتضح أن نوحاً مرسل إلى «قومه»، وصالحاً إلى «ثمود»، وموسى إلى «فرعون وملائه»، وعيسى إلى «بني إسرائيل». وينفرد محمد بكونه مرسلاً إلى «الناس» كافة.

وأما الدليل على أن الرسالات السماوية السابقة على الإسلام كانت موقتة الوجود محدودة الزمن فيتجلى بنسخ كل شريعة منها للشريعة السابقة عليها، حيث تزول الأحكام الأولى وتحل محلها التكاليف الجديدة، لعدم قدرة الإنسان المكلف على الجمع بين شريعتين تختلفان في كثير من الأحكام وتتعارضان في عدد من مفردات التكاليف. وهذا ما يرشدنا إليه دليل العقل وانسياق الفطرة وحكم البداهة.

وحاول اليهود ـ إبقاءاً على شرعية رسالتهم واستمرارها ـ أن ينفوا فكرة النسخ ووقوعه[1]، بزعم أن القول به مساوق للقول بجهل الله تعالى وعدم حكمته، وكان دليل شبهتهم هذه: أن تشريع الحكم من الله عز وجل لا بد وأن يكون على طبق مصلحة تقتضيه، لأن الحكم بلا مصلحة ضرب من ضروب العبث، وذلك مما يتنافى مع حكمة الحكيم المطلق. وعلى هذا يكون رفع الحكم الثابت ذي المصلحة منافياً للحكمة، لأن

(١) المنخول للغزالي: ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

في رفعه تفويتاً لتلك المصلحة على العباد، إلا أن يكون قد اتضح للمشرع بعد التشريع أن الحكم بلا مصلحة، فيرفعه. وهذا معناه نسبة الجهل إلى الله إذ شرع شيئاً كان يعتقد فيه المصلحة ثم ظهر خلافه. ولما كان نتيجة القول بالنسخ هو عدم حكمة الناسخ أو جهله بوجه الحكمة ـ وكلاهما مستحيل في حقه تعالى ـ كان النسخ مستحيل الوقوع.

وخلاصة الرد على هذه الشبهة: إن الأحكام الشرعية منوطة ومرتبطة بالمصالح، والمصالح كثيراً ما تتغير بتغير العصور وتختلف باختلاف أجيال المكلفين، وربما كان في الحكم المعين مصلحة لقوم في زمان ما فأمر به، ثم كان الحكم نفسه بلا مصلحة لقوم آخرين أو في زمن ثان فنهى عنه.

هذا. مضافاً إلى أن العقل البشري في تطور مستمر، والشرائع السماوية ـ كما نعلم ـ قد تدرجت في مسايرة هذا العقل على حسب تدرجه في النمو والتطور، شأنها في ذلك شأن المعلومات التي نزود الطفل بها على ضوء قابلياته الذهنية والعقلية، ثم نتدرج فيها شيئاً فشيئاً حتى نصل بها عند تمام نضجه الذهني إلى أعقد النظريات والأفكار.

وهكذا الحال في الشرائع السماوية التي جاءت في كل زمن ولكل قوم بما يلائم مصالح الزمن والقوم ويتمشى مع درجة النضج الفكري لذلك العصر وأهله، حتى بلغت ذروتها في الشريعة الإسلامية التي اختارها الله لتكون شريعة الإنسان وهو في أوج تقدمه الحضاري ونموه العقلي، وليس معنى ذلك هو الجهل بالمصلحة أو انكشاف شيء لم يكن معلوماً من قبل.

ثم إن التوراة ـ بالذات ـ قد حملت شواهد كثيرة على وقوع النسخ، كذكرها إباحة الجمع بين الأختين في شريعة آدم وتحريم ذلك في

شريعة موسى، وكإباحة تأخير الختان إلى وقت الكبر في شرع نوح وتحريمه في شرع موسى، إلى كثير من أمثال ذلك.

وإذن. فلا يصح القول باستحالة النسخ وليس له أي دليل يركن إليه، وأن ما زعمه اليهود في ذلك مردود بشهادة التوراة بعد شهادة العقل ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

لقد سبق منا القول بأن الدليل على صدق النبي ـ أي نبي ـ في ادعائه هو الإتيان بالمعجز الذي يعجز البشر عن الإتيان بمثله.

ولقد كان لرسوله الأعظم (ص) نوعان من المعجز:

الأول ـ القرآن المجيد.

الثاني ـ المعجزات التي شاهدها المسلمون الأولون ـ وهم عدد كبير جداً ـ، ثم تواتر النقل عنهم بشأنها، وألفت فيها الكتب، واحتشدت بروايتها أسفار الحديث، وما تزال تروى حتى اليوم وبعد اليوم بهذا الشكل من تواتر النقل، على تعاقب الأجيال وكسر السنين.

وقد حاول بعض جهلة المؤلفين أن يشككوا في تلك المعجزات، بل ادعى بعضهم أن في آيات القرآن ما يدل على نفي كل معجزة للنبي (ص) غير القرآن، وأن القرآن هو المعجزة الوحيدة التي جاء بها رسول الله (ص) تصديقاً لدعواه، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] حيث زعموا أن هذه الآية ظاهرة في أن النبي (ص) لم يأت بآية غير القرآن، وأن السبب في عدم الإرسال تكذيب الأولين من الأمم بالآيات التي أرسلت إليهم.

وقد أفاض أستاذنا آية الله الإمام الخوئي في دحض هذه الشبهة وتزييفها فقال ما خلاصته[١]:

إن المراد بالآيات التي نفتها الآية الكريمة والتي كذب بها الأولون من الأمم هي الآيات المقترحة من قبل الأمم على أنبيائها، فالآية الكريمة تدلنا على أن النبي (ص) لم يجب المشركين إلى ما اقترحوه عليه من الآيات، ولا تنفي عنه صدور المعجزة مطلقاً، ولو كان تكذيب المكذبين يصلح أن يكون مانعاً عن الإرسال بالآيات لكان مانعاً عن الإرسال بالقرآن أيضاً، إذ لا وجه لتخصيص المنع بالآيات الأخرى، خصوصاً وأن القرآن أعظم المعجزات التي جاء بها الأنبياء، وهذا يدلنا على أن الآيات الممنوعة قسم خاص، وليست مطلق الآيات.

على أن تكذيب الأمم السابقة لو صلح أن يكون مانعاً عن تأثير الحكمة الإلهية في الإرسال بالآيات لصلح أن يكون مانعاً عن إرسال الرسول، وهذا باطل بالضرورة وخلاف للمفروض أيضاً، فتعين أن يكون المقتضي للإرسال بالآيات هو اقتراح المقترحين. وواضح أن المقترحين إنما يقترحون أموراً زائدة على الآيات التي تتم بها الحجة، فإن هذا المقدار من الآيات لا يجب على الله أن يرسل به ابتداءً، ولا يجب عليه أن يجيب إليه إذا اقترحه المقترحون، وإن كان لا يستحيل عليه ذلك إذا اقتضت المصلحة.

وعلى هذا فاقتراح المقترحين إنما يكون بعد إتمام الحجة عليهم بما يلزم من الآيات وتكذيبهم إياها، وإنما كان تكذيب الأمم السابقة مانعاً عن الإرسال بالآيات المقترحة لأن تكذيب الآيات المقترحة يوجب نزول العذاب على المكذبين، وقد ضمن الله رفع العذاب الدنيوي عن

(١) يراجع البيان في تفسير القرآن: ١/ ٧٦ ـ ٧٩.

هذه الأمة إكراماً لنبيه (ص)، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

أما أن تكذيب الآيات المقترحة يوجب نزول العذاب على المكذبين فلأن الآية الإلهية إذا كانت مبتدأة كانت متمحضة في إثبات نبوة النبي ولا يترتب على تكذيبها إلا ما يترتب طبيعياً على تكذيب النبي من العقاب الأخروي. أما الآيات المقترحة فهي كاشفة عن لجاج المقترح وعناده، إذ لو كان طالباً للحق لصدق بالآية الأولى، لأنها كافية في إثبات المطلوب، ولأن معنى اقتراحه هذا أنه قد التزم على نفسه بتصديق النبي إذا أجابه إلى هذا الاقتراح، فإذا كذب بالآية المقترحة بعد صدورها كان مستهزئاً بالنبي وبالحق الذي دعا إليه.

وخلاصة القول: أنه لا دلالة لشيء من آيات القرآن على نفي المعجزات الأخرى غير القرآن، على الرغم من كونه المعجزة الخالدة الكبرى للنبي (ص)، وإن تعدد ظهور المعجز على يديه.

❀ ❀ ❀

وليس التمييز الصائب بين المعجز الحقيقي وغيره أمراً سهلاً ميسوراً لكل أحد كما يبدو لأول وهلة، بل لن يقدر عليه غير علماء الصنعة التي يكون ذلك المعجز على شاكلتها لأنهم أعرف بها وأدرى بخصوصياتها، وهم الذين يستطيعون التفريق بين ما يعجز البشر عن الإتيان بمثله وبين ما يمكنهم، ولذلك كان العلماء أسرع تصديقاً بالمعجز، و﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، لأن غير العالم لا يقوى على التمييز بين الصدق والكذب، فيبقى باب الشك مفتوحاً لديه ما دام جاهلاً بمبادىء ذلك العلم وما دام يحتمل أن المدعي قد اعتمد على مبادىء علمية ربما تكون معلومة عند الخاصة من

رجال تلك الصنعة فيتباطىء عن الإسراع في التصديق، ولهذا السبب اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون معجزة كل نبي مشابهة للعلم الشائع في زمانه، والذي يكثر الممارسون له والعالمون به من أهل عصره، ليكون ذلك سبباً في سرعة التصديق وإحكام الحجة، ومن هنا نجد أنّ السحرة في عصر موسى كانوا أسرع من غيرهم إلى الإقرار ببرهان نبيهم، لأنهم رأوا أنَّ ما جاء به رسولهم خارج عن الحدود العلمية المقررة للسحر.

ولما كان العرب في عصر نزول القرآن قد بلغوا الغاية في الكلام البليغ والاهتمام بشؤون الأدب وفنون الفصاحة كان لا بد بمقتضى الحكمة الإلهية أن تتمشى معجزة نبي الإسلام مع هذه الظاهرة البارزة، فجاء رسول الله (ص) بمعجزة القرآن وبلاغة اللسان، ليعلم كل عربي أن هذا الكلام إلهي محض خارج ببلاغته المتناهية عن طاقة البشر وإمكاناتهم الفكرية والأدبية.

وعلى الرغم من وجود معجزات أخرى للنبي (ص) غير القرآن ـ وهي أكثر من أن تستوعب بهذه العجالة ـ، فإن القرآن أعظم هذه المعجزات شأناً وأقومها بالحجة، لأن العربي الجاهل بعلوم الطبيعة والسنن الكونية قد يشك في تلك المعجزات وينسبها إلى أسباب علمية يجهلها وفي طليعتها السحر الذي كان من أقرب الأسباب إلى ذهنه الساذج، ولكنه بما كان يتحلى به من معرفة بفنون البلاغة وأسرار الكلام الفصيح لا يشك في إعجاز القرآن وعدم قدرة البشر على الإتيان بمثله. على أن تلك المعجزات الأخرى موقتة البقاء، إذ سرعان ما تصبح خبراً تتناقله الرواة، وحديثاً تتداوله الأفواه، فينفتح فيها باب الشك وتغدو عرضة للتصديق والتكذيب. أما القرآن فهو باق بقاء السماوات والأرض، وإعجازه ماثل أمام كل جيل وواضح لكل ذي عينين على مر القرون وتقادم الأيام.

وقد علم كل من بلغته الدعوة الإسلامية أن محمداً (ص) قد دعا جميع الناس وسائر الأمم إلى الإسلام، وأقام الحجة عليهم بالقرآن، وتحداهم بإعجازه، وطلب منهم أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، ثم تنزل فطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، ثم تحداهم بالإتيان بسورة واحدة. ولو كان العرب ـ بكل من فيهم من بلغاء وفصحاء ـ قادرين على ذلك لأجابوه على هذا التحدي وأسقطوا حجته بإتيانهم بمثله، ولكنهم عندما سمعوا القرآن أقروا بالأمر الواقع وأذعنوا لإعجازه، وعلموا أنهم لا يستطيعون المعارضة، فصدق قوم منهم وأعلنوا إسلامهم، وركب آخرون رؤوسهم فأصروا على العناد واختاروا طريق الحرب والقوة.

ويروي المؤرخون أن الوليد بن المغيرة المخزومي مر يوماً في المسجد الحرام فسمع النبي (ص) يتلو القرآن، فأصغى له من بعيد ثم ذهب إلى مشركي قومه فكان مما قاله لهم: «لقد سمعت من محمد كلاماً آنفاً، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمعذق، وإنه يعلو ولا يعلى»[1].

ويروي هشام بن الحكم أنه اجتمع في بيت الله الحرام سنة من السنين أربعة من كبار الأدباء والمفكرين في عصرهم، هم «ابن أبي العوجاء وأبو شاكر الديصاني وعبد الملك البصري وابن المقفع» ـ وكانوا من الدهرية المنكرين لوجود الله عز وجل ـ فخاضوا في حديث الحج ونبي الإسلام، ثم استقر الرأي لديهم على ضرورة قيامهم بمعارضة القرآن الذي هو أساس هذا الدين، ليسقط إعجازه بمعارضتهم إياه ومباراتهم له، وتعهد كل واحد منهم أن ينقض ربعاً من القرآن،

(١) المعجزة الخالدة: ٢١.

وجعلوا الموعد لإنجاز هذه المهمة موسم الحج القابل، وعندما اجتمعوا في الميقات المعين في بيت الله الحرام تذاكروا فيما فعلوا، فأخبرهم ابن أبي العوجاء بأنه قضى العام كله متأملاً في مجاراة قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] فلم يقدر على مثله، كما أخبرهم عبد الملك بأنه قضى عامه مفكراً في مباراة قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣] فلم يستطع ذلك، كذلك كان أمر أبي شاكر مع قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] حيث عجز عن الإتيان بما يشابهها، ولم يكن ابن المقنع بأحسن حظاً من أصحابه فقد قضى عامه عاجزاً عن معارضة آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، يقول هشام وبينما هم في ذلك إذ مر بهم جعفر بن محمد الصادق (ع) فنظر إليهم وقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1] [الإسراء: ٨٨].

❀ ❀ ❀

واستمر أعداء الإسلام على اختلاف عقائدهم وأفكارهم وفلسفاتهم ومناهجهم في حربهم لهذا المعجز ـ القرآن الكريم ـ وفي التشكيك في إعجازه وصلاح أحكامه، وبذل هؤلاء الأعداء ـ على مر القرون ـ وما زالوا يبذلون من حملات الدس والتشكيك ومن الطاقات والجهود في سبيل تحقيق هدفهم اللئيم ما لا يدركه حساب ولا يبلغه تقدير.

---

(١) الاحتجاج: ٢٠٥.

وكان في طليعة ما أثاروا من شبه في هذا الصدد تكرارهم للقول بوجود تناقض بين آيات القرآن ينفي إعجازه ويدل دلالة قاطعة ـ بزعمهم ـ على أنه من صنع البشر وليس من وحي السماء، وضربوا لذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] حيث يتناقض مع قوله تعالى في مكان آخر من القرآن: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]، فإن الآية الأولى حددت المدة بثلاثة أيام في حين نصت الآية الثانية على تحديد المدة بثلاث ليال.

ويكفينا في تفنيد هذه الشبهة أن نشير إلى أن لفظ اليوم في اللغة العربية قد يطلق ويراد منه بياض النهار فقط، كقوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة: ٧]، وقد يطلق ويراد منه مجموع النهار والليل كقوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود ٦٥]، كما أن لفظ الليل قد يطلق ويراد به مدة مغيب الشمس كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] وقوله تعالى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ وقد يطلق ويراد منه سواد الليل وبياض النهار كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١].

وإذا كان استعمال لفظي الليل والنهار في هذين المعنيين جائزاً وصحيحاً في اللغة لم يكن في الآيتين الكريمتين أي تناقض أو اختلاف في المعنى، حيث استعمل لفظا الأيام والليالي بمعنى مجموع بياض النهار وسواد الليل. وليس فيهما ما يثير الشبهة لولا سوء الفهم أو سوء الغرض. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

❀ ❀ ❀

وعلى الرغم من كون القرآن معجزة بأسلوبه البليغ المتناهي في البلاغة، وبيانه الفصيح الذي لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، وانسجامه الرائع المنزه عن كل تضاد أو تناقض أو اختلاف. فإن هناك جوانب أخرى لإعجازه لا تقل عن هذا الجانب مطلقاً، ولعل من أبرزها وأكثرها إلفاتاً للنظر ودلالة على المطلوب ما أودع الله تعالى فيه من أنواع المعارف وأسرار العلوم وخفايا الحقائق الكونية، مما لا سبيل إلى احتمال كونه صادراً من بشر عاش تلك الفترة من الزمن، ولم يكن أمامه من سبيل لإدراك مثل هذه الأمور.

ومع إقرارنا بأن القرآن الكريم كتاب دين وعقيدة وتشريع، وليس كتاب فلك أو كيمياء أو فيزياء، فإننا نشاهد عرضاً في غير واحدة من آياته أخباراً دقيقة عن كثير من سنن الكون ومسائل الطبيعة مما لا يمكن العلم به في تلك العصور إلا من طريق الوحي الإلهي.

وقد أخذ القرآن بأسلوب حكيم جداً في إخباره عن هذه الأسرار، فصرح ببعضها حيث يحسن التصريح، وأشار إلى بعضها حيث تكون الإشارة أولى، لأن بعض تلك الحقائق مما يستعصي فهمه على عقول الناس يومئذٍ، فكان من الحكمة أن يشير إليها إشارة تتضح لأهل العصور المقبلة حينما يتقدم العلم وتتجلى الحقائق، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣]، فإن هذه الآية الشريفة تشير إلى حركة الأرض إشارة لم تفهم إلا بعد قرون، وقد استعارت كلمة «المهد» تعبيراً عن الاهتزاز والحركة. وإنما أشار القرآن إلى هذه الحقيقة إشارة غامضة ولم يصرح بها، لأن الناس كانوا يرون في سكون الأرض أمراً بديهياً لا يقبل المناقشة والجدل، بل كان القول بالحركة في نظرهم مساوقاً للخرافة أو الاستحالة.

وإننا إذ نورد فيما يأتي نماذج من تلك الحقائق العلمية التي ذكرها القرآن الكريم تصريحاً تارة وتلميحاً تارة أخرى، نحيل طالبي التفاصيل على الكتب المعنية بهذا الموضوع ـ وهي كثيرة ومتوفرة ـ، وكل غرضنا ـ هنا ـ أن نعرض بعض الأمثلة والشواهد استطراداً في الحديث وإتماماً لسياق البحث:

فمن تلك الإشارات العلمية ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] حيث ثبت بالتجربة وبعد أن طار الإنسان وحلق على ارتفاعات مختلفة: أن الصعود في الجو والتعرض لطبقاته العليا يصحبه حتماً ضيق الصدر حتى تصل الحال إلى درجة الاختناق على أبعاد تقل فيها كمية الأكسجين[١].

ومن تلك الإشارات العلمية أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، ويقول العلم الحديث: إن التلقيح نوعان: ذاتي يلقح به النبات نفسه، وخلطي بواسطة انتقال حبوب اللقاح من نبتة إلى بويضات نبتة أخرى، ولا بد من وجود وسائل تقوم بنقل حبوب اللقاح، وربما كان ذلك لمسافات بعيدة جداً، وأهم هذه الوسائل هي الرياح. بل إن هناك أنواعاً من تلك النباتات التي يحتم تركيبها أن تلقح خلطياً لا يمكن تلقيحها بغير واسطة الرياح[٢].

ومن تلك الإشارات ما يؤكده علماء الفلك من أن الشمس ـ كأي نجم آخر ـ لا بد أن يعتريها ازدياد مفاجيء في حرارتها وحجمها وإشعاعها بدرجة لا تصدقها العقول، وعند ذلك يتمدد سطحها الخارجي بما حوى من لهب ودخان حتى يصل القمر ويختل توازن المجموعة

(١) الله يتجلى في عصر العلم: ١٦٦.

(٢) القرآن الكريم والعلوم الحديثة: ٨١ ـ ٨٥.

الشمسية كلها. وكل شمس في السماء لا بد أن تمر بمثل هذه الحالة قبل أن تحصل على اتزانها الدائم، ولم تمر شمسنا بالذات بهذا الدور بعد، وبهذا يتضح لنا بجلاء معنى قوله تعالى في تحديد يوم القيامة وفناء العالم: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ * يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾[1] [القيامة: ٧ ـ ١٠].

ومن الحقائق العلمية التي ذكرها القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]. وقد حدثتنا المراجع العلمية المعنية بهذا الموضوع أن النحل قد اتخذت أول ما اتخذت لها مسكناً من الجبال، وكانت تعيش في المغارات وتتوالد فيها، ثم حدثت لها عدة تطورات من جهة البيئة والعوامل الجوية اضطرتها إلى الانتقال من سكنى الجبال إلى سكنى الأشجار، فكانت تنتخب الشجرة التي فيها ثغرات وثقوب لتتخذها بيتاً ومسكناً.

ولما أراد الإنسان أن يتألفها ـ كما فعل مع كثير من الحيوانات ـ صنع لها ما يشبه المساكن التي رآها تسكن فيها، وكانت تلك المساكن مصنوعة من الطين، ثم أدخلت عليها التحسينات باستمرار فصنعت من القش ومن الخشب، ثم تطورت إلى ما هي عليه اليوم. وإذن فانحدار النحل أو تطورها في السكنى من الجبال إلى الأشجار ثم قابليتها للسكن في أي بيت يعرشه الإنسان هو ما ينطق به القرآن[2].

ومن تلك الحقائق العلمية التي أنبأنا عنها القرآن الكريم ما يتعلق بالأرض، مما كان مجهولاً لم يعرفه العلماء إلا في السنين القريبة الماضية، من أن الأرض مهما اختلفت أنواعها لها مسام يتخللها الهواء، بل إن اختلاف حجم المسام وعددها هو السبب الرئيس في اختلاف نوع

(١) الله يتجلى في عصر العلم: ١٦٧.

(٢) القرآن الكريم والعلوم الحديثة: ١٩ ـ ٢١.

الأرض طينية أو رملية. ولم يعرف إلا أخيراً أن هذه المسام بها هواء، وأن نزول الماء على الأرض يدفع الهواء أمامه ويحل محله، وبتقدم علوم الكيمياء والطبيعة عرف أن الطين يتمدد بالماء وينكمش بالجفاف، وأنه عند امتلاء مسام الأرض بالماء تتحرك جزيئات الطين بقوة دفع الماء في المسام، فكأن الأرض إذا ما نزل عليها الماء تحركت وزادت في الحجم، وقد أمكن قياس حركة الأرض إذا أصابها الماء كما أمكن معرفة الزيادة في حجمها. وهذه الحقائق الثابتة التي تعتبر وليدة التقدم العلمي المعاصر كان القرآن قد أنبأنا بها بقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، والاهتزاز هو الحركة، وربت أي زادت في الحجم، وقد فسرت هذه الحقائق ما يشاهد في بعض المباني الحديثة البناء من انهيارات أو شروخ بعد سقوط الأمطار أو ابتلال البناء بالماء[1].

ومن تلك الحقائق أيضاً ما ذهب إليه العلم الحديث من: أن إفرازات الجسم على نوعين: نوع له فائدة في الجسم مثل إفرازات الهضم والتناسل وبعض الإفرازات الداخلية التي تنظم أجهزة الجسم وأنسجته، وهذا النوع ضروري للحياة وليس فيه أي ضرر.

ونوع ليست له فائدة مطلقاً، بل هو بالعكس يجب إفرازه من الجسم إلى الخارج، لأنه مكون من مواد سامة إذا بقيت في الجسم أضرت به، وذلك مثل البول والبراز والعرق والحيض.

وعندما يقول تعالى في كتابه المجيد: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فإنه جل وعلا أراد أن يعلمنا ـ قبل أن يصل العلم البشري إلى مرحلة معرفة أي شيء عن

(١) القرآن والعلم الحديث: ٨٢ ـ ٨٣.

الإفرازات ـ أن المحيض أذى وأنه لا يفيد الجسم، ثم أمر البشر بالاعتزال عن مباشرة النساء خلال الحيض لأن أعضاء المرأة التناسلية تكون في حالة احتقان، والأعصاب في حالة اضطراب، بسبب إفرازات الغدد الداخلية، ويكون الاختلاط الجنسي ضرراً في هذه الحالة، بل ربما منع نزول الحيض وأثار كثيراً من الاضطراب العصبي، وقد يكون سبباً في التهاب الأعضاء التناسلية[١].

ومن تلك الحقائق أيضاً قوله تعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦]، ويحدثنا علماء الفلك بأن المسافات بين النجوم تبلغ حد الخيال، وهي جديرة بأن يقسم الخالق بها، لأن مجموعات النجوم التي تكون أقرب مجرات السماء إلينا تبعد عنا نحو ٧٠٠ ألف سنة ضوئية، والسنة الضوئية تعادل عشرة ملايين من الكيلومترات[٢].

وحقيقة أخرى أشار إليها قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ [الحجر: ١٩]، حيث دلت هذه الآية المباركة على أن كل النباتات لها وزن خاص، وقد ثبت أخيراً أن كل نوع من أنواع النبات مركب من أجزاء خاصة على وزن محدد مخصوص، بحيث لو زيد في نسبة بعض أجزائه أو أنقص لتغيرت حقيقته، وأن نسبة بعض هذه الأجزاء من الدقة ما نحتاج في معرفتها إلى أدق الموازين التي عرفها البشر[٣].

❀ ❀ ❀

(١) الإسلام والطب والحديث: ٤٠.
(٢) الله يتجلى في عصر العلم: ١٦٦.
(٣) البيان: ١/ ٥٤.

وهكذا يكون الجانب العلمي للقرآن دليلاً متمماً للجانب البلاغي في إقامة البرهان الجلي القاطع على كونه كتاب الله الذي لا ريب فيه ومعجزة هذا الدين الباقية بقاء الدهر.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

شُبهات... وحلول

سبق منا التنبيه في مقدمة هذا الكتاب إلى أننا قد أرجأنا استعراض سيرة الرسول (ص) العطرة وتسجيل تاريخه المشرق، إلى كتابنا الكبير الذي أعددناه وسميناه «في رحاب الرسول»، ونرجو أن نوفق إلى الانتهاء من اللمسات الأخيرة فيه في وقت قريب إن شاء الله.

ولكننا ـ على الرغم من ذلك ـ لا نستطيع أن ننهي الحديث عن النبوة العامة ونبينا الأعظم بالخصوص، دون التعرض إلى نقطتين مهمتين لا يصح للباحث المتعمق في موضوع النبوة أن يهمل التعرض لهما فلا يزيل ما أحيط بهما من لبس وغموض، لا سيما وأنهما يرتبطان بشكل مباشر بمقام النبوة وكرامة الرسالة من حيث سماويتها وارتفاعها عن مستويات الشهوات واللذات، وعالم الأوزار والذنوب.

إنهما مسألتا «تعدد الأزواج» و«العصمة».

ولن يختلف معي أي قارىء ـ في أرجح الظن ـ في كون هذين الجانبين يمسان مقام الرسالة من حيث كونها رسالة سماوية مقدسة أكثر من مساسهما بالسيرة النبوية الشريفة.

ونسجل خلال الصفحات الآتية خلاصة للبحث في هذين الموضوعين، بالشكل الذي يتناسب مع هذه السلسلة وما التزمنا فيها من تلخيص وتركيز. والله ولي التوفيق.

تعدُّد الأزواج

من المسائل الحساسة ذات الأهمية في حياة الرسول (ص) مسألة كثرة أزواجه وتعددهن، إلى الدرجة التي وجد فيها أعداء الإسلام وفي طليعتهم بعض المستشرقين منفذاً كبيراً ـ في زعمهم ـ للطعن والتشهير بهذا الدين ونبيه الأمين.

وقبل الدخول في صلب الموضوع يجدر بنا أن نشير إلى أن الرجل العظيم لو أحب المرأة وشعر بالمتعة معها، فليس ذلك بعيب فيه، بل هو حكم الفطرة ومنطق الحياة البشرية، والنبي بشر بمشاعره وغرائزه (يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟ [الإسراء: ٩٣].

إنما العيب كل العيب أن يطغى هذا الحب حتى يشغل الإنسان عن واجباته، ويخرج به عن اتزانه، ويأخذ عليه وقته ونشاطه.

فهل يستطيع عدو من أعداء محمد ـ من مستشرقين وغير مستشرقين ـ أن يقول بأن محمداً قد شغلته المرأة عن أدنى واجباته وأقل مهماته، بل لن نجد في التحقيق عن محمد إلا أنه قد أعطى للنبوة حقها وللمرأة حقها، وذلك أحد أدلة العظمة الكبرى في هذا الرجل العظيم.

ولو كان للهوى والشهوة سلطان على قلب النبي لما عرف في مكة بالعفة والحياء منذ نعومة أظفاره، ولاتخذ من الزوجات في مطلع شبابه من شاء من فتيات قومه الأبكار اللائي اشتهرن بالجمال والفتنة، ولعزف

عن هذه المجموعة من النساء الثيبات، وفيهن الطاعنات في السن أو من هي على أبواب الشيخوخة.

لقد قصد النبي بزواجه ـ في بعض الحالات ـ مصاهرة من تقوى بهم شوكته ويشتد بهم أزره، وقصد في حالات أخرى منح عطفه وحنانه ورعايته لبعض الأرامل والمنكوبات ممن ترملن أو نكبن بسبب الإسلام وحروبه. ومن هذا وذاك تجمعت القائمة الطويلة من الأزواج اللائي اعتبرهن أعداء الإسلام دليل الإفراط في الميل الجنسي والاستسلام لنوازع النفس وغرائزها.

ونورد ـ فيما يلي ـ قائمة بأسماء أزواج النبي (ص) اللائي تزوجهن ودخل بهن مع «رؤوس أقلام» عن حياتهن، لتتضح حقيقة ما قلناه ماثلة للعيان.

الأولى: خديجة بنت خويلد:

عمل النبي (ص) في تجارتها فعرفها وعرفته، وتزوجها وهي ثيب سبق لها التزوج من اثنين. وكان للنبي من العمر عند زواجه بها (٢٥) سنة وكانت هي في الأربعين، وتفردت بين سائر أزواج النبي بمعاشرتها له زوجاً غير مرسل وبعيداً عن أضواء النبوة وهالتها القدسية. وحسبها فخراً أنها كانت أول من بادر للإيمان بهذه الرسالة وبذلت كل ما تملك في سبيل الدعوة إلى الله.

وقد تجنى بعض أعداء الإسلام فزعم أن دافع محمد للزواج من خديجة وهي تكبره خمسة عشر عاماً طمعه بثرائها لأنه فقير معدم، ويوضح بطلان هذا الزعم ما نلمسه من حب النبي لها وتقديره إياها طيلة سني حياتها، بل بقي يحمل لها ـ وهي في قبرها ـ حباً عظيماً واحتراماً كبيراً يثير في كثير من الأحيان غيرة أزواجه الأخريات[1].

---

(١) «عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: ما غرت على امرأة ما غرت على=

وهل ينسجم هذا الحب والوفاء مع زواج الطمع والمصلحة!!.

ولقد تميزت هذه المؤمنة الأولى في الإسلام ـ من دون سائر أمهات المؤمنين ـ أن الله تعالى قد خصها بشرف حفظ نسب النبوة من طريقها وطريق ابنتها حبيبة محمد ووحيدته[1] فاطمة الزهراء (ع).

= خديجة، وما بي أن أكون أدركتها، ولكن ذلك لكثرة ذكر رسول الله (ص) إياها، وإن كان ليذبح الشاة فيتتبع بذلك صدائق خديجة ليهديها لهن. وعنها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله (ص) لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن عليها الثناء، فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيرة فقلت: هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها؟!، فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال: لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء. قالت عائشة: فقلت في نفسي لا أذكرها بسيئة أبداً». راجع نهاية الأرب: ١٨/ ١٧٢.

(١) المشهور بين المؤرخين أن للنبي (ص) من البنات أربعة: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. ولكن التحقيق التاريخي لا يؤيد هذه الشهرة، بل لن نجد بعد التمحيص من نقطع ببنوتها غير فاطمة. ونورد في أدناه إشارات موجزة لهذه الشكوك لأن المجال لا يتسع للتفاصيل:

أ ـ زينب:

ذكر بعض المؤرخين أن زينباً ولدت وللنبي ثلاثون سنة من العمر (الاستيعاب: ٤/ ٢٩٢) وأسد الغابة: ٥/ ٤٦٧ ونهاية الأرب: ١٨/ ٢١١. وقد تزوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس وهو ابن خالتها قبل أن يبعث أبوها بالرسالة، وولدت له ـ علياً مات صغيراً ـ وإمامة، وأسلمت حين أسلمت أمها في أول البعثة النبوية، وفرق الإسلام بينها وبين زوجها، إلا أن رسول الله (ص) كان لا يقدر على التنفيذ العملي للتفريق بينهما، فبقيت في داره على إسلامها وهو على شركه (يراجع في كل ما سلف: تاريخ الطبري: ٢/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨ وطبقات ابن سعد: ٨/ ٢٤ وأسد الغابة: ٥/ ٤٦٧ ونهاية الأرب: ١٨/ ٢١١.

أقول: إن خلاصة ما ترشدنا إليه هذه الروايات أن زينباً كانت عند بعثة أبيها في العاشرة من العمر، فهل يمكن لبنت في العاشرة أن يسبق لها الزواج وولادة ولدين؟ ومتى كان ذلك الزواج؟ في السابعة مثلاً.. في الثامنة؟ وإذن فلا بد أن تكون زينب هذه بنتاً لأبي هالة زوج خديجة السابق (يراجع نهاية الأرب: ١٨/ ١٧١). =

الثانية: سودة بنت زمعة:

أرملة في أواخر الشباب. توفي عنها زوجها المسلم أيام كان النبي (ص) في مكة قبل الهجرة، فعاشت محنتيْ الوحدة والترمل، فتزوجها النبي ليرفع عنها هاتين المحنتين ويمنحها الاطمئنان على حياتها في شيخوختها، فكان الزوج هنا هو محمد «الرسول» لا محمد «الباحث عن اللذة».

الثالثة: عائشة بنت أبي بكر:

شابة حدثة السن. هي البكر الوحيدة من أزواج النبي (ص). تزوجها بالمدينة بعد الهجرة.

الرابعة: حفصة بنت عمر بن الخطاب:

مات زوجها متأثراً بالجراح التي أصيب بها في غزوة بدر. و«لما تأيمت حفصة لقي عمر عثمان فعرضها عليه فقال عثمان: ما لي في

= ب ـ رقية:

ج ـ أم كلثوم:

ذكر بعض المؤرخين أن رقية ولدت وللنبي من العمر ثلاث وثلاثون وأن أختها أم كلثوم أصغر منها (الاستيعاب: ٤/ ٢٩٢ ونهاية الأرب: ١٨/ ٢١٢)، واتفق المؤرخون على أنهما تزوجتا عتبة وعتيبة ابني أبي لهب بن عبد المطلب قبل البعثة، وأنهما أسلمتا عندما أسلمت أمهما في اليوم الأول من البعثة (طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٤ و٢٥). ولما أعلن النبي (ص) دعوته للإسلام أمر أبو لهب ابنيه بطلاق هاتين السيدتين فطلقاهما، فتزوج عثمان رقية وهاجرت معه إلى الحبشة مع المهاجرين الأول الفارين من تعذيب المشركين. (تاريخ الطبري: ٢/ ٣٣٠ و٣٣١ و٣٤٠ ونهاية الأرب: ١٨/ ٢١٢ والإصابة: ٤/ ٢٩٧.

أقول: هل يمكن لرقية أن يتم زواجها قبل بلوغها السابعة من العمر حيث طلقت وهي في هذه السن، وهل يمكن لأختها أم كلثوم أن تتزوج وتطلق وهي لم تتجاوز السادسة في أكثر الفروض؟

النساء حاجة، فلقي أبا بكر فعرضها عليه، فسكت، فغضب على أبي بكر، فإذا رسول الله قد خطبها فتزوجها[١]»، وكأنه (ص) أراد أن يعوضها عن زوجها الذي مات بسبب حروب الإسلام، ويرفع عنها وحشة الترمل التي كان يرغب أبوها في إنقاذها منها.

الخامسة: زينب بنت خزيمة:

تزوجت قبل النبي مرتين. واستشهد زوجها الثاني يوم بدر، فأشفق عليها النبي (ص) فتزوجها إكراماً لها ولزوجها الشهيد. ولم تمكث في دار النبي سوى ثمانية أشهر ثم أدركها الموت.

السادسة: أم سلمة:

جرح زوجها في غزوة أحد، وخفت وطأة الجرح حتى كاد يبرأ. ثم خرج في سرية من سرايا الرسول فانتقض الجرح واشتدت به الحال حتى توفي. وخلف أم سلمة وأولاداً له منها.

تزوجها النبي إشفاقاً عليها ورعاية لأطفالها، خصوصاً وأن زوجها ابن عمة النبي. وقد اعتذرت أم سلمة من قبول التزوج بالنبي بكبر سنها ووجود الأطفال، فلم يأبه النبي بعذرها لأن هدفه من الزواج هو رعاية كبر السن والعناية بالأولاد.

السابعة: زينب بنت جحش:

ابنة عمة النبي (ص). تزوجها لأول مرة زيد بن حارثة الذي كان عبداً لخديجة بنت خويلد ووهبته للنبي فأعتقه وتبناه وعرف بين الناس بـ«زيد بن محمد»، وبقي معروفاً بذلك إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ فنسب إلى أبيه الحقيقي حارثة.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٨/ ٥٦ ـ ٥٧.

وكان زواج زيد من زينب برغبة من النبي وتنفيذ مباشر، وكأنه أراد بذلك أن يقيم البرهان العملي على إلغاء الفوارق في المجتمع الإسلامي، ولهذا ألزم ابنة عمته بأن ترضى به زوجاً فرفضت هي وأخوها ذلك. فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [الأحزاب: ٣٦] اضطرت لقبول الزواج مكرهة، وتم الزواج على أثر ذلك، ولكنه ـ بحكم الإكراه ـ لم يكن زواجاً سعيداً قائماً على المودة والانسجام، وإنما كانت زينب تعلن باستمرار تذمرها من هذه الزوجية وتشعر زوجها ـ بكبرياء ـ بوضاعة أصله وشرف أصلها، فلم يستطع زيد الاستمرار في العيش معها وصمم على طلاقها تخلصاً من هذه المشاكل والمضاعفات. ولكنه لم يكن يستطيع تطليقها بدون استشارة النبي، فاستشاره، فنهاه النبي عن ذلك وقال له كما حدثنا القرآن: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وحيث إن النبي كان يعلم بأن هذه الزوجية لن تستمر إلى الأخير وإن استطاع تجميد الطلاق موقتاً، فقد صمم في نفسه أن يتزوج زينبا لو طلقها زيد تعويضاً عما سببه لها من زواج فاشل وحياة منغصة، ولكنه كان يخشى تقولات الناس في ذلك، لأن عرب الجاهلية كانوا يستهجنون زواج الرجل من مطلقة من تبناه.

وأخيراً نفذ زيد ما صمم عليه فطلق زينبا، فأمر الله نبيه بتزوجها ليكون ذلك إلغاء عملياً للمفهوم الخاطىء الشائع في عدم تزوج الرجل من مطلقة ابنه غير الحقيقي، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وبهذا يظهر أن الزواج كان بأمر الله تعالى في سبيل إظهار حكم

شرعي كان يجب إظهاره، وتطبيقاً عملياً له على أعلى مستويات التطبيق.

وحاول بعض أعداء الإسلام ـ وبخاصة من المستشرقين ـ أن يحوكوا القصص والأساطير حول هذه القضية، فزعموا أن محمداً كان قد قصد دار زيد فرأى زوجته فأعجب بها فحرض زيداً على طلاقها كي يتزوجها.

وهذا الزعم واضح البطلان لكل متأمل، لأن زينبا ابنة عمة النبي وكان قد رآها وعرفها قبل أن يزوجها زيداً، ولو كان له هوى فيها أو رغبة بها لتزوجها لنفسه ولم يلزمها بقبول الزواج من زيد.

الثامنة: جويرية بنت الحارث:

كانت بنت سيد بني المصطلق وزوجة أحد بني قومها، ثم أسرت وجيء بها إلى المدينة وصارت في سهم أحد المسلمين فاتفقت معه على أن تشتري نفسها منه بمبلغ معين، فجاءت إلى النبي مبينة له حسبها ونسبها ومجدها السابق وحالها الحاضرة، واستنجدت به ليساعدها على تسديد المبلغ، فأراد النبي أن يلطف عليها حالها ويزيد في إكرامها ويجلب بذلك بني قومها إلى الإسلام، فعرض عليها أن يدفع عنها مبلغ التحرير وأن يتزوجها، فسرت بذلك سروراً كبيراً.

وكان من أول آثار هذا التصرف الرسالي الحكيم أن بادر المسلمون إلى إطلاق كل من كان بأيديهم من أبناء هذه القبيلة الأسرى، فأصبحوا أحراراً، باعتبارهم أصهار رسول الله (ص).

التاسعة: صفية بنت حيي:

تزوجت مرتين من أبناء قومها اليهود، وأسرت في غزوة خيبر فتزوجها النبي ليضرب المثل الرائع في إكرام الأسرى ورعايتهم.

العاشرة: أم حبيبة بنت أبي سفيان:

متزوجة. هاجرت مع زوجها إلى الحبشة مع من هاجر من المسلمين، وهناك ارتد زوجها فلم تطاوعه في ارتداده، بل بقيت ـ على غربتها ـ محافظة على دينها وإيمانها، وعاشت أيامها في الحبشة على مضض وألم، فلا هي ذات الزوج الذي يرعاها، ولا هي القادرة على العودة إلى مكة في الوقت الذي كان فيه أبوها وأخوتها وكل أبناء أسرتها من ألد أعداء الإسلام والمسلمين.

وعندما علم النبي بهذه التفاصيل أرسل إلى الحبشة من يفاوضها في الزواج منه، فوافقت على ذلك، وعادت مع جعفر بن أبي طالب إلى المدينة لتكون إحدى زوجات رسول الله وأمهات المؤمنين، إكراماً لها على صبرها وثباتها وتحملها الآلام في سبيل الإصرار على الإسلام.

الحادية عشرة: ميمونة بنت الحارث:

أرملة. لها من العمر (٤٩) سنة. وهبت نفسها لرسول الله طالبة منه أن يجعلها إحدى زوجاته كما جاء بصريح الكتاب: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] ولبى النبي طلبها فأدخلها في عداد أمهات المؤمنين.

وبعد:

فهل في هذه القائمة ما يدل على دوافع اللذة والشهوة وهوى النفس والجنس في تعدد الزوجات؟. وهل يعتبر الرجل الذي يتزوج هذا العدد الكبير من الأرامل والعجائز رجلاً مستجيباً لغرائزه وشهواته؟.

بل هل يمكن أن يكون هذا الإنسان إلا الإنسان الرسالي المرتفع عن كل أحاسيس اللذة الجسمية إلى أعلى مراتب الشعور بالمسؤولية والرأفة والحنان والحب الإنساني الكبير؟.

العِصْمَة

إن من البديهي في العقول أن النبي لا يكون نبياً يتلقى أخبار السماء ويرويها للناس ديناً يجب الرضوخ له والقبول به إلا إذا كان مأمون الجانب في صدق الحديث، وعدم السهو، والابتعاد عن الزلل، والامتناع عن فعل المعصية ـ أية معصية ـ، والالتزام بفعل الطاعة ـ أية طاعة ـ، لكي يكون منزهاً ـ إلى درجة القطع واليقين ـ عما يوجب الشك في أقواله وأعماله وسائر تصرفاته.

وهذا ما أطلق عليه علماء الكلام اسم «العصمة».

وتكون العصمة على هذا، عبارة عن طاقة داخلية في نفس النبي تهيمن عليه فتمنعه من كل معنى من معاني ترك الطاعة أو فعل المعصية أو زلل القول أو تناقض التصرفات.

ومع معرفة دور النبي في الحياة العامة يكون الإقرار بالعصمة ضرورياً لا مفر من القول به والإذعان له، وعلى ذلك سار الفكر الشيعي الإمامي مؤكداً وجوب العصمة وحتميتها، منفرداً بقوله هذا بين سائر خطوط الفكر الإسلامي الأخرى التي لم تجد ضرورة في تنزيه الأنبياء على هذه الشاكلة من التنزيه المطلق، بما فيهم المعتزلة العقليون الذين ذهبوا ـ مع كل تأكيدهم على عصمة الأنبياء عن فعل الكبائر ـ إلى تجويز فعلهم الصغائر «التي لا حظّ لها إلا في تقليل الثواب دون التنفير»[1].

---

(١) مذاهب الإسلاميين، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ١/٤٧٨. ويراجع كتاب=

وعلى الرغم من أن المسألة لا تحتاج إلى تطويل بحث وتفصيل دليل، لما ذكرناه من بداهة الموضوع، ومن شهادة الوجدان بأن النبي الذي لا يؤمن سهوه وزلله واشتباهه وارتكابه المعاصي والمنافيات لا يمكن تصديقه واتباع أقواله وإطاعة أوامره والانتهاء عن نواهيه.

أقول: على الرغم من ذلك فإن الموضوع قد اقتحم كل الكتب الكلامية المعنية بهذه المطالب، وكان من أهم أسباب بروزه واهتمام المهتمين به وجود بعض الآيات القرآنية الشريفة التي قد يشعر ظاهرها بارتكاب الذنب وفعل المعصية من قبل النبي (ص).

وما كنا بصدد استيعاب موضوع النبوة وتقييم مقامها الديني بميزانه الصحيح، كان لا بد لنا من استعراض الآيات المشعرة بذلك ومن بيان المقصود منها، حتى يتضح الأمر لكل من التبس عليه، ونقطع الطريق على حديث الشكوك والشبهات بحجج القطع واليقين والفهم الصحيح.

الآية الأولى ـ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] حيث زعم الزاعمون أن نسبة الذنب للنبي (ص) في هذه الآية صريحة واضحة.

لقد ذكر المفسرون عدة وجوه في بيان المراد من لفظ الذنب، وأوجه الوجوه في ذلك ما اختاره الشريف المرتضى[1] رحمه الله ـ وهو من هو في العلم واللغة والأدب ـ، فقد ذكر أن المراد من «ذنبك»: ذنوب

= المنخول للإمام الغزالي: ٢٢٣ ـ ٢٢٥، حيث ذكر المؤلف فيه عدم وجوب عصمة الأنبياء وزاد على ذلك فقال: «إنا نجوز أن ينبىء الله تعالى كافراً ويؤيده بالمعجزة» وعلق محقق الكتاب على ذلك في الحاشية فقال: «وخالف الروافض! [أي الشيعة الإمامية] فذهبوا إلى امتناعها (أي المعصية)، والمعتزلة إلا في الصغائر».

(١) تنزيه الأنبياء: ١١٧.

قومك إليك، لأن «الذنب» مصدر، والمصدر قد يضاف إلى الفاعل كما نقول أعجبني شعرك أو أدبك أو نثرك، حيث أضيف المصدر إلى فاعله، وقد يضاف إلى المفعول كما نقول ساءني سجنك أو مرضك، حيث أضيف المصدر إلى من وقع عليه السجن والمرض وهو المفعول.

ولفظة «ذنبك» في الآية مضافة إلى المفعول، ويقصد به الذنب الواقع على النبي (ص) من قومه من شتم واستهزاء وتكذيب وحرب وأذى، بل لا يلتئم سياق الآيات إلا إذا فسرنا الجملة على هذا النحو، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [الفتح: ١، ٢]، فلقد جاء الغفران مرتباً على الفتح، ولم يكن في يوم النزول فتح، لأن الآيات قد نزلت بعد صلح الحديبية، وقد سماه الله تعالى فتحاً لأنه الطريق نحو فتح مكة والممهد له، وبذلك يكون المعنى الكامل للآيات إذا أردنا توضيحها ـ كالآتي:

إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لأجلك الله ما تقدم من ذنب قومك نحوك وما تأخر منه بعد هذا الصلح وإلى أن يتم الفتح وليتم الله نعمته عليك بالفتح الكبير والنصر العظيم.

وإذا كان «الذنب» هو الذنب الذي فعله النبي (ص) نفسه كما يبدو لغير المتعمقين فما علاقة ذلك بالفتح ولماذا يترتب الغفران على هذا الفتح، بل لا نجد لهذا الترتب معنى إلا إذا كان للفتح ارتباط بغفران ذنب أولئك الذين أساؤوا للنبي ممن ستفتح بلادهم للجيش النبوي وينهار كيانهم الجاهلي.

الآية الثانية ـ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] حيث ادعى

المدعون أن في هذه الآية عتاباً ولوماً للنبي على ما يخفيه في نفسه مما يخشى أن يقف الناس عليه.

وهذه الآية ـ كما يعرف المطلعون ـ ترتبط بقصة زيد بن حارثة وزوجته زينب بنت جحش، وقد سبق منا قبل صفحات بحث هذا الموضوع بالتفصيل، وإن نظرة موضوعية فاحصة يلقيها القارىء على ما سلف بيانه توضح له المقصود من الآية ويتضح منها سياق الجمل ومداليلها من دون أن يجد فيها معنى من معاني اللوم أو العتاب.

الآية الثالثة ـ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣] حيث زعم بعضهم أن مخاطبة النبي بجملة «عفا اللّه عنك» دليل على الذنب باعتبار أن العفو لا يكون إلا حيث يكون الذنب.

والحقيقة أن معنى هذه الآية لا يتضح للقارىء ما لم يقرأ ما سبقها وما يليها مما يتم معناها ويبين المراد منها، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ * عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ * لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٢ ـ ٤٦] إلخ.

ومن التأمل في هذه الآيات نجد أن قوله: «عفا الله عنك» لم يكن عن ذنب بالمعنى الشرعي أي عن مخالفة لحكم من أحكام الله، وإنما كان الغرض منه إرشاد النبي إلى الأسلوب الذي يتعرف بواسطته على الصادقين والكاذبين من أصحابه الذين اعتذروا عن المشاركة في الجهاد.

فلو لم يأذن لهم بالتأخر لعرف الذين صدقوا وعرف الكاذبين، ولكن إذنه لأولئك الذين زعموا عدم استطاعتهم المشاركة في الخروج قد أخفى حقيقة الصادق والكاذب، حيث اعتذر الطرفان فلم يمكن التمييز بينهما.

الآية الرابعة ـ ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ والضلال خلاف العصمة قطعاً.

والحقيقة أن الضلال في اللغة هو الذهاب والانصراف، وكان النبي ـ كما نعلم ـ لا يعرف كيف يعبد الله وكيف يقوم بواجب التقرب إليه، فكان منصرفاً عن العبادة بمعناها الخاص إلى أن هداه الله إلى ذلك بإنزال رسالة الإسلام عليه، والآية هي جزء من سلسلة آيات تعدد نعم الله على النبي (ص) وعنايته الكاملة به ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨]، حيث دلت هذه الآيات على المقصود بوضوح، إذ إن الله تعالى قيض لمحمد اليتيم من آواه ورباه، وهيأ له وهو الفقير من حباه وأغناه، ثم هداه إلى الإسلام وإلى عبادة الله بعد أن كان ضالاً عن ذلك أي منصرفاً تائهاً لا يعرفه ولا يهتدي إليه.

الآية الخامسة ـ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الانشراح: ٢] والوزر في العرف العام هو الذنب.

والحقيقة أن الوزر في اللغة هو الثقل، وإنما سميت الذنوب أوزاراً لأنها تثقل حاملها وتجهده. ويكون ـ على ذلك ـ كل ما يثقل الإنسان ويهمه ويجهده وزراً تشبيهاً له بالثقل الحقيقي كما شبه به الذنب فسمي بذلك أيضاً. والشيء الذي كان يثقل النبي ويجهده ويثير همه هو ما كان عليه قومه من شرك وضلال وإعراض عن الدعوة وعدم إذعان للرسالة

وتمرد على الدين الذي أرسل به، مضافاً إلى كونه مستضعفاً أمامهم وليس له من العدة والعدد ما يصد به أذاهم وشرورهم.

وهذا هو «الوزر» أي الهم الثقيل الذي كان ينقض ظهر النبي ألماً وغماً وتأثراً.

ولعل من أوضح الشواهد على كون هذا المعنى هو المقصود بالآية تعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الانشراح: ٤، ٥] حيث لا يلتئم رفع الذكر وبيان اليسر بعد العسر إلا إذا كان المقصود بالوزر هو الهم الثقيل الذي كان يحمله النبي نتيجة إعراض قومه عن الهدى والإسلام.

❀ ❀ ❀

وبعد: فهذه هي «النبوة» بمعناها العام، رسالة رائدة وهدي قائد ونظام رائع للحياة. وهذا هو «خاتم النبيين» المرسل إلى الناس ﴿...شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] والذي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

وليس لنا ما نختم به هذا الحديث إلا أن نقول: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣] و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

المصادر والمراجع

١ ـ **الله بين الفطرة والدليل**: [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/ المؤلفات]، بيروت.

٢ ـ **الله يتجلى في عصر العلم**: جماعة من الأساتذة الغربيين، القاهرة د.ت.

٣ ـ **الاحتجاج**: الطبرسي، النجف ١٣٥٠هـ.

٤ ـ **الاستيعاب**: ابن عبد البر، القاهرة ١٣٥٨هـ.

٥ ـ **أسد الغابة**: ابن الأثير ـ ج٥ ـ، القاهرة ١٢٨٠هـ.

٦ ـ **الإسلام والطب الحديث**: د. عبد العزيز إسماعيل، القاهرة ١٩٥٩م.

٧ ـ **الإصابة**: ابن حجر، القاهرة ١٣٥٨هـ.

٨ ـ **البيان في تفسير القرآن**: الخوئي، النجف ١٣٧٧هـ.

٩ ـ **تاريخ**: الطبري ـ ج٢ ـ، القاهرة ١٩٦١م.

١٠ ـ **تنزيه الأنبياء**: الشريف المرتضي، النجف ١٣٥٠هـ.

١١ ـ **الطبقات الكبرى**: ابن سعد، ليدن ١٣٢١هـ.

١٢ ـ **العدل الإلهي**: [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/ المؤلفات]، بيروت.

١٣ ـ **القرآن والعلم الحديث**: عبد الرزاق نوفل، القاهرة ١٣٧٨هـ.

١٤ ـ **القرآن الكريم والعلوم الحديثة**: أحمد كامل ضو، القاهرة ١٩٥٥م.

١٥ ـ **مجمع البحرين**: الطريحي، النجف ١٣٧٨هـ.

١٦ ـ **مذاهب الإسلاميين**: د. عبد الرحمن بدوي، بيروت ١٩٧١م.

١٧ ـ **المعجزة الخالدة**: الشهرستاني، بغداد ١٣٧١هـ.

١٨ ـ **المنخول**: الغزالي، بيروت ١٣٩٠هـ.

١٩ ـ **نهاية الأرب**: النويري (ط الأوفست)، القاهرة د. ت.

٢٠ ـ **هوامش على نقد الفكر الديني**: [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/ المؤلفات]، بيروت.

الإمامة

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

❀ ❀ ❀

«الإمامة» لدى المسلمين من المواضيع التي كثر البحث والحديث عنها؛ حتى بلغت المؤلفات المعنية بها آلافاً وآلافاً.

ثم زاد في الحديث عنها ما لمسه الباحثون من تعدد الجوانب المتفرعة عنها وسعة مجالات التأليف فيها، فاتجهت كل فئة من أولئك المؤلفين نحو جانب من تلك الجوانب، فكان من نتيجة ذلك تفرد بحوث خاصة بالإمامة في القرآن، وأخرى بالإمامة في الحديث النبوي، ومنها ما اختص بالإمامة في ضوء علم الكلام، أو بالإمامة من الناحية التاريخية، أو بالإمامة في حدود ما وقع تحت السقيفة عند وفاة النبي (ص)، ثم ما كان معنياً بحياة الأئمة وتواريخهم. وهكذا.

وعلى الرغم من كثرة المؤلفات وعددها الضخم الكبير، فإن كثيراً منها لم يكتب بروح موضوعية متجردة عن الهوى والعصبية، فكان أن

ظهرت دراسات وكتب ملؤها التعصب الذميم، والعاطفة المنحازة، والأحكام السائرة مع الرغبات والأهواء، والتحملات التي لا يقرها منطق ولا يرضاها فكر.

ومن هنا بدا موضوع الإمامة محاطاً بالصور الذهنية التي لا تقرّب بعيداً ولا تجمع شملاً ولا تعين على تفاهم وتوحيد.

ولم يكن لهذه الصور الذهنية من سبب سوى تلك المؤلفات الخارجة على المنهجية والموضوعية، وسوى انعكاساتها المريرة على المسيرة الإسلامية عبر القرون.

❀ ❀ ❀

وبصراحة:

عندما نريد أن نبحث موضوع الإمامة اليوم وبعد مرور أربعة عشر قرناً على «السقيفة» وأحداثها، فلماذا نفترض أننا سنختلف. وإذا اختلفنا - ومن شأن الباحثين الاختلاف - فلماذا نصاب بالعصبية والحدة والتشنج، «واختلاف الرأي لا يفسد في الود قضية»؟

وهل في هذا البحث ما يجر مغنماً لإنسان معاصر أو يؤدي إلى موقف معين قد يستغله لصالحه؟

أو هل في هذا البحث ما يلحق مغرماً بإنسان معاصر أو يحمل أذى قد يصيب هذا أو ذاك من بني البشر.

إن المسلمين اليوم - بأجمعهم - متفقون على عدم وجود إمام حاضر بين أيديهم قد يؤدي وجوده إلى اختلاف الناس في بيعته أو عدم بيعته، ولذلك فليس من نزاع يخشى أو صدام يخاف منه لو قال قائل كلمته في هذا الموضوع.

ولعل سائلاً يسأل:

إذا كان الأمر كذلك فلماذا ـ إذن ـ هذا البحث وهذا الجهد المبذول فيه؟

والجواب: إننا نريد ببحث هذه المسألة أن نحدد موقف الإسلام ـ باعتباره ديناً وتشريعاً ونظاماً للحياة ـ من هذا الموضوع الخطير، ونضع الأجوبة الشافية على تلك التساؤلات الحائرة المتعطشة إلى الجواب:

ما معنى «الإمامة» في الإسلام؟

هل الإمامة ضرورة؟ وكيف؟

هل فرضها الإسلام وعيّن صاحبها نصاً أم تركها للانتخاب؟

هل الإمامة المنصوصة فكرة ثيوقراطية.. ديكتاتورية.. ديمقراطية؟

وإلى آخر الجوانب التي لا بد من بحثها بعمق وتجرد، عسى أن يكون في ذلك ما يجلو لنا الحقيقة ويحدد موقف الإسلام من هذه المسألة الحساسة الكبرى.

❀ ❀ ❀

وسيكون منهجي في هذه الرسالة أن تخرج على القراء سليمة من المس أو التشهير بهذا الخط أو ذاك من خطوط الطوائف الإسلامية؛ أو بهذا الشخص أو ذاك من رجالات الإسلام، وقد جنبتها الخوض في البحث التاريخي لما وقع يوم وفاة النبي (ص) من شقاق وخلاف فراراً مما قد يحمله هذا البحث من إثارة للعواطف أو نكأ للجراح في وقت نرجو مخلصين أن تلتئم وتشفى من صديدها المؤلف المؤسف.

وكل رجائي وأملي بالله تعالى أن يسدد خطاي ويعينني على السير

في حدود ما التزمت في ما أسلفت، وأن يجنب قلمي السهو والزلل، ويأخذ بيدي نحو ما يرضيه في القول والعمل، إنه خير مسدد وموفق ومعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الكاظمية ـ العراق

محمد حسن آل ياسين

الإمَامة

بمفهومهَا العَام

الإمام ـ كما تعرفه اللغة العربية ـ هو المتقدم على قومه والمتبع والمقتدى والقيّم[1]. وتكون الإمامة ـ على هذا ـ قيادة ورئاسة ومتبوعية وتقدماً، وبذلك استحق من يتقدم القوم للصلاة بهم أن يسمى «إماماً» لأنه يؤمهم أي يتقدمهم.

وعلى هذا المعنى اللغوي سار القرآن الكريم في استعمال كلمة «الإمام» كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف: ١٢] ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ الإسراء: ٧١]، وإلى آخر ما ورد في القرآن المجيد من استعمال لكلمة «إمام».

والخليفة ـ كما تعرفه اللغة العربية أيضاً ـ هو الأمير والسلطان الأعظم ومن يستخلف ممن قبله[2].

وتكون الخلافة ـ على هذا ـ إمارة وسلطنة وقياماً مقام الذاهب.

وعلى هذا المعنى سار القرآن الكريم في استعمال كلمة «الخليفة»

---

(١) لسان العرب: ١٢/ ٢٤ ـ ٢٥، (مادة أم).

(٢) نفس المصدر: ٩/ ٨٣ و٨٤ و٨٩ (مادة خلف).

و«الخلائف» و«الخلفاء» كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] وإلى آخر الآيات التي استعملت فيها هذه الكلمات.

وإذا كان علماء اللغة قد اتفقوا على هذه المعاني التي تشير إليها كلمتا «إمامة» و«خلافة» فإن علماء الكلام وأنصارهم قد اختلفوا في كون هاتين الكلمتين بمعنى واحد أو معنيين.

فالماوردي يعرف الإمامة بأنها «موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»[١].

وابن خلدون يعرف الخلافة بأنها «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها»[٢]، ويؤكد «أن الخطط الدينية الشرعية... مندرجة تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة»[٣].

وربط ثالث «بين الخلافة باعتبارها الإمامة الكبرى والصلاة باعتبارها إمامة صغرى»[٤].

ومعنى ذلك كله أن هاتين الكلمتين تتجهان نحو مقصد واحد.

ولعل «الرئاسة» أو «القيادة» هي المعنى الجامع الذي يمكن تفسير هذين اللفظين به واتفاقهما عليه.

---

(١) الأحكام السلطانية: ٣.
(٢) مقدمة ابن خلدون: ١٥٩.
(٣) المصدر السابق: ١٨٣.
(٤) نظرية الإمامة: ٢٢.

ولكننا عندما نتتبع مجال نفوذ هذه القيادة أو الرئاسة في الميدان العملي فإننا نلمس من الفروق ما يفصل إحدى الكلمتين عن الأخرى ويميز بينهما بما يعطى لكل لفظة منهما من أطر وأبعاد.

فالإمامة ـ كما تشعرنا النصوص الدينية ـ رئاسة دين.

والخلافة ـ كما تشعرنا تلك النصوص أيضاً ـ رئاسة دولة.

و«أصبح الإمام لدى مفكري الإسلام ـ سنيين وشيعة ـ يعني صاحب الحق الشرعي، بينما يشير لفظ الخليفة إلى صاحب السلطة الفعلية»[١] ومن هنا «كانت خلافة أبي بكر عن النبي في سلطته الزمنية دون الدينية»[٢].

وبهذا يصبح لكل لفظ منهما ميدانه الخاص وإطاره المعين الذي يدور فيه.

ومع هذا الاختلاف في مجال التطبيق فإننا نؤمن ـ سيراً وراء النصوص ـ أن العنوانين لا بد من اجتماعها في شخص واحد، لأننا لا نقر ـ إسلامياً ـ فكرة فصل الدين عن الدولة.

وإذا كان للمجتمعات الأوروبية التي صدرت إلينا هذه الفكرة بعض العذر في تبني هذا «الفصل» وفي الثورة على تحكم الكنيسة وتدخلها في الشؤون العامة، باعتبار أن المسيحية لم تحمل نظام دولة ومنهج حكم، فليس لنا ـ نحن المسلمين ـ أي عذر أو مبرر في حمل هذا الشعار، ما دام ديننا في حقيقته رسالة دين ونظام دولة[٣].

---

(١) نظرية الإمامة: ٢٤.

(٢) نفس المصدر: ٢٠.

(٣) يراجع «الإسلام دين ودولة» في كتاب «مفاهيم إسلامية» [المجلد الثامن من الموسوعة، ص ١٢٠ ـ ١٣١].

وإذن. فلا بد من اجتماع رئاستيْ الدين والدولة في شخص واحد لئلا نسقط في «الثنائية» التي يكون من أول آثارها مرض «ازدواج الشخصية» في نفس الإنسان المسلم.

وإذا كان بين المسلمين من ذهب إلى أن الإمامة شيء والخلافة شيء آخر فإنما استنبط ذلك من التاريخ العملي للمسلمين، حينما انفصلت الإمامة عن الخلافة؛ فكان مرجع الدين غير رئيس الحكومة، وكان من غير المعقول أن يصبح شخص «الخليفة» كيزيد بن معاوية مثلاً «إماماً» للمسلمين يلجأون له في مسائل الدين وشؤون العقيدة.

❀ ❀ ❀

إن الإمامة ـ كما فهمها الشيعة الإمامية ـ جزء متمم للرسالة واستمرار لوجودها. والعقل قاضٍ بضرورتها لأنها لطف، وكل لطف واجب على الله تعالى؛ على حد تعبير المنهج العقلي في علم الكلام.

أما كون الإمام لطفاً، فذلك لأن اللطف هو ما يقرب العبد إلى الطاعة ويبعده عن المعصية ويحمله على طريق الحق، وهذا المعنى تحققه الإمامة بكل وضوح. وكل أحد يعلم أن وجود قائد مطاع مبسوط اليد؛ يردع الظالم؛ وينتصف للمظلوم؛ وينظم شؤون الناس بإخلاص وإيمان وتجرد عن الهوى والأنانية وحب الأثرة؛ مما يقرب الإنسان إلى الطاعة ويبعده عن الجريمة ويشجعه على السير وفق النهج الذي اختاره الله تعالى.

وهذا هو معنى «اللطف» الذي نعنيه في مثل هذا المقام.

وأمر ليس بحاجة إلى مزيد كلام: إن كل مجتمع إنساني ـ قديم أو حديث ـ لا بد له من رئيس يدير أمره؛ ودستور وقوانين تنظم شؤونه.

وإذا كانت المجتمعات الحديثة تشعر بحاجتها الماسة إلى رئيس وإلى حكومة؛ أي إلى سلطة تتولى الشؤون الحيوية للمجتمع من سياسية وعسكرية واقتصادية وقضائية وتربوية... إلخ، فإن الإسلام ينظر إلى رئيس الدولة نظرة أوسع وأشمل، باعتباره المسؤول والمنفذ لكل شؤون الدنيا والدين. تلك الشؤون التي تضمنتها الشريعة بما حملت من مناهج السلوك للمواطن المسلم، سواء منها سلوكه نحو ربه وسلوكه نحو مجتمعه وسلوكه نحو أي فرد من أفراد البشر.

ولما كانت الدساتير والقوانين المعمول بها في كثير من المجتمعات الإنسانية هي من وضع الإنسان وقابلة للتبدل والتغير حسب مقتضيات الزمان والمكان؛ وكان الإسلام خارجاً عن ذلك لأنه تشريع سماوي لا يجوز التغيير أو التصرف فيه؛ ولكنه ـ مع تمامه وكماله وعدم جواز التلاعب فيه ـ غامض في بعض نصوصه ومشتمل على القواعد العامة والأصول الأساسية في بعض آخر. كان من الضروري الذي لا مناص منه أن نقول بحتمية وجود من يقوم بشرحه وبيانه وتوضيحه ومجالات تطبيق كل حكم منه.

وهكذا يكون كل ما دل على ضرورة النبوة ووجوبها صالحاً للاستدلال به على وجوب الإمامة؛ لأن وجود النبوة دون الإمامة وجود منقطع الآخر، وذلك يناقض جوهر الإسلام القائم على استمرار الرسالة إلى يوم القيامة.

فالنبوة بداية حياة.

والإمامة استمرار لتلك الحياة.

ولو جاز لنا أن نقول بالنبوة دون الإمامة لجاز لنا أن نقول بأن الرسالة محدودة النظر لم تقدر لنفسها عمراً بعد حياة رسولها، ولم تحتط لأهدافها بوصي يستمر في العمل والإمداد.

وحيث إن الإسلام يهدف إلى الدولة الكبرى التي تضم كل الإنسان على اختلاف الأوطان والألوان، فلا مناص من أن يُهيىء الإسلام لهذا الهدف قيادة التنفيذ والتطبيق متمثلة بشخص النبي في حياته وبمن يخلفه على هذا المركز بعد وفاته.

وخلاصة القول.

إن الإمامة في واقعها إتمام لمعنى النبوة، ولا يستقيم وجود النبوة العملي بدونها. ولهذا رأت الشيعة الإمامية أن الإمامة واجبة وجوب النبوة ضرورية ضرورتها، ولها خير سند ودليل في الحديث النبوي الشهير:

«من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية».

❀ ❀ ❀

وإذا كانت الإمامة ضرورية لا بد منها ـ كما أسلفنا ـ فهل ترك الإسلام للناس مهمة اختيار الإمام الذي سيشغل هذا المركز المهم الخطير، أم أن ذلك قد ارتبط بالنص الإلهي أو النبوي في التعيين والاختيار.

ذهبت الشيعة وأكثرية المعتزلة إلى أن الإمام يجب أن يكون منصوصاً عليه من النبي نفسه ومعيناً من قبله بالذات، مستندين في ذلك إلى أن الإمامة باعتبارها استمراراً لمقام النبوة لا بد فيها ـ كالنبوة ـ من التعيين الخاص الكاشف عن اختيار الله تعالى ورضاه.

وكما أنه لا نبوة بانتخاب وشورى فكذلك لا إمامة بشورى وانتخاب.

وكان هذا المنهج هو الخط الثابت لهؤلاء في مسألة الإمامة والإمام.

أما بقية الطوائف الإسلامية فلم تختر منهجاً خاصاً للحكم في الإسلام[١]، بل ذهبت إلى أن كل من استولى على الأمر وزعم أنه إمام فهو إمام، سواء كان ذلك الاستيلاء بطريق الانتخاب كما وقع لأبي بكر وعثمان وعلي والحسن ـ ولم يقع لغيرهم في تاريخ الإسلام ـ، أو بالنص عليه من سلفه كما وقع لعمر بن الخطاب وأكثر الخلفاء الأمويين والعباسيين والعثمانيين، أو بالقوة والسيف كما وقع لمعاوية بن أبي سفيان وأبي العباس السفاح.

واستدلت الشيعة ـ في ما استدلت به على ضرورة النص في تعيين الإمام ـ بقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨] حيث دلت هذه الآية بصريح اللفظ على أن اختيار أمناء الشريعة ورعاة الدين ليس من الحقوق التي ترك الله مجال التصرف فيها للناس، وإنما ينحصر الاختيار في هذا الموضوع بالله تعالى، وبه وحده.

أما رد من رد بأن هذا الاختيار مختص بمسألة النبوة وأن الآية ناظرة إلى هذا الأمر دون غيره فغير مقبول، إذ ليس في صدر الآية أو ذيلها ما يشعر ـ ولو من طرف خفي ـ بالاختصاص بالأنبياء، بل إن إطلاقها ـ بما يحمل من صراحة ووضوح ـ يأبى كل قيد وتأويل وكيف لا والإمامة باعتبارها استمراراً لمقام النبوة وإتماماً للرسالة بحاجة إلى نفس الشروط الملحوظة في النبي من هذه الناحية.

والحق، أنه لو لم تثبت الوصية عن النبي (ص) بطريق الرواية والنقل، فإن العقل بمجرده حاكم بضرورة هذه الوصايا ووقوعها. وإن

---

(١) يقول الدكتور أحمد محمود صبحي: «لقد كان علاج أبي بكر وعمر علاجاً موقتاً لدرء فتنة متوقعة، دون وضع أسس كاملة لنظام الحكم» يراجع نظرية الإمامة: ٢٦.

أحدنا لا يرضى لنفسه أن يغيب عن حطامه الزائل أو يموت عن شيء من متاعه القليل دون أن يكل هذا وذاك إلى وصي أمين يديره ويحوطه. أفيجوز على نبي الإسلام أن يفارق تراثه العظيم ـ وهو للإنسانية طوال عصورها ـ دونما وصي يرعى هذا التراث ويحوطه على الوجه الصحيح؟!

إن كل الظروف المحيطة بالإسلام حين وفاة النبي (ص) تدعونا إلى الإيمان بضرورة أنه أوصى، وأنه لم يترك غرسته المباركة في صحراء، عرضة لريح هوجاء أو هجير محرق أو نزوة عارضة.

وإن الدين الذي فرضت فيه القواعد والأحكام والتشريعات لكل مسألة من مسائل الدنيا وكل جانب من جوانب الحياة وكل تصرف من تصرفات الإنسان، من بيع وشراء، وحوالة وكفالة، وإجارة ووكالة، ومزارعة ومساقاة، وقرض ورهن، ونكاح وطلاق، وصيد وذباحة، وأطعمة وأشربة، وحدود وديات، إن ديناً كهذا لا يمكن له ـ في نظرنا على الأقل ـ أن يهمل مسألة الإمامة، وهي هي في أهميتها ودورها في التشريع وفي قيادة الدولة وهي توجيه المسيرة الإسلامية نحو إتمام ما بدأ النبي (ص) به في بناء الصرح الجديد.

وإن الإسلام الذي هدف في كل تشريعاته إلى ضمان العدالة والمساواة والطمأنينة للإنسان المسلم، تأميناً له من كل المخاوف، وحماية من كل المساوىء، في ظل عقيدة سامية تصله بالله تعالى وتهيمن على جوارحه بوازع من نفسه يمنعها من الخيانة والسوء والفساد والشر. إن الإسلام لا يمكن أن يحقق في نظرنا على الأقل ـ هذا الهدف الكبير من دون الإمام المنصوص عليه، ليكون هذا الإمام بعيداً عما يتعرض له غيره من خطأ وزلل وانحياز لعاطفة وفساد في رأي وتأثر بغير العدل مما

يفسد الحاكم وتفسد بفساده حياة الإنسان ودينهم ونظامهم العام، ولا بد للتخلص من كل هذه السيئات من إمام مختار جامع لجميع صفات الكمال، منزه عن كل ما يشين، بعيد عن كل سوء في التصرف وخطأ في التقدير وخروج على تعاليم الشريعة ـ وذلك ما نطلق عليه اسم العصمة ـ، وواضح أن اختيار شخص جامع لكل هذه الصفات مما يعسر على المحكومين الناخبين، فلا بد ـ إذن ـ من النص النبوي عليه وإرشاد الأمة إليه.

وليست هذه العصمة المشار إليها مسألة تدعو إلى الغرابة أو العجب كما يبدو من كلام بعض الباحثين في المذاهب الإسلامية ـ وبخاصة من المستشرقين ـ، وإنما هي من مستلزمات الحاكم الذي يكون من بعض واجباته تفسير القرآن الكريم وتطبيق أحكامه وشرح غوامضه.

إن العصمة في كلام العرب معناها المنع[1]، وهذا المعنى هو الذي نعنيه في المصطلح، والعصمة في هذا المصطلح عبارة عن ملكة نفسية تهيمن على الإنسان فتمنعه عن فعل المعصية وترك الطاعة وتسيطر على عقله وحسه وشعوره فتجعله متيقظاً إلى أبعد حدود التيقظ فلا يسهو ولا ينسى ولا يفعل ما لا يرضي الله تعالى.

إن فاعل المعصية ظالم في المصطلح القرآني ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١] ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢] وإلى أمثال ذلك وهو كثير في القرآن المجيد.

(١) لسان العرب: ١٢/ ٤٠٣ (مادة عصم).

وهذا العاصي الذي سماه القرآن «ظالماً» لا يمكن أن يتحمل أي مسؤولية شرعية ذات ارتباط بالله تعالى ودينه وشرائعه، وهذا هو ما نص عليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ويقول الفخر الرازي في أثناء تفسيره لهذه الآية: «قد ثبت أن المراد من هذا العهد الإمامة... وإذا دلت الآية على أن الإمام لا يكون فاسقاً فبأن تدل على أن الرسول لا يجوز أن يكون فاسقاً فاعلاً للذنب والمعصية أوْلى»[1].

وهكذا يبدو أن معنى «العصمة» ومسألة اشتراطها في الإمامة ليسا من غرائب الأفكار أو من عجاب المعتقدات بل إن ذلك هو المعنى المنسجم مع النصوص الشرعية القطعية والفكر الديني الأصيل.

ويقول الدكتور أحمد محمود صبحي في التعليق على مسألة «العصمة» عند الشيعة:

«إن جميع فلاسفة السياسة حين تناولوا موضوع السيادة العليا في الدولة أو المرجع الأخير للسلطة جعلوه فوق مستوى الشبهات... ولقد أثبت الفلاسفة السياسيون القائلون بالدكتاتورية والذين أثبتوا السيادة العليا في الدولة لشخص الحاكم أثبتوا العصمة له وإن اختاروا لذلك أوصافاً أخرى. وكذلك وصف فلاسفة الأنظمة الديمقراطية الشعب أو ممثليه أو الدستور بالعصمة. ويبدو أن العصمة لا بد أن تخلع على من يمتلك السيادة العليا في الدولة كضمان وحيد لاستقرار نظام الحكم وفرض تأييده على المحكومين».

---

(١) تفسير الرازي: ٤/ ٤٣.

«إن جميع الأنظمة السياسية على اختلافها تقر بوجوب وجود سلطة عليا تكون مرجع الأحكام، ولا يخضع الفرد لهذه السلطة أياً كانت حاكماً أو إرادة عامة أو دستوراً إلا إذا أضفي عليها نوع من القداسة ووصفت بالعصمة، فليست عصمة إمام الشيعة بشيء يدعو إلى الاستغراب مهما بدا في هذا اللفظ من غيبية، وإذا كان الشيعة هم أول من ابتدعوا البحث في حقيقة العصمة وحدودها فهم ليسوا وحدهم الذين انفردوا بالقول بها»[١].

ومهما يكن من أمر، فقد ظهر مما مر أن الشيعة لم يصدروا في معارضتهم للانتخاب عن انحياز عاطفي لشخص معين. أو رأي سياسي بالمعنى الشائع للسياسة، بل رأوا في النص ضماناً لحياة صحيحة ووسيلة لبناء سليم[٢]، فهم مندفعون في تأييد هذا الرأي بروح من الإيمان بالإسلام والإخلاص للهدف والشعور بالمصلحة.

وهكذا يتضح أن القول بضرورة النص:

١ ـ منسجم تماماً مع مشاعر الفطرة في الإنسان، بما تزرع فيه من

---

(١) نظرية الإمامة: ١٣٥ و١٣٩.

(٢) ومما يلفت النظر أن القائلين بالانتخاب يوم وفاة النبي (ص) لم يجدوا بداً من القول بالنص والدفاع عنه عندما نص أول خليفة في الإسلام على من يخلفه، وعللوا ذلك بأن الظروف العامة كان تفرض النص وتعينه، باعتبار أن حروب الفتح كانت قائمة، وأن الخشية من تمرد المتمردين ما زالت موجودة.
ولعل الباحث المدقق في الظروف التي أحاطت بوفاة النبي (ص) يدرك أنها كانت أكثر خطورة وأشد حساسية. وكان النبي على علم تام بها وبملابساتها المتوقعة، وذلك بحكم علمه بواقع الأمور؛ وبحكم إخبار الله تعالى له بذلك في قوله جل وعلا: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ﴾.
فلماذا لم ينص النبي إذن ونص غيره؟ وهل كان محمد أقل من غيره إدراكاً للخطر وشعوراً بالمسؤولية؟!

إحساس بالحاجة إلى ما وراء الغيب ومن ركون إليه في كل الأمور.

والإمامة ـ كما نعلم ـ رأس تلك الأمور التي تشد الإنسان المسلم بما وراء الغيب؛ بفعل ما تضفي عليه من مشاعر الراحة والاطمئنان والاستسلام الكامل لسلامة المسيرة وسداد خطاها على الطريق.

٢ ـ ومنسجم أيضاً مع علم النفس بما يذهب إليه من ضرورة اجتثاث عوامل القلق في الإنسان وردعه عن روح التمرد على القانون.

وعندما يكون الإمام معيناً من قبل صاحب الوحي مباشرة فإن الفرد سيكون واثقاً كل الثقة بهيمنة العدل والنزاهة والمساواة الصادقة والإخلاص المطلق، وبذلك تزول كل عوامل القلق والتململ والتمرد.

٣ ـ وهو منسجم كذلك مع ما ذهب إليه علماء الاجتماع من اعتبار الدين أعلى صيغ الربط والتماسك في الحياة الاجتماعية، بما يغمر حامليه من أحاسيس التآخي والوحدة والتراص الكامل.

والإمام المنصوص قمة ـ ولا شك ـ في عملية الربط والتماسك المتصلة بالمبدأ الأعلى والإيمان بحسن اختياره وسلامة انتقائه.

ولن يضير الفكرة ـ بعد ثبوت أصالتها الإسلامية المقتبسة من النص القرآني والحديث النبوي، وبعد ثبوت انسجامها مع مشاعر الفطرة ومنطلقات علميّ النفس والاجتماع ـ أن يرفضها رافض؛ أو ينبزها نابز أو يعبر عنها بما يشاء من الأسماء معبر.

نعم. لن يضير الإمامة بعد ثبوت كل ما سلف أن تسمى في لسان بعض الكتاب «ثيوقراطية».

فإن هذه التسمية إنْ قصد بها «الحكم الديني» فما في ذلك بأس، بل هو الأمر الواقع بالضبط.

وإن قصد بها «التحكم برقاب الناس باسم الدين» قياساً على التحكم الكنسي السيِّيء الصيت؛ فذلك هو خلاف حقيقة الإمامة نظرية وتطبيقاً.

ولهذا رفض الدكتور مجيد خدوري هذه التسمية لعدم انطباقها على الواقع، واختار لها اسماً آخر استقاه من صميم منهج الإسلام هو «الحكم النوموقراطي»[1] أي الحكم الذي تكون السيادة فيه للقانون. وهذه هي الحقيقة التي لا يستطيع إنكارها الشكاك والجاحدون مهما اشتطوا في الشك والجحود.

ولن يضير الإمامة أيضاً أن يسميها بعض آخر من الكتاب «ديكتاتورية».

فإن الحكم الديكتاتوري هو الحكم الذي تكون السيادة فيه لفرد أو أفراد معينين فتكون الدولة ملكاً لهم والقانون لعبة بأيديهم، وذلك ما يتنافى ـ كل التنافي ـ مع منهج الحكم الإسلامي الذي تعتبر السيادة فيه للقانون وحده؛ وليس من شيء غيره.

وواضح أن سيادة القانون كما جسمها عهد الإمام الأول علي بن أبي طالب (ع) ـ في سلمه وحربه ـ هي والديكتاتورية على طرفي نقيض.

ثم لن يضير الإمامة أن يطلق عليها بعض الكتاب اسم «الحكم الطبقي».

ومعلوم أن سيادة «الطبقة» معناها تسخير التشريع بكامله لصالح تلك الطبقة وتوجيه الأجهزة القمعية كلها لتدعيم مصالحها الذاتية الخاصة. وهذا ما لا يمت إلى الإسلام بأي شبه من الأشباه وبأي علاقة من العلاقات.

---

(١) نظرية الإمامة: ٦٢.

إن سيادة القانون وتحكيم مصدر السلطات وعدم السماح لأي أحد ـ حتى شخص الإمام ـ بتغيير النصوص وتعديل الأحكام؛ بقطع العلاقة بين الإمامة وبين كل فكرة طبقية قد يحاول البعض إلصاقها بهذا النظام.

وأخيراً ـ وليس آخراً ـ لن يضير الإمامة أن تعرف بأنها أسلوب «**لا ديمقراطي**».

إن القيمة الأساسية للديمقراطية ـ كنظرية ـ إنما تتمثل في ما تدل عليه من «حكم الشعب»، وإن القيمة الأساسية للشعب وحكمه إنما تنشأ من الإيمان بكونه «مصدر السلطات».

ولما كان الله تعالى ـ إسلامياً ـ هو مصدر السلطات وهو الفعال لما يريد كان لا بد من الإقرار بأنه صاحب القول الفصل في أي شأن من شؤون الحكم والنظام.

وحيث إن النبي هو الناطق الوحيد باسم مصدر السلطات والممثل الأمين له فإن تعيينه لشخص الإمام إنما يكون تعييناً مرضياً من قبل هذا المصدر وبذلك يكون منسجماً مع المنطق السياسي القائل بضرورة استشارة مصدر السلطات في الانتخاب والاختيار.

النّص عَلى الإمَام

كانت خلاصة الفصل السابق في كلمات:

أن الإمامة ضرورة لا بد منها لاستمرار المسيرة الإسلامية.

ولا إمامة إلا بنص وتعيين من النبي (ص) نفسه باعتباره الإنسان الذي لا ينطق عن الهوى.

وبانتهاء تلك المرحلة من البحث بهذه الخلاصة الصريحة ننتقل إلى مرحلة جديدة تعنى بالفحص عن الإمام المنصوص وعن النصوص الجليلة التي عينت شخص الإمام.

ولما كانت نصوص الإمامة بكثرة روايتها ورواتها واختلاف أساليب التنصيص فيها غير قابلة للحصر في نطاق ضيق كهذا، فإننا نجتزىء بإيراد ثلاثة شواهد في هذه العجالة، تاركين الاستيعاب والاستقصاء إلى الكتب المطولة المعنية بهذا الموضوع.

النص الأول: ‹حديث الدار›

أخرج ابن جرير الطبري بسنده: أن النبي (ص) عندما نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] دعا بني عبد المطلب إليه وفيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب. ولما فرغوا من طعامهم قام فيهم رسول الله (ص) خطيباً فقال:

«يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به؛ إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟».

فأحجم القوم عنها جميعاً، فقام علي فقال: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فقال (ص): «إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا»، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع[1].

إن هذا النص التاريخي قد تضمن ثلاث صفات لعلي:

١ ـ وزير.

٢ ـ وصي.

٣ ـ خليفة.

ومن حقنا أن نتساءل فنقول: لماذا منح النبي علياً هذه الصفات الثلاثة دون غيرها؟ ولماذا اختار لذلك أول اجتماع يعقد بعد البعثة.

وإذا كانت المؤازرة ضرورية له لأنه بحاجة ـ فعلاً ـ إلى الظهير والوزير فلماذا أضاف إليها الوصاية والخلافة بلفظيهما هذين؟. وما علاقة الوصاية والخلافة بإنذار عشيرته ودعوة بني قومه إلى الإسلام؟

ولتوضيح الإجابة على هذه التساؤلات يجب أن لا ننسى:

---

(١) نقلناه ـ ملخصاً ـ من تاريخ الطبري: ٢/ ٣١٩ ـ ٣٢١، طبعه دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١م. ومما يذكر أن الدكتور محمد حسين هيكل قد أثبت هذا الحديث في الطبعة الأولى من كتابه حياة محمد: ١٠٤، ثم حذفه من الطبعات التالية!!. ويراجع في مصادر هذا الحديث وأسانيده كتاب الغدير: ٢/ ٢٥٢ ـ ٢٦٠.

أن النبي (ص) في خطابه هذا يعلن لأول مرة بداية دولة جديدة وعهد جديد ومجتمع جديد.

وأن كل كيان يراد له البقاء والدوام لا بد له ـ في وجوده واستمراره ـ من رئيس أعلى يقود الأمة ويوجه الدفة؛ ومن نائب له يلجأ الناس إليه إن ألمت بالرئيس ملمة.

والنبي (ص) في هذا الموقف كان يهدف إلى إفهام هؤلاء الحضار أن المسألة ـ بدينها ودنياها ـ ليست مسألة زعامة يتفيأ ظلالها أو رئاسة يتمتع بها ما دام حياً، وإنما هي رسالة سماوية خالدة لن تموت بموته ولن تنتهي بنهاية عمره، بل ستبقى بقاء السموات والأرض، وسيكون لها من بعده من يضطلع بمهماتها ويقوم بأمرها؛ وهو هذا الفتى الذي يعلن استعداده للتضحية والفداء والمؤازرة، ونعني به علي بن أبي طالب (ع).

وهذا كله عند التأمل والتدقيق واضح وصريح في النص النبوي السالف الذكر.

ولما لم يجد الإمام الرازي مناصاً من الاعتراف بصحة هذا النص سنداً ودلالة؛ بادر إلى الشك في معنى الخلافة الواردة في الحديث، مدعياً أن النبي لو كان يقصد من ذلك تعيين الخليفة بعد وفاته لما اكتفى بقوله: «خليفتي فيكم» بل أضاف إليه «من بعدي» ليكون نصاً جلياً.

والحقيقة أننا لا نجد فرقاً بين التعبيرين.

وإذا كان «خليفتي فيكم من بعدي» صريحاً في الدلالة فإن «خليفتي فيكم» كذلك أيضاً، لأن معناه: أن علياً هو الذي يخلفني فيكم لو أصابني مكروه، وهذا نص على الخلافة بعد الموت، ويؤكد هذا المعنى ذكر النبي لكلمة «وصي»، والوصاية في الإسلام إنما يقصد بها ما بعد الموت؛ حيث يقوم الوصي بما طلب منه الموصي أن يقوم به، ولو كان

الأمر يتعلق بما قبل الموت لقال «وكيلي» ولم يقل «وصيي»، لأن الوكالة هي التعبير الإسلامي عمن يطلب منه تنفيذ بعض الأعمال نيابة عن إنسان موجود على قيد الحياة.

وإذن. فالنص صريح في أن النبي (ص) قد اختار من اليوم الأول للدعوة من يخلفه بعد وفاته ويكون وصياً عنه في رعاية شؤون المسلمين، حتى لا تصبح السفينة بمجرد موت ربانها تحت رحمة الموج والأعاصير.

وإنها البداية التي انطلقت مع أول صوت انبعث بالدعوة في محيطها الضيق وفي أيامها الأولى، واستمر منطلقاً في تأكيد هذه البداية حتى اليوم الأخير من عمر رسول الإسلام.

النص الثاني: ‹حديث المنزلة›

أخرج مسلم بسنده أن النبي (ص) قال لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي[1]...».

ويشير هذا الحديث الشريف ـ على إيجاز ألفاظه ـ إلى عدة معان قد لا تبدو واضحة أمام النظرة العجلى، ولكنها تبدو جلية كل الجلاء إذا ما دقق القارىء قليلاً في أبعاد الكلمات ومداليلها.

إن الحديث يشير إلى أن علياً:

أ ـ وزير رسول الله، لأن هارون وزير موسى ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾ [طه: ٢٩].

---

(١) صحيح مسلم: ٧/ ١٢٠.

ويراجع في مصادر هذا الحديث وأسانيده كتاب الغدير: ١/ ٤٨ ـ ٤٩ و٣/ ١٧٢ ـ ١٧٦.

ب ـ أخو رسول الله، لأن هارون أخو موسى (هارون أخي).

ج ـ شريك رسول الله، لأن هارون كان كذلك ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٣٢].

د ـ خليفة رسول الله، لأن هارون خليفة موسى ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف: ١٤٢].

هـ ـ اشتقاق الإمامة من النبوة، لأن ضمير «أنت» في الحديث تعبير عن الإمامة وضمير الياء في «مني» تعبير عن النبوة، وحرف الجر هنا بمعنى النشوء والوجود، ولئلا يفهم من هذا النشوء والاشتقاق تساوي الدرجة بكل معانيها أوضح النبي أن هناك فرقاً رئيساً هو النبوة فقال: إلا أنه لا نبي بعدي».

ولما كان موسى قد طلب من ربه أن يجعل له وزيراً من أهله ـ كما دلتنا الآية الشريفة ـ فإن ذلك يدل على أن الخلافة والوزارة للنبي إنما تكون بجعل من الله تعالى؛ وليست باختيار الناس وانتخابهم.

وهكذا تكشف لنا النظرة الفاحصة تلك الأبعاد التي يمتد إليها حديث المنزلة، وهي أبعاد لا يصح أن تفسر على أساس التكريم والتبجيل المجرد لعلي (ع)، وإنما كان وراءها هدف كبير هو تنبيه الأمة وتعريفها بمن سيخلف النبي بعد وفاته في رئاسة الدولة وقيادة السفينة وتوجيه الدفة.

وإن إشعار هذا الحديث بمشاركة علي للنبي ـ وليست مشاركة تجارية في عقار أو صناعة أو زراعة طبعاً ـ يعني بها المشاركة في حمل الأعباء الإسلامية وإنجاز المهمات المرتبطة بهذا الدين. وحيث إن المشاركة قد تخفي حدودها على السامع العادي ـ وبخاصة بعد معرفة نبوة هارون ـ أردف النبي حديث المنزلة بما يدفع التوهم ويحدد المقصود

من هذه المشاركة، فنفى النبوة بشكل مطلق وجعلها خارج حدود المشاركة كما أسلفنا.

ولعل مما يوضح أهمية هذا الحديث ودلالاته وأبعاده أن نعرف: أن مناسبة إعلان النبي لهذه المنزلة كانت عندما خلف علياً نائباً وقائماً مقامه في المدينة المنورة حين خروجه (ص) لغزوة تبوك.

وقد رفض الشيخ ابن تيمية أن يجد في هذه المناسبة ما يثبت لعلي فضيلة في هذا الحديث أبداً، لأن النبي قد صحب معه جل الصحابة والمؤمنين ولم يترك لعلي إلا النساء والصبيان فضلاً عن القاعدين من العاجزين والمنافقين. وليس في استخلاف إنسان على مثل هؤلاء الناس أي معنى من معاني التكريم[1].

ولكن المتأمل الواعي سيخرج بنتيجة أخرى ـ غير نتيجة ابن تيمية ـ عند دراسة ظروف الحديث.

فالمدينة المنورة عاصمة الدولة ومركز النبوة.

وعندما يفارق رئيس الدولة عاصمته إلى مكان بعيد ـ كتبوك ـ وبوسائل بدائية للمواصلات تستغرق مدة طويلة من الزمن والحرب لا يعلم متى ستنتهي ومتى يتسنى الرجوع منها، فإن اختيار هذا الرئيس لنائب يخلفه على العاصمة ـ وبخاصة تلك العاصمة المحاطة بالأخطار والمنافقين والأعداء المتحفزين للوثوب متى سنحت الفرصة ـ يوضح لنا المعنى الكبير الخطير في هذا الاختيار والانتقاء.

---

(١) نظرية الإمامة: ٢٢٩.

النص الثالث: (حديث الغدير)

روى هذا الحديث عدد كبير من الصحابة والتابعين، وأخرجه عدد كبير من العلماء والحفاظ[١].

ورعاية للاختصار نجتزىء من الحديث بمحل الشاهد منه مما يرتبط مباشرة بالنص على الإمامة وتعيين الإمام.

يقول الرواة:

في طريق العودة من حجة الوداع وعند غدير خم قام النبي (ص) بعد صلاة الظهر خطيباً في المسلمين، وكان مما قاله لهم:

يا أيها الناس! يوشك أن أدعى فأجيب، وإني مسؤول وإنكم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟.

قالوا: نشهد أنك بلغت وجاهدت ونصحت، فجزاك الله خيراً.

إلى أن قال (ص):

إن الله مولاي. وأنا مولى المؤمنين؛ وأنا أولى بهم من أنفسهم. فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه. أللهم وآل من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيثما دار.

وينتهي النبي (ص) من كلامه فيتدافع الناس نحو علي مهنئين قائلين: «بخ بخ لك يا علي؛ أصبحت مولانا ومولى كل مؤمن ومؤمنة».

ثم ينزل جبريل بالوحي الإلهي قائلاً: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

---

(١) يراجع لمعرفة أسماء هؤلاء الصحابة والعلماء والحفاظ والشعراء والرواة والمصادر التي أشارت إليهم وإلى رواياتهم: كتاب الغدير: المجلد الأول بكامله.

هذه هي خلاصة حديث الغدير وظروفه وهذه هي ألفاظ العهد كما رواها الإثبات. وقد جاءت صريحة كل الصراحة في تثبيت فكرة «الإمامة» ذات الولاية العامة والمسؤولية المطلقة وفي تعيين «الإمام» المسؤول بعد وفاة النبي (ص). وحسبنا دليلاً على هذه الصراحة فهم المسلمين ذلك ومبادرتهم ـ نتيجة لهذا الفهم ـ إلى تهنئة علي والبخبخة به بهذه المناسبة الغراء.

وطلع علينا المتفلسفون بعد حين من الدهر فقالوا ـ بعد أن أدركوا صحة الحديث وعدم إمكان نكرانه ـ بأنه لم يكن نصاً في المطلوب، لأن لفظ «مولى» في اللغة العربية يحتمل عدة معان ـ كالناصر وابن العم والحليف والوارث وما شاكل ذلك ـ ولا نعلم ماذا عنى النبي بهذا اللفظ وأي معنى من هذه المعاني كان يريد.

وكان ذلك هو «التفلسف» المنبعث عن الهوى والغرض والبعيد عن التعمق والموضوعية.

ويكفينا في تفنيد هذه المدعيات أن ندقق ملياً في الأمور التالية:

١ ـ نزول آية التبليغ قبل قيام النبي (ص) بإعلان هذه الولاية، فقد روى المؤرخون والمفسرون أن الله تعالى قد أوحى لنبيه وهو خارج من مكة بعد حجة الوداع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1].

٢ ـ نزول النبي (ص) وسط الصحراء في هجير الظهر لإعلان هذه الولاية.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

ويراجع في نزول هذه الآية في هذه المناسبة بالذات: الدر المنثور: ٢/ ٢٩٨ وفتح القدير: ٢/ ٦٠ وكتب أخرى مذكورة بتفاصيلها في كتاب الغدير: ١/ ١٩٦ ـ ٢٠٩.

٣ ـ تفريع الولايات الثلاث في كلام النبي (ص):

«الله مولاي.

أنا مولى المؤمنين.

من كنت مولاه فهذا علي مولاه»[١].

٤ ـ إنهاء الخطبة بالدعاء لعلي: «اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار»[٢]. وإنه لدعاء لا ينسجم مطلقاً مع غير الولاية العامة وإمرة المؤمنين.

٥ ـ نزول آية الإكمال المارة الذكر: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾... إلخ[٣]، الدالة على حدوث أمر خطير أكمل الله به الدين وأتم النعمة.

٦ ـ تهنئة الحاضرين لعلي بالصيغة السالفة الذكر[٤].

إن التدقيق في هذه الجوانب الستة يجعلنا نؤمن بكل جزم ويقين أن المقصود لم يكن إلفات نظر المسلمين إلى أن علياً وارث محمد أو ناصره أو حليفه أو ابن عمه. وليست مسألة الإرث أو النصرة ـ لو أراد

---

(١) أسد الغابة: ٤/ ٢٨ والبداية والنهاية: ٥/ ٢٠٩ ـ ٢١٣ ومصادر أخرى مذكورة في تضاعيف المجلد الأول من الغدير.

(٢) سنن ابن ماجة: ١/ ٤٣ والبداية والنهاية: ٥/ ٢١٠ ووفيات الأعيان: ٤/ ٣١٨ ومصادر أخرى مذكورة في تضاعيف الأول من كتاب الغدير.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣.

ويراجع في نزول الآية بهذه المناسبة: تاريخ بغداد: ٨/ ٢٩٠، والدر المنثور: ٢/ ٢٥٩، وكتب أخرى ورد ذكرها بتفاصيلها في الغدير: ١/ ١٢٠ ـ ٢١٧.

(٤) تاريخ بغداد: ٨/ ٢٩٠ والبداية والنهاية: ٥/ ٢١٠ ومصادر أخرى مبثوثة في تضاعيف المجلد الأول من الغدير.

النبي التحدث عنها ـ بحاجة إلى ما أحاط بالغدير من ظروف ومناسبات وإلى ما أنزل الله من آيات بينات وإلى تلك الصيغ الخاصة في التهنئة والتبريك، بل إن ذلك بأجمعه لن يكون له معنى مقبول لولا إرادة الإمامة والاستخلاف والبيعة.

وربما يكون الدكتور أحمد محمود صبحي في ما برر به إنكار المنكرين لهذا الحديث قد قارب الحقيقة أو أصابها إذ يقول:

«لما كان أهل الظاهر والسلفيون يوالون معاوية فإنه لم يكن لديهم مفر من اختيار، إما ترك هذه الموالاة أو القدح بشتى الوسائل في الحديث. وبالرغم من أنه من المفروض أن تخضع العقائد للنصوص إلا أن كثيراً من أصحاب المذاهب قد أخضعوا الأحاديث لأهوائهم ومذاهبهم[1].

وهكذا ثبت من مجموع ما سلف أن النبي (ص) قد نص على الإمام الذي يخلفه في قيادة هذه الأمة.

وكان النص المشار إليه ـ وإن اختلفت ألفاظه ومناسباته ـ صريحاً وجلياً وواضح الدلالة والمفهوم.

ولكن:

هل يكفي ثبوت النص على الإمام الأول في تعيين أئمة الباقين أم لا بد من النص عليهم أيضاً؟

وإذن. فكيف ثبتت إمامة الأئمة؟ وكيف صح تحديدهم باثني عشر لا يزيدون ولا ينقصون؟

لقد ثبتت إمامة الأئمة بطريقين:

---

(١) نظرية الإمامة: ٢٢١ ـ ٢٢٢.

الأولى ـ الأحاديث النبوية الكثيرة التي بلغت من كثرتها حد الشهرة الكبيرة، كقوله (ص) مخاطباً الحسن والحسين: «أنتما الإمامان ولأمكما الشفاعة»[١]. وقوله (ص) وهو يشير إلى الحسين: «هذا إمام، ابن إمام، أخو إمام، أبو أئمة»[٢].

وعلى هذه الشاكلة كثير تضمنت رواياته كتب الحديث والتاريخ والدراسات الموسعة المعنية ببحث الإمامة.

الثانية ـ نص السالف على اللاحق ـ ونص السالف حجة يجب التعبد بها والرضوخ لها ما دمنا معتقدين بإمامته القائمة على أساس كونه صادقاً وأميناً على الوديعة[٣].

أما ثبوت كون الأئمة اثني عشر لا يزيدون ولا ينقصون فهي كثيرة أيضاً[٤]، وحسبنا من كل ذلك: الحديث النبوي الشهير الذي أطبق على روايته شيوخ الحديث البارزون وحفظة السنة النبوية المعروفون، وهو قوله (ص):

«لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة، ويكون عليكم اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش»[٥].

---

(١) نزهة المجالس: ٢/ ٤٧٦.

(٢) منهاج السنة: ٤/ ٢١٠.

(٣) يراجع في النصوص النبوية في تعيين الأئمة، وفي نص كل سابق على لاحقه: الإرشاد للمفيد، المناقب لابن شهرآشوب السروي، والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي، ومطالب السؤول لابن طلحة الشافعي، وينابيع المودة للقندوزي الحنفي، وكثير غير هذه.

(٤) أخرج الشيخ القندوزي وغيره عن النبي (ص) قوله: «أنا سيد النبيين، وعلي سيد الوصيين، وإن أوصيائي بعدي اثنا عشر». يراجع في هذا الحديث وفي أحاديث «الاثني عشر» كتاب ينابيع المودة: ٤٤٧ و٤٨٦ و٤٨٧ و٤٨٨ و٤٩٢ و٤٩٣.

(٥) صحيح البخاري: ٩/ ١٠١ وصحيح مسلم: ٦/ ٣ وسنن الترمذي: ٤/ ٥٠١ وسنن أبي داوود: ٢/ ٤٢١ وجامع الأصول: ٤/ ٤٤٠/ ٤٤٢. =

وفي لفظ آخر:

إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيه اثنا عشر.. إلخ»[١].

وعندما نمعن النظر في هذا الحديث ـ وقد أجمع على صحته المسلمون أجمعون ـ نجد أنه صريح في شيئين:

١ ـ استمرار الدين إلى قيام الساعة.

٢ ـ وجود اثني عشر خليفة فقط خلال مدة استمرار الدين وقيامه لرعاية شؤون الإسلام والمسلمين.

وبديهي أن النبي (ص) لم يقصد بالخلفاء الاثنى عشر أولئك الخلفاء الذين حكموا المسلمين خلال القرون الأربعة عشر الماضية، لأنهم أكثر من «اثني عشر» أضعاف المرات، ولأن أكثرهم لم يكن ملتزماً بكتاب الله وسنة رسوله، فلا يمكن اعتبارهم خلفاء حقيقيين للرسالة والرسول (ص).

وإذن. فلا بد أن يكون المقصود غير هؤلاء.

وليس من أحد غير هؤلاء سوى علي وأولاده الأحد عشر الذين أجمع المسلمون على حبهم وتقديسهم؛ وأخذ أحكام الدين منهم، والرجوع إليهم في معضلات الفقه والتشريع، والالتجاء بهم كلما ألمت ملمة وكلما عصفت عواصف الدهر وعوادي الزمن.

ومن شاء الاستزادة في الاطلاع على النصوص النبوية في تعيين الأئمة وتحديد عددهم فليراجع الموسوعات الكبرى والدراسات المطولة المعنية بهذا الموضع.

= ويقول القاضي القندوزي عن طرق هذا الحديث:

«في البخاري من ثلاثة طرق، وفي مسلم من تسعة طرق، وفي أبي داوود من ثلاثة طرق، وفي الترمذي من طريق واحد، وفي الحميدي من ثلاثة طرق» يراجع ينابيع المودة: ٤٤٤.

(١) صحيح مسلم: ٦/ ٤.

الأَئِمَّة (ع)

لا بد لي ـ إكمالاً لتسلسل البَحث واستيفاءً لمنهجه ـ أن أستعرض ـ بإيجاز ـ أسماء الأئمة الطاهرين والظروف السياسية التي أحاطت بكل واحد منهم، وأشير ـ بإيجاز أيضاً ـ إلى ما أبقت الأيام من تراثهم العظيم وإلى مجمل من تواريخ حياتهم المطهرة، مع الالتزام الكامل بالاختصار والتلخيص؛ لئلا يخرج حجم الكتاب عما هو مقرر له في هذه السلسلة.

وكل ما أرجوه من الله تعالى ـ وهو المعين والموفق ـ أن يكون عوني ومساعدي على كتابة سير هؤلاء الأئمة الميامين؛ في رسائل خاصة تعنى كل واحدة منها بإمام من الأئمة الاثني عشر، ليكون جيلنا المعاصر على علم واف بسيرة قادة دينه وبالتراث العلمي الذي خلفوه للأجيال الإنسانية على مر العصور؛ مصدر غنى وقوة؛ وسبب عزة ورفعة؛ ومنطلق حضارة وتقدم. إنه ـ جل وعلا ـ ولي التأييد والتسديد.

الإمام الأول
علي بن أبي طالب (ع)

المعروف بلقبه الذي لقبه به رسول الله (ص) «أمير المؤمنين»[1].

ولد بمكة المكرمة في البيت الحرام في اليوم الثالث عشر من شهر رجب سنة ٣٠ من عام الفيل[2]. استصفاه النبي لنفسه وهو طفل صغير؛ تخفيفاً عن أبي طالب، فشاء الله أن يكون علي محظياً بتربية النبي وتوجيهه منذ نعومة أظفاره.

لما بعث النبي (ص) بالإسلام كان علي أول من أسلم[3]. ولما دعا قومه إلى الإسلام في بدء البعثة نص على عليٍ بالوزارة والوصاية والخلافة ـ كما مر ـ وعندما صمم النبي على الهجرة من مكة إلى المدينة فدى علي محمداً بنفسه فبات على فراشه ليوهم قريشاً بأن محمداً ما زال في مكانه.

وبعد الهجرة إلى المدينة المنورة، خاض علي كل حروب الإسلام وحمل راية النبي في كل الميادين، ولم يتخلف عن غزوات النبي كلها

---

(١) حلية الأولياء: ١/ ٦٣.

(٢) الإرشاد للمفيد: ٣.

(٣) يراجع في تعيين أول من أسلم: كتاب الغدير: ٣/ ١٩٢ ـ ٢٠٩ حيث سرد تأكيد ٦٦ صحابياً وتابعياً في كون علي أول المسلمين.

سوى غزوة تبوك حيث أبقاه النبي في المدينة حامياً لعاصمة الإسلام من الأخطار ـ كما مر ـ.

كرمه الله والنبي باختياره زوجاً لوحيدة محمد فاطمة الزهراء[١].

لم يختم النبي حياته إلا بعد أن عين علياً إماماً للناس في حديث الغدير ـ كما مرّ.

وعلى الرغم من كل الأحداث التي عاشها بعد وفاة النبي (ص) فإنه لم يدخر وسعاً في الجهد والنصيحة خدمة لمصالح الإسلام العليا وتدعيماً للمسيرة المقدسة التي كان لا بد من استمرارها ومن حمايتها من الانتكاس مهما كانت الظروف والأحوال.

انثال المسلمون عليه إثر مقتل عثمان يريدون منه قبول الخلافة، فقبلها مكرهاً مضطراً، ولولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقى حبلها على غاربها ولسقى آخرها بكأس أولها، ولألفى الناس دنياهم هذه أهون عند علي من عفطة عنز، على حد تعبيره (ع).

ابتلي خلال أيام خلافته بمحاربة الناكثين أتباع الجمل؛ والقاسطين أتباع معاوية، والمارقين الخوارج من الدين[٢].

---

(١) يراجع في كون فاطمة وحيدة محمد «النبوة» هوامش ص٤٥ ـ ٥٥، بغداد ١٣٩٢هـ.

(٢) قد أخبره رسول الله (ص) بأنه سيقاتل هؤلاء. يراجع تاريخ بغداد: ٨/ ٣٤٠ و١٣/ ١٨٧ والاستيعاب: ٣/ ٥٣.

توفي بالكوفة ـ بمؤامرة دنيئة ـ ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان[١] سنة ٤٠هـ، ودفن بظاهر الكوفة «النجف الأشرف».

(١) يراجع في تحديد وفاته بهذه الليلة، مروج الذهب: ٢/ ٢٩١، والكافي: ١/ ٤٥٢، والإرشاد: ٦، وذكر الطبري في تاريخه: ٥/ ١٤٣ أن ضربة عبد الرحمن بن ملجم لعلي كانت ليلة سبع عشرة أو تسع عشرة وحيث إنه بقي حياً يومين بعد الضربة فتكون وفاته على إحدى روايتي الطبري ليلة إحدى وعشرين.

الإمام الثاني
الحسن بن علي(ع)

المعروف بلقبه «الزكي» و«المجتبى».

ولد بالمدينة المنورة ليلة النصف من شهر رمضان سنة ٣هـ.

نشأ في أحضان النبوة ورحاب القرآن وبيت الوحي التنزيل.

كان أحد «إمامي الهدى»[١]، وأحد «سيدي شباب أهل الجنة[٢]»، وأحد اثنين انحصرت بهما ذرية رسول الله (ص)، وأحد الأربعة الذين باهل بهم رسول الله نصارى نجران، وأحد الخمسة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

عاش سبع سنوات مع جده الأعظم (ص)، ثم عاصر كل الأحداث التي عانى أبوه مرارتها وتحمل آلامها، وأتته الخلافة منقادة إثر وفاة أبيه (ع) فبايعه العالم الإسلامي كله عدا معاوية وبلاد الشام، واضطر ـ أداء لواجب الأمانة الدينية ـ أن يزحف جيشه للقاء معاوية وجيشه، ثم انتهى ذلك الزحف بالصلح المعروف، فكان سلام الله عليه كما قال عنه جده (ص): «إن ابني هذا سيد يصلح الله على يديه بين فئتين عظيمتين»[٣].

---

(١) نزهة المجالس: ٢/٤٧٦.

(٢) سنن الترمذي: ٥/٦٥٦.

(٣) المصدر السابق: ٥/٦٥٨.

والبحث في صلحه مع معاوية بمقدماته وظروفه ودوافع الإمام إليه وسر الموقف فيه وبنود معاهدته وشروطها ومواثيقها ثم مدى وفاء معاوية بتلك الشروط؛ بحث لا يتسع له مجال كهذا، وعلى الراغب في التفاصيل أن يقرأ كتاب «صلح الحسن» فقد جمع فأوعى وبحث فأجاد، وهو مطبوع أكثر من مرة.

ولقد لفق اللاغطون عنه (ع) أنه كان كثير الزواج والطلاق، حتى ادعى أحدهم أن عدد أزواجه كان بين «الثلاثمائة والتسعمائة»[١]، ولكن التحقيق التاريخي لم يثبت له من الأزواج المعروفات أكثر من سبع أو ثمان[٢]، كما أن التحقيق التاريخي أيضاً لم يثبت له من حوادث الطلاق أكثر من ثلاثة[٣].

ويقول الدكتور أحمد محمود صبحي تعليقاً على تعدد أزواج الإمام: «ولعله كان يقصد بتعدد الزوجات الاصهار إلى كثير من القبائل، لأن الحاكم ـ على حد تعبير ابن خلدون ـ يستند إلى عصبية، ولما كان بنو أمية لم ينتصروا ويتمكنوا في الأرض إلا بما توافر لديهم من عصبية، فقد أدرك الحسن بما قد يتعرض له ذووه وذريته من اضطهاد وتقتيل لا يحفظ منه سلالة الرسول من الاندثار والانقراض إلا تعدد الزواج وكثرة النسل[٤].

توفي ـ بسمٍّ معاوية ـ بالمدينة المنورة في شهر صفر سنة ٥٠هـ[٥]، ودفن في البقيع الطاهر.

---

(١) عقيدة الشيعة: ٩٠.
(٢) أهل البيت: ٢٨٠/ ٢٨٢.
(٣) نفس المصدر: ٢٨٢.
(٤) نظرية الإمامة: ٣٢٨ ـ ٣٢٩.
(٥) الولادة والوفاة من الإرشاد: ١٩١ و١٩٧.

الإمام الثالث

الحسين بن علي(ع)

المشتهر بلقبه «سيد الشهداء».

ولد بالمدينة المنورة في الليلة الخامسة من شهر شعبان ٤هـ.

نشأ في ظلال النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومعدن العلم.

شارك أخاه الحسن في كل مزاياه الأساسية: فهو مثله أحد إماميْ الهدى، وأحد سيديْ شباب أهل الجنة، وثاني اثنين انحصرت بهما ذرية النبوة، وأحد الأربعة الذين باهل بهم النبي، وأحد الخمسة المنزهين من الرجس والمطهرين تطهيراً.

عاش ست سنوات في أحضان جده(ص)، وعاصر كل الأحداث التي مرت على أهل البيت منذ وفاة جده وحتى مقتل أخيه بالسم؛ مروراً بما لاقت أمه وما عانى أبوه وما كابد أخوه.

وعندما مات معاوية وورث يزيد الخلافة، دعاه المؤمنين إلى قبول الأمر والثورة على الخليفة الجديد، فلبى طلبهم وأعلن رفضه لبيعة هذا الشاب الخليع، ونستطيع أن نلخص دوافعه للثورة في ثلاثة أسباب رئيسية:

١ ـ عدم استحقاق يزيد للخلافة وعدم أهليته لها.

٢ ـ انتهاء مفعول المعاهدة المبرمة بين أخيه الحسن ومعاوية، وهي المعاهدة التي نصت في مادتها الثانية على: «أن يكون الأمر للحسن من بعده، فإن حدث به حدث فلأخيه الحسين، وليس لمعاوية أن يعهد بها إلى أحد»[١]، ومعنى ذلك أن الحسين قد أصبح بعد موت معاوية صاحب الحق الرسمي في الخلافة باعتراف معاوية المُوقِّع على المعاهدة.

٣ ـ الظرف العام الذي كان يفرض عليه القيام بهذا الواجب، وقد أشار إليه الحسين عندما ذكر دوافعه للثورة خلال حديث له قائلاً: «إني لم أخرج بطراً ولا أشراً ولا مُفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت أطلب الصلاح في أمة جدي محمد (ص)، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»[٢].

ويقول ملمحاً إلى ذلك خلال رسالة له إلى بعض شيعته:

«فلعمري ما الإمام إلا الحاكم بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدين الحق، الحابس نفسه على ذات الله»[٣].

وعندما تتضح هذه الأسباب وتتجلى الدوافع الإسلامية الكبرى للثورة، يبدو مدى الخطأ الذي وقع فيه أبو بكر بن عربي وأشباهه عندما خطأوا الحسين في ثورته ورأوا الأولى به أن يبايع ويسكت[٤]، وكيف يكون الأولى به أن يسكت في حين أن واجبه الديني يفرض عليه الثورة،

(١) صلح الحسن: ٢٥٩ ـ ٢٦٠.
(٢) المناقب: ٢/٢٠٨.
(٣) الإرشاد: ٢١٠.
(٤) العواصم من القواصم: ٢٣١.

ونصوص المعاهدة التي وقعها معاوية نفسه تعطيه الحق في عدم البيعة وعدم السكوت.

وهكذا صار الحسين الفاتح الأكبر على امتداد التاريخ وإن خسر المعركة العسكرية المؤقتة في كربلاء، وأصبح قاتلوه لعنة الأجيال على امتداد التاريخ وإن انتصروا في معركتهم ذلك الانتصار المؤقت، بل «لم يُعرف في التاريخ حركة يعضّ فيها المنتصرون بنان الندم كالذين انتصروا في كربلاء»[١].

استشهد في اليوم العاشر من المحرم بعد الظهر سنة ٦١هـ[٢] ودفن حيث استشهد بكربلاء.

(١) نظرية الإمامة: ٣٣٦.

(٢) تاريخ الولادة والوفاة من الإرشاد: ٢٠٣.

الإمام الرابع
علي بن الحسين (ع)

المعروف بلقبيه الشهيرين «السجاد» و«زين العابدين» ولد بالمدينة المنورة سنة ٣٨هـ.

عاصر ـ وهو طفل صغير ـ حادث اغتيال جده أمير المؤمنين ونكبة عمه الحسن التي دفعته إلى الصلح مع معاوية ـ وقد مرت الإشارة إليها ـ.

ثم عاش ـ في شبابه ـ مأساة كربلاء بكل آلامها وفجائعها، وأُخذ إلى الشام أسيراً فكان له ـ ولعمته الكبرى ـ دور كبير في تفشيل ذلك المخطط الأموي الرهيب الهادف إلى طمس جريمة مقتل الحسين (ع) واعتبار ما حدث حركة عسكرية تأديبية لمتمردين خارجين على الدين وعلى النظام.

ثم عاش ـ في السنة التالية لمقتل أبيه ـ وقعة الحرة بكل جرائمها وفظائعها، وعندما قرر الثوار طرد سائر الأمويين من المدينة المنورة لم يجد مروان بن الحكم ملجأً يضمن فيه سلامة عائلته سوى دار الإمام السجاد فترك عائلته هناك[1]. وكان قبول الإمام لهؤلاء اللاجئين درساً كبيراً تجلى فيه أمام الناس والتاريخ، معنى الإمامة بمفهومها السماوي القدسي العظيم.

---

(١) الكامل: ٣/ ٣١١.

اتجه الإمام نحو النضال السلبي ضد السلطة، وتمثل هذا العمل السلبي مجسماً على شكل أدعية وأذكار يتعلمها الناس منه ويتداولها البعض عن البعض، وقد أودع فيها ما يُلفت الأنظار إلى حقيقة السلطة بظلمها الهائل وجورها الكبير، وينبه الأذهان إلى ما فعله أولئك السلاطين من إماتة لمعالم الدين، وابتزاز لمقام الأصفياء والأمناء، وتحريف للفرائض، ونبذ للكتاب وترك للسنن[١]. ويعالج ـ في الوقت نفسه ـ تلك الأزمة الخُلُقية الحادة التي كان يعاني المجتمع آثارها السيئة يومذاك.

وقد جُمعت هذه الأدعية في كتاب يسمى «الصحيفة السجادية» أصبح يمثل لنا ولكل الأجيال، جانباً مهماً من تراث الإمام، وقد طبعت عدة مرات.

كما كان من تراث الإمام الخالد: رسالته في «الحقوق»، وقد عنى فيها ببيان الحقوق الخاصة والعامة التي تنظم العلاقات والسلوك بين الإنسان وربه، والإنسان وجوارحه؛ وبينه وبين سائر الناس، وهي مطبوعة أكثر من مرة.

توفي ـ سلام الله عليه ـ بالمدينة المنورة سنة ٩٥هـ[٢]، ودفن في «البقيع» الشريف.

(١) يراجع في ذلك من الصحيفة السجادية: الصفحات ٢٥ و٣٨ و٥٦ و٨٢ و١٠٧ و١٦٩ و١٩٦ و٢٣٦ و٢٦١ و٢٦٢ و٣٠٤ و٣٠٨.

(٢) تاريخ ولادته ووفاته في الإرشاد: ٢٧٠.

الإمام الخامس
محمد بن علي(ع)

المشهور بلقبه «الباقر» الذي لقبه به جده رسول الله (ص) ولد بالمدينة المنورة سنة ٥٧هـ.

عاصر ـ في طفولته ـ مأساة كربلاء وعاش ـ في شبابه ـ تلك المحن والآلام التي تجرعها أبوه السجاد (ع) وسائر العلويين.

وعندما آلت الإمامة إليه ـ بعد وفاة أبيه ـ قرر الالتزام بالسلبية المطلقة تجاه السلطة وبعدم المشاركة بأي شكل من الأشكال في أحداث عصره، بل آثر تفريغ كل الوقت والجهد للتعليم الديني وشرح واقع الإسلام وإزالة آثار الصدأ والتضبيب التي لفّت التشريع والفقه والحديث في العصر الأموي الأول.

وعلى الرغم من انقطاع العلاقة بينه وبين حكام عصره فإنهم كانوا يلجأون إليه في بعض المشاكل العامة طالبين منه المشورة والنصيحة؛ وكان الإمام لا يبخل عليهم بالنصح والتوجيه حفاظاً على كيان الإسلام ومصالحه العليا.

وكمثل على هذه المشورة يروي بعض المؤرخين أن الخليفة عبد الملك بن مروان منع تداول صنف معين من الأواني والثياب كان يصنعها بعض المسيحيين في مصر ويثبتون عليها بالسريانية شعار الأب والابن وروح القدس.

ودارت المفاوضات بين الخليفة وملك الروم بهذا الشأن، وكان الخليفة يرفض الاستجابة لطلب ملك الروم في الاستمرار بذلك الإنتاج، وأخيراً هدد ملك الروم ـ في حالة عدم تلبية طلبه ـ بتثبيت جمل السب لنبي الإسلام على الدراهم والدنانير المتداولة من قبل المسلمين، وكانت النقود إلى ذلك اليوم تصنع في بلاد الروم.

وعندما حار عبد الملك في الأمر لم يجد بداً من استشارة الإمام الباقر بالأمر، فاستدعاه إلى الشام لهذا الغرض، فلبى الإمام الطلب وحضر إلى الشام واجتمع فور وصوله بعبد الملك فشرح له الخليفة المشكلة، فما كان من الإمام إلا أن أمره بإحضار الصُنَّاع، فأحضرهم الخليفة، فأوضح لهم الإمام طريقة سبك الدراهم والدنانير وتنظيم قوالبها وضبط مقاديرها. وبهذا تم التغلب على المشكلة وهدم خطط ملك الروم في إخضاع المسلمين ورضوخهم لتهديداته الوقحة[١].

طلاب الإمام كثيرون لا مجال لتعدادهم، وتراثه المحفوظ قيِّم ورائع، وقد تضمنت روايته كتب التفسير والفقه والحديث والكلام والتاريخ.

توفي ـ سلام الله عليه ـ بالمدينة المنورة في شهر ذي الحجة الحرام سنة ١١٤هـ[٢] ودفن في «البقيع» الشريف.

(١) يراجع في تفاصيل هذه القضية كتاب المحاسن والمساوىء للبيهقي ٢/ ٢٣٢ ـ ٢٣٦.

(٢) تاريخ الولادة والوفاة من الإرشاد: ٢٧٩.

الإمام السادس

جعفر بن محمد (ع)

المشهور بلقبه «الصادق».

ولد بالمدينة المنورة في سنة ٨٣هـ.

عاصر فترة ضعف الدولة الأموية وسقوطها، ثم فترة قيام الدولة العباسية وانشغالها بتثبيت دعائم الحكم الجديد، وقد ساعده هذا الظرف كثيراً على إفادة الناس وتعليمهم وتثقيفهم وتربية عدد كبير من الطلاب العلماء الذين كان لهم أثر كبير في دفع الحركة العلمية وتطويرها ـ في عدد من الاختصاصات ـ في العالم الإسلامي.

ولكثرة عدد طلابه وكثرة الرواية عنه دُعِيَ التشيُّع ـ في ألسِنَةِ الناس ـ «المذهب الجعفري» نسبة للإمام جعفر الصادق (ع). في حين أن التشيُّع منهج أهل البيت جميعاً من دون اختصاص بإمام معين.

ويكفينا في معرفة دور هذا الإمام في العمل والمعرفة أن نقرأ ما سجله أحد المؤرخين من إحصاء عدد الرواة عن الإمام وبلوغهم أربعة آلاف رجل[١]. وأن نقرأ تصريح أبي الحسن الوشاء إذ يقول في جملة حديث له: «أدركت في هذا المسجد ـ يعني مسجد الكوفة ـ تسعمائة شيخ كلهم يقول: حدثني جعفر بن محمد»[٢].

---

(١) المناقب: ٢/ ٣٢٤.

(٢) أشعة من حياة الصادق: ١/ ٨٨.

ثم يكفينا أن نقف على تراث الإمام العلمي الذي أبقت لنا الأيام بعضاً منه لنعرف مدى العظمة المتجلية في هذا الإمام العظيم.

ولقد أُثِرَ عن الإمام في تفسير القرآن وفي علم الفقه والتشريع وفي الفلسفة والكلام شيء كثير، لو جمع لشكّل موسوعة إسلامية ضخمة ليس لها مثيل.

ثم كان مما أثر عنه من تراث: تلك القواعد الطبية والمنطلقات الأساسية في الصحة العامة المجموعة في كتابيْ «توحيد المفضل» و«الإهليلجة»[١]، وقد تضمنا ـ في ما تضمنا ـ إيضاحات وافية في مسألة «العدوى» المؤدية بدورها إلى معرفة «المكروب» ووضوح دوره في علم الأمراض، كما تضمنا أيضاً سبق الإمام(ع) إلى كشف أسرار الدورة الدموية قبل أن يهتدي إليها الدكتور هارفي بقرون.

وأخيراً ـ وليس آخراً ـ فهناك في تراث الإمام ما أملاه على تلميذه جابر بن حيان من قواعد علم الكيمياء وأصوله، فكان بذلك «ملهم الكيمياء» حقاً كما سماه الدكتور محمد يحيى الهاشمي[٢].

ويتحدث الأستاذ دونالد سن عن طريقة الإمام في التدريس فيقول: إنها «كانت سقراطية، فهو يأخذ المتلمذين بالحوار والمحادثة ويتدرج من الموضوعات الساذجة إلى المسائل المركبة والمطالب المعقدة والأسرار الغامضة»[٣].

توفي ـ سلام الله عليه ـ بالمدينة المنورة في شهر شوال سنة ١٤٨هـ[٤]، ودفن في «البقيع» الشريف.

---

(١) طبعا عدة مرات في النجف والقاهرة وإيران وبيروت.

(٢) يراجع كتابه «الإمام الصادق ملهم الكيمياء» ـ الطبعة الثانية ـ سوريا ١٩٥٨م.

(٣) مجلة البلاغ ـ السنة الثانية ـ العدد الثاني ـ ص٨٣.

(٤) تاريخ الولادة والوفاة من الإرشاد: ٢٨٩.

الإمام السابع
موسى بن جعفر (ع)

المشتهر بلقبيْه «الكاظم» و«باب الحوائج».

ولد بالأبواء ـ قريباً من المدينة المنورة ـ سنة ١٢٨هـ.

قضى أيام حياته مُعذباً مُطارداً من بني عمه العباسيين، ولقي من مضايقاتهم ـ وهو طليق ـ ومن أذاهم ـ وهو سجين ـ ما لا يدركه بيان. وكانت أيام الرشيد أشد تلك العهود على الإمام. ويروي بعض المؤرخين في سبب ذلك أن الرشيد عندما قدم المدينة المنورة ودخل إلى المسجد النبوي تحفه الزعماء والرؤساء توجه إلى القبر النبوي الشريف، فخاطب رسول الله (ص) بقوله: السلام عليك يا ابن العم، محاولاً بذلك أن يخدع الناس بأحقيته بالخلافة بسبب هذه القربى القريبة، فما كان من الإمام إلا أن كشف زيف هذه الخديعة إذ خاطب النبي (ص) بقوله: السلام عليك يا أبه. فاربَدَّ وجه الرشيد وثارت به نوازع الحقد والشر.

وقد دارت حول هذا الموضوع بالذات مناقشات كثيرة بين الإمام والرشيد لتحديد القريب والأقرب منهما إلى النبي (ص).

وكان أهم ما لدى الرشيد في هذه المناقشات إنكاره أن يكون أولاد البنت «ذرية»، و«أبناء» بالنسبة إلى جدهم، لأن كلمتي «ذرية» و«أبناء» إنما يعنيان المتقربين بالأب دون المتقربين بالأم.

وكانت خلاصة أجوبة الإمام:

١ ـ لو أن النبي (ص) بُعث حياً فبإمكانه أن يخطب ابنة الرشيد ويتزوجها، ولكنه لا يخطب ابنة الإمام أبداً.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] إلخ، وقد علم جميع المسلمين أن الأبناء الذين خرجوا للمباهلة هم الحسن والحسين أولاد فاطمة (ع)، وقد سماهما القرآن الكريم أبناء.

٣ ـ قوله تعالى: عن إبراهيم الخليل: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥] إلخ. وعيسى ليس له أب، وقد اعتبره القرآن من ذرية إبراهيم بسبب أمه. ومعنى ذلك أن المتقرب بالأم من «الذرية» وبصريح القرآن.

وعلى الرغم من العنت الذي لاقاه الإمام والسجون التي تَنقّل فيها، فإنه كان لا يدع كل فرصة تمر دون إفادة الناس وتعليمهم، وقد بقي لنا ببركة هذه الفترات القليلة من الحرية تراث قيِّم تضمنته المصادر الإسلامية الكبرى.

توفي ـ سلام الله عليه ـ لست خلون من شهر رجب سنة ١٨٣هـ[1]، ودفن بمقابر قريش التي تعرف اليوم باسم «الكاظمية» نسبة للإمام نفسه.

(١) الولادة والوفاة من الإرشاد: ٣٠٧.

الإمام الثامن
علي بن موسى(ع)

المعروف بلقبه «الرِّضا».

ولد في المدينة المنورة سنة ١٤٨هـ.

نشأ في العصر العباسي الأول، وعاش كل الآلام التي مرت على أبيه في سجونه ومعتقلاته. وعندما آلت الخلافة إلى المأمون كان الوضع العام في البلاد الإسلامية يعاني من عدة مشاكل رئيسة أهمها: ضعف هيبة الدولة بعد حروب الأمين والمأمون، ونقمة العباسيين وأتباعهم على المأمون لنقله عاصمة الخلافة إلى إيران وتقربه الكبير من الفرس، ثم حركات الثورة التي كان يقودها العلويون في مكة المكرمة واليمن والكوفة والبصرة وخراسان.

وفكر المأمون ملياً في علاج هذه المشاكل؛ فلم يجد مناصاً من استدعاء الإمام الرِّضا إلى مرو؛ وعَرْضِ فكرة تنازله عن الخلافة له ـ فور لقائه به ـ، ثم الإصرار ـ الذي لا مفر منه ـ على الإمام بقبول منصب ولاية العهد بعد رفضه لقبول الخلافة لو تنازل عنها المأمون.

وكان دافع الخليفة إلى هذه العروض هو التخلص من الموقف الحرج الذي وصلت إليه الأوضاع العامة؛ وبخاصة تلك الثورات القائمة في أطراف العالم الإسلامي، حيث تكون مشاركة الرضا سبباً في فقدان

تلك الثورات وقود اشتعالها واستمرارها الجماهيري وهو حب آل علي والدعوة إلى الرضا من آل محمد.

وكان دافع الإمام للرفض علمه بأن المأمون منطلق في إصراره من المصلحة السياسية الآنية، وبما يكون في المستقبل قائد الحركة المضادة له؛ أو سيجعل من بعض العلويين المتعاملين في سوق بيع الضمير معه واجهة أمامية لتلك الحركة المضادة.

ولكن الإمام ـ مع علمه بذلك كله ـ كان يحس بالحرج تجاه هذا العرض، لأن الرفض التام معناه الاعتراف بعدم استحقاقه للأمر أو عدم قدرته على تحمل أعبائه، ولذلك وافق على فكرة ولاية العهد لتكون فترة امتحان وتجربة للمأمون.

وأصبح الإمام ولياً رسمياً للعهد.

وبدأت الملابسات والمناورات تحاك وتنظم هنا وهناك. ثم توفي الإمام في ظروف مبهمة غير سليمة من الشك ومن الاتهام، مما لا مجال لشرحه في هذه العجالة.

أما تراث الإمام العلمي فهو عبارة عن مجموعة من الروايات يجدها الباحث في كثير من المصادر الإسلامية، وكان من جملتها رسالته الطبية «الذهبية» التي كتبها للمأمون واشتهرت باسم «طب الرضا»، وقد شرحها الدكتور صاحب زيني مقارناً بين مطالبها وآخر ما توصل إليه الطب الحديث، وقد طبع الأصل والشرح ببغداد قبل سنين.

توفي ـ سلام الله عليه ـ في طوس في شهر صفر سنة ٣٠٣هـ[1]، ودفن هناك وتسمى الآن مدينة «مشهد» في إقليم خراسان.

❀ ❀ ❀

(١) تاريخ الولادة والوفاة من الإرشاد: ٣٢٥.

الإمام التاسع
محمد بن علي(ع)

المعروف بلقبيْه «الجواد» و«التقي».

ولد بالمدينة المنورة في شهر رمضان سنة ١٩٥هـ.

أدرك في أول صباه عهد الخليفة المأمون؛ الذي كان رغم المشاعر الكامنة عهداً تتسم كل مظهره بالحب والولاء لأهل البيت (ع).

ولما توفي الرضا (ع) وترددت على الأفواه إشارة الاتهام للمأمون في قتل الإمام حاول الخليفة تكذيب ذلك وإقامة الدليل العملي على هذا التكذيب، فوجه اهتمامه نحو ابن الرضا وتحبب إليه، وآل به الأمر إلى تصميمه على تزويج الإمام من ابنته أم الفضل، لإثبات رغبته في إحكام الصلة بين الأسرتين.

ونقم العباسيون من المأمون ذلك وشافهوه بعدم رضاهم وبإصرارهم على صرف النظر في ذلك، مع مطالبتهم إياه بأن يسير مع العلويين سيرة الخلفاء السابقين، ويعنون بذلك سيرة التوتر والمقاطعة والعداء.

ورفض المأمون هذا العرض وصارحهم بضرورة إزالة ذلك التوتر الموروث؛ لأنه قطيعة للرحم واعتداء على بني علي بلا سبب وبدون مبرر، وأوضح لهم بأن اختياره الإمام ليزوجه ابنته لم يكن عملاً عاطفياً

أو اعتباطياً، وإنما هو مدفوع لذلك لما لمسه من تميُّز الإمام على كافة أهل العلم والفضل على صغر سنه.

ولما رأوا إصرار المأمون على موقفه طلبوا منه أن يمهل الإمام حتى يتفقَّه ويتعلم، فقال لهم المأمون: إن هذا من أهل بيت علمهم من الله؛ وإن شئتم فامتحنوه لكي يتبين لكم الأمر. فوافقوا على ذلك، وأعدوا للامتحان عدته، وطلبوا من قاضي القضاة يحيى بن أكثم أن يهيىء له من الأسئلة ما يكشف عجز الإمام وفشله.

وتم الامتحان في يومه المقرر، وكانت النتيجة فشل قاضي القضاة في محاولته وتجلى الإمام قمة شامخة في الفقه الإسلامي، مما لا مجال لشرحه هنا بالتفصيل.

ثم تم الزواج أثر ذلك، وتعمقت الصلات بين الإمام والمأمون.

ولما آلت الخلافة إلى المعتصم دعا الإمام إلى بغداد وأنزله في دار خاصة، ثم سرعان ما توفي الإمام بعد ذلك في ظروف غامضة اتجهت إليها أصابع الاتهام إلى المعتصم بكونه قد دس السم للإمام بواسطة زوجته أم الفضل.

وعلى الرغم من تطويق الحكم للإمام وبخاصة في فترات إقامته ببغداد فقد أثر عنه من نصوص العلم شيء قيِّم تضمنته المصادر الإسلامية الشهيرة.

توفي ـ سلام الله عليه ـ في شهر ذي القعدة الحرام سنة ٢٢٠هـ[1]، ودفن إلى جنب جده الإمام الكاظم بمقابر قريش «الكاظمية».

(١) تاريخ الولادة والوفاة من الإرشاد: ٣٣٩.

الإمام العاشر
علي بن محمد (ع)

المشتهر بلقبيْه «الهادي» و«النقي».

ولد بالمدينة المنورة في النصف من ذي الحجة سنة ٢١٢هـ.

عاصر خلال سني حياته عهد المعتصم؛ وهو عهد تأسيس سر من رأى وانشغال الخليفة بمشاكل الأتراك المماليك المسيطرين على الجيش والدولة.

ثم عهد الواثق، وهو عهد لم يكن فيه سوى المحبة والتودد بين الخليفة والإمام.

ثم عهد المتوكل، وهو عهد الانحراف عن أهل البيت (ع) والمجاهرة بعدائهم ومحاربتهم.

ولما علم عامل المتوكل على المدينة بنوايا خليفته أخذ يرسل التقارير تباعاً إلى عاصمة الخلافة، وكلها اتهام للإمام بالإعداد للثورة والتأكيد على عظم خطره على الدولة.

وعندما كثرت هذه التقارير كتب المتوكل إلى الإمام رسالة يقترح فيها عليه أن يقدم إلى سر من رأى مع من يحب أن يكون بصحبته من عائلته وأهل بيته، ليجدد به العهد ويطفىء حرارة الشوق إليه، كما كتب إلى واليه على المدينة أن يرسل مع الإمام إذا ما قرر السفر عدداً من الحراس والمرافقين، زيادة في التظاهر بالاهتمام والاحترام.

وأحسّ الإمام من مجموع ذلك أنه لا بد من السفر؛ فشد الرحال متوجهاً إلى سر من رأى، وبعد أن استقر بعضاً من الوقت في الدار التي أفردها المتوكل له، انتقل إلى الدار التي اشتراها من ماله الخاص تخلصاً من ضيافة الخليفة، وهي الدار التي أصبحت بعد ذلك مدفن الإمام ومزار الناس.

وبقي الإمام في سر من رأى أسير الإقامة الجبرية حتى أدركته الوفاة. وكان التوتر على رغم ذلك مستمراً، والوشاة نشطين في عملهم، وكل وسائل الإيذاء للإمام قائمة، بما في ذلك مداهمة داره ليلاً بزعم البحث عن المال والسلاح الذين يعدهما للثورة على المتوكل.

ومع كل هذه الاعتداءات والمزعجات فإن الخليفة لم يكن يجد بداً في كثير الأحيان من اللجوء إلى الإمام في المسائل العويصة والمشاكل الشرعية التي لم يكن في جهاز الخليفة من يحسن فهمها ومن يحسن الإجابة عليها.

وبقي لنا من تراث الإمام العلمي شيء نفيس قيِّم، وفي طليعته رسالته المكرسة لموضوعيْ «الجبر والتفويض»، حيث شرح فيها المسألة من كل جوانبها، وأبان وجوهها، وجلا غامضها ومشكلها، وأعطى التوضيح الكامل لما عناه جده جعفر بن محمد(ع) بقوله: «لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين الأمرين»[1].

توفي في سامراء في شهر رجب سنة ٢٥٤هـ[2]، ودفن في داره هناك، حيث مزاره الشريف الآن.

❀ ❀ ❀

(١) الرسالة بنصها في تحف العقول: ٣٤١ ـ ٣٥٦.

(٢) تاريخ الولادة والوفاة من الإرشاد: ٣٥٢.

الإمام الحادي عشر
الحسن بن علي(ع)

المشهور بلقبه «العسكري»، نسبة إلى «العسكر» اسم من أسماء سر من رأى.

ولد بالمدينة المنورة في شهر ربيع الآخر سنة ٢٣٢هـ.

عاصر ـ خلال أيام حياته ـ من حكام عصره كلاً من:

الخليفة المعتز: ولم تحدث له مع الإمام أية مواقف تتسم بالتوتر، وذلك لانشغال الخليفة بمشاكل الجنود الأتراك الذين كانوا يهيمنون على الدولة وينشرون في أرجائها الفوضى والخراب، حتى آل الأمر بهم إلى اعتقال الخليفة وخلعه.

الخليفة المهتدي: وكانت علاقته بالإمام حسنة، نتيجة لما عرف به هذا الخليفة من ابتعاد عن شرب الخمر ومجالس الطرب، وتظاهر بالصلاح والتقشف.

الخليفة المعتمد: وكان شديداً وعنيفاً على آل البيت (ع).

وقد سجن الإمام خلال عهد المعتمد فترة من الزمن، ثم اضطر الخليفة إلى إطلاق سراح الإمام عندما أحرجه رؤساء النصارى في موقف لهم معه روته بعض المصادر التاريخية، فالتجأ إلى الإمام ليقوم بإفحام هؤلاء وكشف زيفهم أمام جماهير المسلمين.

وكان للمعتمد دور غير مشرف عندما بلغه نبأ وفاة الإمام، حيث أمر شرطته بالبحث عن «محمد» المهدي بن الإمام العسكري، مستغلاً في هذه القضية جعفر بن علي عم المهدي بما أغدق عليه من مال ومناه من جاه، ليعينه على الفحص عن ابن أخيه. ولكن الطرفين لم ينجحا في ما أراداه، فاختفى الإمام المهدي عن أعين أعدائه وأنجاه الله من كيد الكائدين.

وعلى الرغم من شدة ظروف الإمام وحراجتها، فقد روى عنه الرواة شيئاً غير قليل من العلم النافع والوجيه الهادي والمعرفة الواعية الصادقة.

توفي ـ سلام الله عليه ـ في سر من رأى في اليوم الثامن من شهر ربيع الأول سنة ٢٦٠هـ[1]، ودفن بها بجوار أبيه في دارهما الخاصة.

(١) تاريخ الولادة والوفاة من الإرشاد: ٣٦٠.

الإمام الثاني عشر
محمد بن الحسن(ع)

المعروف بلقبيه «المهدي» و«القائم المنتظر».

ولد في سامراء عند الفجر من اليوم الخامس عشر من شهر شعبان سنة ٢٥٥هـ.

اختفى عن أعين السلطة الحاكمة عندما طلبته وأمعنت في البحث عنه، إثر وفاة أبيه.

اختار له ـ خلال فترة اختفائه الأولى ـ وسطاء مخصوصين يتصلون به ويحملون إليه رسائل شيعته وأسئلتهم، ويتسلمون منه الأجوبة عليها، فيوصلونها لأصحابها.

وعندما أصبح ـ على ما فيه من تخف وكتمان ـ معرضاً للخطر أيضاً، أنهى هذه الوساطة فانقطعت الصلة المباشرة ـ بكل أطرافها ـ بينه وبين أوليائه.

وسيظهره الله تعالى بعد طول الغياب فيملأ به الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، على ما بشر به جده رسول الله (ص) في نصوص كثيرة، مثل قوله:

«إن علياً وصيي، ومن ولده القائم المنتظر المهدي، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً».

وقوله (ص):

«ابشروا بالمهدي، رجل من قريش، من عترتي، يخرج في اختلاف من الناس وزلزال، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً»[١].

وبالنظر إلى أهمية موضوع المهدي، فقد أفردنا لذلك كتاباً قسّمنا فيه الحديث إلى ثلاث مراحل: تُعنى أولاها باستعراض فكرة «المهدية» ومدى ارتباطها بالإسلام، وتتجه ثانيتها إلى تعيين «المهدي» في المأثور من النصوص النبوية المتفق عليها بين المسلمين، وتبحث الثالثة موضوع إمكان الغيبة وما دل عليه. ومن شاء التفاصيل فليرجع إلى الكتاب المشار إليه.

❀ ❀ ❀

وبعد:

فهذه هي «الإمامة» كما أرشدنا إليها العقل وكما صرح بها النقل.

وهذه هي «النصوص» بكل ما تحمله من صراحة وتحديد ووضوح.

وهؤلا هم «الأئمة» بتراثهم العظيم وتاريخهم المعطر وسيرتهم الفواحة.

فهل يرى القارىء في التشيع لهم والسير على هداهم ومواضع خطاهم خروجاً على الإسلام واتباعاً لليهود؟!

وهل يصح أن يقال ـ على ضوء ما مر ـ أن التشيع قد ظهر في أيام

---

(١) الحديث الأول في ينابيع المودة: ٤٤٨، والثاني في الصواعق المحرقة، ٩٩، وبمضمونها أحاديث يجدها القارىء في سنن أبي داوود، ٢/ ٤٢٢ والحاوي ٢/ ١٢٤ ـ ١٢٥.

خلافة عثمان بن عفان وإبان ثورة المسلمين عليه، على يد يهودي اعتنق الإسلام لهدم الإسلام، يُدعى عبد الله بن سبأ؟!

وهل لعبد الله بن سبأ وجود في التاريخ حتى ينسب إليه تأسيس التشيع ووضع أصوله؟!

إن الدكتور برنارد لويس قد اعتبر ابن سبأ صورة قائمة على التخيل، وأكد أن ما نسب إليه من أدوار إنما هو من اختلاق المتأخرين[١].

وإن الدكتور طه حسين قد شك في كل ما نسب إلى ابن سبأ من وقائع وأحداث، وعلق على روايات المؤرخين قائلاً: «وما أكثر ما شنع خصوم الشيعة على الشيعة»[٢].

وإن الدكتور جواد علي قد ذهب إلى الشك في أخبار ابن سبأ لأن روايتها منحصرة بسيف ابن عمر دون غيره، وسيف هذا مطعون فيه وفي رواياته[٣].

وإن الدكتور علي الوردي قد رجح أن يكون ابن سبأ لقب أطلقه الحكم الأموي على الصحابي الجليل عمار بن ياسر، وسرد عدة قرائن تؤيد هذا الترجيح[٤].

ثم جاء الأستاذ أحمد عباس صالح أخيراً فأكد «سخافة التفكير في احتمال وجوده»، وقال في خلال حديثه عنه ما نصه:

---

(١) أصول الاسماعيلية: ٨٦ ـ ٨٧.

(٢) الفتنة الكبرى: ١/ ١٣١ ـ ١٣٤.

(٣) مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثالث ـ الجزء الأول ـ ص٥٣.

(٤) وعاظ السلاطين.

«وعبد الله بن سبأ شخص خرافي بغير شك... وساذج بغير شك التفكير الذي يتجه إلى خلق شخصية خرافية كهذه ليعطيها أي أثر فيما حدث من أحداث»، و«إن كل ما حيك من قصص حول عبد الله بن سبأ هو من وضع المتأخرين، فلا دليل على وجوده في المراجع القديمة فضلاً عن سخافة التفكير في احتمال وجوده أصلاً»[١].

وإذا كان ابن سبأ ـ كما أسلفنا ـ شخصية خرافية لم يعرفها التاريخ، فمن أسس التشيع، إذن؟ ومن كان أول من استعمل هذه الكلمة؟

والجواب:

إنه محمد بن عبد الله (ص) نفسه.

فقد أخرج الطبري والحافظ بن حجر عن شيوخهما الحفاظ المشاهير: أن النبي (ص) تلا يوماً قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]، ثم التفت إلى علي بن أبي طالب (ع) قائلاً: هم أنت وشيعتك[٢].

وإذا كان محمد بن عبد الله (ص) هو أول من استعمل هذه الكلمة وعنى بها أتباع علي بالذات، فلن يضيرها تضبيب المغرضين، وتشكيك المشككين، وأقاويل المتقولين.

❀ ❀ ❀

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) اليمين واليسار في الإسلام: ٩٦.

(٢) تفسير الطبري: ٣٠/ ٢٦٥، والصواعق المحرقة: ٩٦، ويراجع النهاية لابن الأثير: ٣/ ٢٧٦ وتفسير الدر المنثور للسيوطي: ٦/ ٣٧٩.

المصادر والمراجع

١ ـ **الأحكام السلطانية**، الماوردي، القاهرة «طبعة صبيح».

٢ ـ **الإرشاد**، للمفيد، طهران ١٣٠٨هـ.

٣ ـ **الاستيعاب**، لابن عبد البر، القاهرة ١٣٥٨هـ.

٤ ـ **أسد الغابة**، لابن الأثير، القاهرة ١٢٨٠هـ.

٥ ـ **أشعة من حياة الصادق (ع)**، مجلة الغري، النجف ١٩٤٩م.

٦ ـ **أصول الاسماعيلية**، لبرنارد لويس، القاهرة ١٩٤٧م.

٧ ـ **أصول الكافي**، للكليني، طهران ١٣٧٥هـ.

٨ ـ **الإمام الصادق ملهم الكيمياء**، للدكتور محمد يحيى الهاشمي، سوريا ١٩٥٨م.

٩ ـ **أهل البيت**، لتوفيق أبو علم، القاهرة ١٣٩٠هـ.

١٠ ـ **البداية والنهاية**، لابن كثير، القاهرة ١٣٥١هـ.

١١ ـ **تاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي، بيروت «طبعة مصورة».

١٢ ـ **تاريخ الطبري**، القاهرة ١٩٦١م.

١٣ ـ **تحف العقول**، لابن شعبة الحراني، النجف ١٣٨٣هـ.

١٤ ـ **تفسير الطبري**، القاهرة ١٣٧٣هـ.

١٥ ـ **جامع الأصول**، لابن الأثير، طهران «طبعة مصورة».

١٦ ـ **الحاوي**، للسيوطي، القاهرة ١٣٧٨هـ.

١٧ ـ **حلية الأولياء**، لأبي نعيم، بيروت «طبعة مصورة».

١٨ ـ **الدر المنثور**، للسيوطي، طهران «طبعة مصورة».

١٩ ـ **سن ابن ماجه**، القاهرة ١٣٧٢هـ.

٢٠ ـ **سنن أبي داود**، القاهرة ١٣٧١هـ.

٢١ ـ **سنن الترمذي**، القاهرة ١٣٨٢هـ.

٢٢ ـ **صحيح البخاري**، القاهرة «محمد علي صبيح».

٢٣ ـ **صحيح مسلم**، القاهرة «محمد علي صبيح».

٢٤ ـ **الصحيفة السجادية**، للإمام السجاد(ع)، طهران ١٣٦١هـ.

٢٥ ـ **صلح الحسن**، للشيخ راضي آل ياسين بغداد ١٣٨٤هـ.

٢٦ ـ **الصواعق المحرقة**، لابن حجر، القاهرة ١٣١٢هـ.

٢٧ ـ **عقيدة الشيعة**، لدونالدسن، القاهرة ١٩٤٦م.

٢٨ ـ **الغدير**، للشيخ عبد الحسين الأميني، النجف ١٣٦٥هـ.

٢٩ ـ **فتح القدير**، للشوكاني، القاهرة ١٣٨٣هـ.

٣٠ ـ **الفتنة الكبرى**، للدكتور طه حسين، القاهرة ١٩٤٨م.

٣١ ـ **الفصول المهمة**، لابن الصباغ المالكي، النجف ١٩٥٠م.

٣٢ ـ **الكامل**، لابن الأثير، القاهرة ١٣٥٣هـ.

٣٣ ـ **لسان العرب**، لابن منظور، بيروت ١٩٥٥م.

٣٤ ـ **مجلة البلاغ**، السنة الثالثة، بغداد ١٣٨٧هـ.

٣٥ ـ **مجلة المجتمع العلمي العراقي**، المجلد الثالث، بغداد ١٣٧٣هـ.

٣٦ ـ **المحاسن والمساوئ**، للبيهقي، القاهرة ١٣٨٠هـ.

٣٧ ـ **مروج الذهب**، للمسعودي، القاهرة ١٣٥٧هـ.

٣٨ ـ **مطالب السؤول**، لابن طلحة الشافعي، النجف ١٣٧١هـ.

٣٩ ـ **مفاهيم إسلامية**، [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/ المؤلفات]، بيروت.

٤٠ ـ **المقدمة**، لابن خلدون، القاهرة ١٣٤٨هـ.

٤١ ـ **المناقب**، لابن شهر آشوب، طهران ١٣١٧هـ.

٤٢ ـ **منهاج السنة**، لابن تيمية، القاهرة ١٣٠٣هـ.

٤٣ ـ **النبوة**، [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/ المؤلفات]، بيروت.

٤٤ ـ **نزهة المجالس**، للصفوري، القاهرة ١٣٥٤هـ.

٤٥ ـ **نظرية الإمامة**، للدكتور محمد صبحي، القاهرة ١٩٦٩م.

٤٦ ـ **النهاية**، لابن الأثير، القاهرة ١٣١١هـ.

٤٧ ـ **وعاظ السلاطين**، الدكتور علي الوردي، بغداد ١٩٥٤م.

٤٨ ـ **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، القاهرة ١٩٤٨م.

٤٩ ـ **اليمين واليسار في الإسلام**، لأحمد عباس صالح، بيروت ١٩٧٢م.

٥٠ ـ **ينابيع المودة**، للقندوزي، استانبول ١٣٠٢هـ.

المعاد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾

[سورة التغابن: ٧].

﴿ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

[سورة الجاثية: ٢٦].

صدق الله العلي العظيم

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين.

❀ ❀ ❀

هذا الإسلام العظيم بكل ما طلع به على البشرية من أحكام وتكاليف؛ وبكل ما ضمت حناياه من طلبات الفعل أو الترك؛ وبكل ما هدف إليه من بناء الحياة على أسس متينة من العلاقات العامة: علاقة الفرد بمجتمعه؛ وعلاقة المجتمع بأفراده؛ وعلاقة الجميع بالدولة؛ وعلاقة هذه الدولة بشعبها، ثم ـ وعلى رأس هذه العلاقات ـ علاقة الإنسان بربه ومنهجه السلوكي في العبادة والتقرب.

هذا الإسلام الخالد بكل ما تضمنه من تلك الأحكام والتكاليف والنظم والتعاليم؛ هل ترك للمسلم مجال التنفيذ والعمل قائماً على الحرية والاختيار، فيستجيب لها إن شاء ويمتنع عنها إن شاء؟. أم جعل لها طابعاً إلزامياً لا يجوز التغافل عنه والتهاون فيه وفرض ـ لضمان الإلزام والتنفيذ ـ على مخالفي تلك التكاليف من العقوبات والآثار ما يبعث المسلم على الإطاعة المطلقة والتطبيق الحرفي الكامل؟

وإذا كانت تلك الأحكام ملزمة للمسلم كل الإلزام، فهل ينحصر دور العقوبة في تلك المخالفات التي تصل إلى علم السلطة فتفرض على مرتكبيها ما نص عليه قانون الجنايات في مثل هذه الحالات؛ ثم ينتهي الأمر عند هذا الحد فقط؟

وكيف يكون الموقف من الجرائم والمخالفات التي تقع سراً فتخفى معالمها وتضيع خيوطها فلا يعلم بها أحد ولا يطالها قانون؟.

وما هو الموقف من تلك المخالفات التي لا تمس أحداً من الناس ليتصدى لها من يبلِّغ عن وقوعها ويقيم الدليل على جريمة مرتكبها، بل كل ما فيها أنها عصيان لأمر من أوامر الله تعالى في فعل من أفعال الصلاة أو حكم من أحكام الصوم مثلاً؟

وحتى تلك المخالفات التي يقام فيها الحد على فاعلها أو تستوفي الدية منه؛ هل يترتب عليها حق لله تعالى «وهو ما سمِّي بالحق العام في مصطلح القانون الوضعي»، أم أن الحد أو الدية كافيان في تبرئة ذمة الفاعل من أي حق آخر؟.

وهذا المسلم الذي يخلص في الإطاعة فيحرم نفسه من كثير من لذاتها وشهواتها ورغباتها ونوازعها، امتثالاً لأمر الله تعالى وتقرباً إليه، كالصائم يستبد به الجوع والعطش فلا يأبه بهما، وكالبائع يستطيع تطفيف الميزان أو غش السلعة فلا يفعلهما، وكأمثالهما ممن يقدر على فعل الحرام فيتعفف عنه ويطوي دونه كشحاً.

هذا المسلم الذي يفرض على نفسه مثل هذا الحرمان الكبير هل تكون ثمرة حرمانه أنه أطاع ربه فأحسن بذلك وليس من شيء آخر وراء ذلك، أم أن هنالك تعويضاً يشعر الإنسان المعوض من خلاله بأن ما فاته من رغبات الحياة الدنيا لم يكن خسارة بالمعنى المادي للخسارة؛

وإنما كان نوعاً من الادخار والتوفير، حيث يتسلم في يوم ما تلك المدخرات الكثيرة وبكل ما يترتب عليها من منافع وفوائد، فيحس حينذاك بالراحة والطمأنينة ويندفع نحو عملية التوفير بكل حماس وإخلاص؟.

وإذا صح هذا التعويض الذي أشرنا إليه فمتى يقع؟ وكيف يكون؟.

لا بد أن يكون ذلك بعد أن يستوفي الإنسان كل عمره وسائر أيام حياته ليتضح مدى استحقاقه للتعويض ـ في حالة الإنابة والطاعة ـ وللعقوبة والمؤاخذة ـ في حال التمرد والمعصية..

وبالتعبير الفلسفي الذي عبر به صدر الدين الشيرازي فإن ذلك يكون: «إذا استوفى الإنسان جميع المراتب الخلقية الواقعة في حدود حركته الجوهرية الفطرية؛ من الجمادية والنباتية والحيوانية، وبلغ أشده الصوري وتم وجوده الدنيوي الحيواني، فلا بد أن يتوجه نحو النشأة الآخرة ويخرج من القوة إلى الفعل ومن الدنيا إلى الأخرى»[1].

وإذن. فلا بد أن يكون هناك عود بعد الموت للحساب والمحاكمة ليقرر له ما يستحق من خير أو شر جزاءً على ما أسلف من فعل وما قدم من عمل.

ولكن. هل يمكن ذلك؟ وما هو الدليل عليه؟ وهل يستطيع الإنسان الحصيف العاقل أن يؤمن بإمكان العود بعد الموت؛ لغرض المثول للحساب وتحديد الاستحقاق من ثواب أو عقاب.

ذلك ما ستعنى هذه الرسالة بشرحه وبيانه؛ بأمل توضيح المسألة وتبسيطها أمام القارىء المتطلع، مع الالتزام ـ خلال ذلك كله ـ بسلاسة

(١) الأسفار، السفر الرابع: ٢/ ١٥٩.

العبارة، وجلاء الفكرة، ويسر العرض، والابتعاد عن مصطلحات الفلسفة وما تضمنته من غموض وتعقيد.

وكل رجائي أن تكون هذه الصفحات وافية بالغرض، محققة للقصد، واضعة للنقاط على الحروف في شرح هذه المسألة وتبيانها على حقيقتها الأصيلة الناصعة.

وكلمة يجب أن تقال:

قد ينتظر القارىء مني ـ وأنا أتحدث عن هذا الأصل المهم من أصول الإسلام ـ أن يكون بحثي فيه عقلياً محضاً متفتحاً للأخذ والرد؛ على النحو الذي نبحث فيه المسائل الفلسفية الخالصة ونحدد الموقف منها بكل ما تعطيه حرية الرفض والقبول.

ولكن الحقيقة ـ هنا ـ تفرض علينا منهجاً آخر يختلف عن هذا المتوقع بعض الاختلاف.

ذلك لأننا نعيش مسألة المعاد بأجمعها في داخل إطار العقيدة وحدود الشريعة، ومن الضروري لنا ـ والحال هذه ـ أن نعتمد النص الإلهي «القرآن الكريم» فكراً ومنهجاً ودليلاً، ونرجع إليه كلما أردنا اختيار الراجح أو المتعين من المحتملات المطروحة للبحث والمناقشة، على أن لا نخرج ـ في مجموع ذلك ـ عن تلك الدائرة الثابتة المحددة التي لا يصح تجاوزها بأي وجه من الوجوه.

وليس في هذا الالتزام أي عيب أو غرابة أو مناقضة لحكم العقل، بل ربما يكون هو النتيجة المنطقية الوحيدة التي لا مناص من القول بها والسير على هداها ما دام يفرضها التدرج في الإيمان بأصول العقيدة، ويجعلها «منهجية» بكل معنى الكلمة ومنسجمة مع نفسها إلى أبعد الحدود.

لقد آمنا بالله تعالى خالقاً وموجداً، ولم يكن لنا من دليل على هذا الإيمان سوى العقل؛ والعقل وحده[١].

وآمنا ـ تفريعاً على ذلك ونزولاً على حكم الدليل ـ بعدله المنزه عن الهوى والكذب والظلم وسوء القصد[٢].

ثم آمنا ـ تفريعاً على ذلك أيضاً ونزولاً على حكم الدليل ـ بالنبوات العامة؛ والنبوة الخاتمة بما فيها من وحي وتشريع[٣].

وبإيماننا بهذه المراحل المتدرجة واحدة تلو أخرى يكون البحث العقيدي في «المعاد» مرحلة تالية لتلك المراحل السابقة، لأنه يعتمد على الإيمان بالله الخالق العادل أولاً، وبالنبي الصادق المصدَّق ثانياً، وبالكتاب الإلهي المنزل ثالثاً، ولن يبقى حينذاك ما يدعو إلى التعجب لو التزمنا بأن يكون الحديث المرتبط بالعقيدة دائراً ـ بالضرورة ـ في حدود هذا الكتاب وإطاره الخاص؛ باعتباره وحياً من الله تعالى إلى نبيه الأكرم (ص).

ومع ذلك كله فإننا في مسيرتنا في هذا الموضوع سوف لن ننأى عن العقل وحجته وبرهانه، بل سوف نتجه إليه ـ بتكريم بالغ ـ لنسأله عن مدى قناعته بمسائل المعاد من حيث كونها مستحيلة أو ممكنة، ومن حيث كونها مما يستطيع العقل تصور وقوعها أو لا يستطيع. ومن حيث انسجام ذلك مع خط العقيدة أو عدم انسجامه. وبذلك يصبح المجموع في خلاصته مزيجاً رائعاً من التعبد الحرفي بالنص؛ والسير على هدى العقل، بلا إفراط أو تفريط في حق أي من الجانبين.

---

(١) يراجع «الله بين الفطرة والدليل» [في ص ١٧ من هذا المجلد].

(٢) يراجع «العدل الإلهي بين الجبر والاختيار» [في ص ٧٣ من هذا المجلد].

(٣) يراجع «النبوة» [في ص ١١٣ من هذا المجلد].

وصدق الله العلي العظيم حيث يقول:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٨، ٤٩]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٤١].

❀ ❀ ❀

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

العراق ـ بغداد

محمد حسن آل ياسين

حتمية المعاد

لا مناص للباحث الموضوعي المخلص في مسألة «المعاد» أن يقف في المرحلة الأولى من مسيرة بحثه عند فكرة «المعاد» مجردة من كل ما يرتبط بها من شروح وتفاصيل، ليتثبت من مدى ضرورتها وحتميتها في عالم العقيدة، ويتعرف بأسباب هذه الحتمية والضرورة ودلائلها الدينية.

وإذا استطاع الباحث إقامة البرهان على هذه الضرورة كان بإمكانه الانتقال إلى مراحل البحث الأخرى واستيفاء الحديث عنها، وذلك لأن الإقرار بهذه المرحلة يشكل الأرضية الأساسية التي لا مناص من وجودها قبل الإقرار بما يترتب على ذلك من شؤون؛ وما يتفرع عنه من تفاصيل.

ولن نستطيع الوصول إلى النتيجة المنشودة إلا بالتدرج نحوها على خطوات ترتبط كل لاحقة بسابقتها برباط وثيق يكشف لنا الغطاء ويجلو وجه الحقيقة:

١ ـ هل أمر الله تعالى ونهى؟

لا أظن أن هناك من ذوي الوعي من لا يدرك ـ حق الإدراك ـ أن الله تعالى قد أمر ونهى؛ وأن الشريعة الإسلامية عبارة عن مجموعة ضخمة من الأوامر والنواهي.

وإن قراءة سريعة في القرآن الكريم تعطينا الدليل القاطع على ذلك، قال تعالى:

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤].

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧].

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١].

﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٥].

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢].

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: ١٢].

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥].

﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢].

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١].

وإلى سائر ما شاكل ذلك من الآيات المباركة الحافلة بالأوامر والنواهي الإلهية.

وإذن. فليس هناك أدنى شك في أن الله تعالى قد أمر ونهى.

٢ ـ هل كانت هذه الأوامر والنواهي إلزامية أو إرشادية؟

لقد فرغ علم أصول الفقه من بحث هذه المسألة بالتفصيل، وكانت

خلاصة البحث في معنى الأمر أنه «دال على الوجوب وظاهر فيه فيما إذا كان مجرداً وعارياً عن قرينة على الاستحباب» وإن «الوجوب يستفاد من حكم العقل بلزوم إطاعة أمر المولى ووجوب الانبعاث عن بعثه قضاءً لحق المولوية والعبودية». كما كانت الخلاصة في النهي أن كلمته «ككلمة الأمر في الدلالة على الإلزام عقلاً... وظاهرة في الحرمة» وأن صيغة النهي «إذا صدرت ممن تجب طاعته.. كان مقتضى وجوب طاعة هذا المولى وحرمة عصيانه عقلاً ـ قضاء لحق العبودية والمولوية ـ عدم جواز ترك الفعل الذي نهى عنه»[1].

وكيف لا يكون الأمر كذلك والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] ويقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وإذن. فلا مناص من القول بأن الأوامر والنواهي الإلهية إلزامية بكل معنى الكلمة؛ ولا مجال فيها لاختيار وترخيص.

٣ ـ ماذا يترتب على مخالفة الأوامر والنواهي؟:

وإذا كان الله تعالى قد أمر ونهى، وكانت أوامره ونواهيه إلزامية لا يجوز مخالفتها والتمرد عليها، فهل يترتب على هذه المخالفة شيء من العقوبة والتعذيب ـ بالمعنى المادي ـ أم أن المسألة لا تتعدى الآثار الأدبية والمعنوية للمخالفة فقط؟

وحسبنا في الجواب على هذا السؤال أن نستعرض الآيات القرآنية التالية لنقف على نتائج المخالفة لأمر الله ونهيه. يقول تعالى:

---

(١) أصول الفقه للمظفر: ١/ ٥٥ و٥٩ و٨٩ و٩٠.

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: ١٣].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطلاق: ٨].

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥].

وإذن. فلا مندوحة من القول بترتب العقوبات البدنية على كل مخالف للأوامر والنواهي الإلهية التي تشكل بمجموعها ما نطلق عليه اسم «الشريعة الإسلامية».

٤ ـ هل الوعد والوعيد الإلهي حقيقي أم لغرض الحث على الطاعة؟

بلغني أن هناك من يقول: إن تكرار القرآن لذكر العود بعد الموت؛ حيث وعد الله بإثابة المطيعين وأوعد بتعذيب العصاة؛ إنما هو من باب الترغيب والترهيب المحض، لكي يندفع الناس إلى الطاعة ويبتعدوا عن المعصية، من دون قصد حقيقي إلى المعنى المادي للنعيم والعذاب. وكأن هذا القائل قد انطلق في قوله هذا من اعتقاده بأن الجسم ينعدم ويتلاشى بالموت فلا يمكن إعادته بعد ذلك لاستحالة إعادة المعدوم، وحينئذٍ فلا يبقى مجال للنعيم والعذاب بمعناهما المادي، ويصبح الوعد والوعيد بهما مجرد تهديد خال من أي معنى من معاني التنفيذ.

والحقيقة أننا عندما نقرأ القرآن الكريم ـ وقد أنزله الله بلسان عربي مبين ـ ونحن أبناء لغته وأعرف بموارد الاستعمال ودلالات الألفاظ، لا نرى أي مسوغ يسمح لنا بحمل اللفظ على خلاف ظاهره ومدلوله إذا جاء مجرداً عن القرينة الدالة على إرادة ما يخالف الظاهر.

وإذا كانت الألفاظ المستعملة في مقام التخاطب القرآني قد وردت مجردة عن القرينة المجوزة للتأويل وجب حملها على المعنى الحقيقي الأصيل، ولا يسوغ لنا مطلقاً أن نحملها على المجاز أو المبالغة أو التهويل أو المواعيد الكاذبة المرغبة.

ونورد ـ فيما يلي ـ بعض الآيات الشريفة التي تعنى بذكر البعث والمعاد وتؤكد وقوع ذلك كل التأكيد لنقف على صراحتها المطلقة الآبية عن التقييد والتأويل، ووضوحها الناصع الذي لا يقبل أي معنى من معاني اللف والدوران:

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الإسراء: ٩٩].

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦].

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى

﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ [النبأ: ١٧].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٣٩].

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٧٠].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ * لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ: ٣، ٤].

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٨، ٣٩].

﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٨، ١٩].

إذن، فما هي النتيجة؟

فإذا كان الله تعالى قد أمر ونهى.

وكانت أوامره ونواهيه إلزامية.

وكانت مخالفة هذه الأوامر والنواهي توجب العقوبة.

وكانت العقوبة عقوبة مادية بمعناها الخاص وليست للتخويف الكاذب.

فلا بد أن نقول: بأن المعاد ضروري لا مفر ـ للمسلم ـ من القول به والإيمان بضرورته وقطعية وقوعه.

وهذا هو الذي دلتنا عليه الآيات المباركة المارة الذكر، بما صرحت به من أن المعاد أمر ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو ﴿ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا يستأخر عنه الناس ساعة ولا يستقدمون، وأن الغرض منه هو الحساب والمحاكمة حيث توفي ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾؛ على ضوء كتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] إذ تجد فيه ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾، وحينذاك سيكون المجرمون ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾.

وإن الوعد الإلهي بالمعاد وعد ﴿عَلَيْهِ حَقًّا﴾ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وإن الذين زعموا ﴿أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ ولا تأتيهم الساعة كفار وكاذبون، و﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [المطففين: ١٠ ـ ١٢]، صدق الله العلي العظيم.

❀ ❀ ❀

وعندما نصل بتسلسل الحديث إلى هذه النتيجة؛ يكون من الضروري ـ لكي يستوفى البحث كل جوانبه ـ أن نقف هنا لحظات لنحدد على وجه الدقة واليقين ماهية «الشيء» الذي سيعود:

«روح» مجردة.. كما زعم القائلون باستحالة عودة الجسم؟؟.

أم «جسم» فقط. كما قال الجبائي وتابعوه «حيث إن الروح جسم أيضاً»؟؟

أم «روح بجسم» كما يؤمن كثير من المفكرين المسلمين؟؟

إن المتبادر إلى الذهن والفهم من سياق الآيات القرآنية المعنية بهذا

الموضوع أن العودة ستكون بالجسم الحي الحساس المدرك للذة النعيم وألم العقاب؛ أي «الجسم ذو الروح» بكل ما يتمتع به من أجزاء وخصائص وميزات. وإن تلك الآيات من جلاء الدلالة والقصد ووضوح المعنى واللفظ ما تأبى أي تمحل أو تأويل قد يلجأ إليه المتمحلون والمتأولون، بل لعلها من الصراحة في الدلالة ما لا يمكن معها «التبطين» واللف والدوران بأي نحو من الأنحاء.

قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ١٩ ـ ٢٢].

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٣، ٤].

إن القراءة الفاحصة لهذه الآيات تدلنا أوضح الدلالة وأشدها صراحة على أن العودة ستكون «بالجسم والروح» على المعتاد: سمع. أبصار. جلود. أفواه. أيدي. أرجل. عظام. إحساس بالألم والتعذيب. وذلك مما لا يتحمل أي وجه من وجوه الاحتمالات والتأويلات والشكوك.

وهنا يجب أن لا يفوتنا التريث قليلاً عند الآيتين الأخيرتين لنقف

على تلك اللمحات العلمية التي أشارت إليها الآيتان المذكورتان وعلى تلك الحقائق التي نبهتا عليها قبل أن يكتشفها العلم الحديث بقرون وقرون، مما يمكن أن نعتبره من أبرز دلائل الإعجاز في هذا الكتاب المعجز الخالد.

إن الآية الأولى تذكر لنا تعذيب الكفار بالنار وتضيف إليه ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، فلماذا هذا التبديل؟

إن السبب في ذلك ما يذكره الطب الحديث من «أن أعصاب الألم هي في الطبقة الجلدية، وأما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية فالإحساس فيها ضعيف، ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذي لا يتجاوز الجلد يحدث ألماً شديداً، بخلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز إلى الأنسجة، لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألماً كثيراً، فالله تعالى يقول لنا: «إن النار كلما أكلت الجلد الذي فيه الأعصاب نجدده كي يستمر الألم بلا انقطاع ويذوقوا العذاب الأليم. وهنا تظهر حكمة الله قبل أن يعرفها الإنسان وكان الله عزيزاً حكيماً»[1].

أما الآية الثانية فهي التي تنكر على غير المؤمنين بالمعاد عدم اعتقادهم به، ثم تؤكد المعاد ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٤] فما هي خصوصية البنان؟

يقول العلم الحديث:

«إن البنان هو التنظيم الهندسي الرائع العجيب الموجود في خطوط الأنامل ـ رسوم خطوط الأصابع البشرية ـ، وإن كل إنسان يملك رسوماً وأشكالاً هندسية تختلف تمام الاختلاف عن الشخص الثاني مهما كان

(١) الإسلام والطب الحديث: ٦٦.

قريباً إليه في الدم أو العرق أو النسب، فلا يوجد في المجتمع البشري العالمي شخصان تتشابه خطوط أصابعهما.

وفي دراسة أنامل الإنسان لأول مرة عام ١٨٨٤م دراسة دقيقة بعد اختراع العدسات المكبرة استطاع العلم أن يثبت أن لكل إنسان خارطة معينة الشكل دقيقة الأجزاء من الخطوط المنتظمة التي قد أخذت رونقاً زخرفياً خاصاً في بشرة أصابعه، ممثلة شخصيته السرية التي أودعتها القدرة الإلهية السامية في أنامله.

إن هذه الخطوط تكون بارزة وذات ثنايا محفورة حادة الشكل؛ بحيث تظهر كافة أجزائها الدقيقة ورسومها وتلافيفها على الورقة إذا ما طليت سطوح الأصابع بالحبر وضغطت على الورق. كذلك تنطبع هذه الخطوط بصورة ثابتة فوق سطوح المعادن الصقيلة والزجاج والخشب الأملس نتيجة احتواء بشرة الأنامل على الغدد العرقية والدهنية.

وقد أفادت الإحصاءات العالمية الحديثة لبحوث علم خطوط الأصابع أن في كل أربعمائة مليون شخص قد يعثر على علامة واحدة تشير إلى التشابه الجزئي ولكن غير الكامل بين شخصين، إلا أن التشابه لا يكون في درجة من التناظر والانطباق الكامل.

وقد فتحت اليوم معاهد علمية خاصة في أنحاء العالم المعاصر لدراسة علم خطوط الأصابع، لتثبيت هويات الأشخاص في المعاملات وفي حوادث الإجرام والسرقة، حيث إنه لمجرد مسك الزجاج أو قبضة السلاح أو أية آلة فإنها تترك عليها آثارها الثابتة، وإن هذه الآثار تطبع على الورق بطرق خاصة لتثبيتها ودراستها وتكبيرها من أجل مقارنتها بخطوط أصابع المتهمين والمشبوهين.

ومن العجيب جداً أن هذه الأشكال الهندسية المنتظمة لخرائط

الأنامل البشرية تبقى ثابتة من أول ساعة الولادة ومدى الحياة، حيث لا تتأثر أسسها الثابتة بنمو الجسم، بل تكبر وتتوسع أطرافها دونما تحريف أو تغيير، وكأنها موضوعة تحت عدسة مكبرة عند المقارنة بين الخارطتين في أيام الطفولة ووقت الكبر، وتلاحظ أنها نسخة طبق الأصل تماماً.

ومن المدهش حقاً أن خارطة خطوط الأصابع عندما تصاب بالتلف نتيجة تآكلها وقت العمل أو عند الجروح والالتهابات والحروق السطحية؛ تنمو أنسجة البشرة لتعيد نفس الخارطة الأصلية بكافة أجزائها ودقتها الخارقة ومميزاتها الهندسية والتواءاتها الزخرفية وكأن يداً خفية تأمر كل خلية لتنمو باتجاه معين وترسم صورة طبق الأصل للخطوط المتهدمة دونما خطأ أو اختلاف.

ولقد أثبتت علوم ودراسات خطوط الأصابع أن أشكال خرائطها الهندسية وخطوطها المزخرفة تعود إلى أربع فصائل أساسية:

١ ـ فصيلة الخطوط المتقوسة.

٢ ـ فصيلة الخطوط العراوية.

٣ ـ فصيلة الخطوط الدوامية؛ ذات الدوائر المتحدة المركز والمتداخلة مع بعضها والتي يكبر حجمها بالتدريج من الداخل إلى الخارج وهي تشترك بمركز واحد في الوسط.

٤ ـ فصائل المركبات، وهي عبارة عن خليط من خطوط الفصائل الثلاثة المتقوسة والعراوية والدوامية، حيث تكون متحدة مع بعضها بشكل معقد عجيب.

إن رسوم الأصابع اليوم تلعب دوراً خطيراً في عالم الجرائم والسرقات وتثبيت الأشخاص في كافة أنحاء العالم، ويعود فضل

اكتشاف آلاف الحوادث ومسبّبيها إلى هذا السر الإلهي العجيب الذي خلقه وأودعه في بشرة الأنامل في الإنسان.

ويعتبر إسلامنا العظيم أول من اكتشف هذا السر الغريب في الأجسام البشرية المعقدة، عندما أشار القرآن الكريم إلى ذلك منبهاً الأذهان إلى أهمية هذا الخلق المنظم في أنامل الإنسان وإلى اختصاص كل إنسان بخريطته الهندسية الخاصة[1].

(١) الدكتور إبراهيم الراوي - مجلة العدل النجفية - ع ١، س٦، ص٢.

إمكان المعاد
والدليل عليه

ذكرنا في مقدمة هذه الرسالة أننا نعيش مسألة المعاد بأكملها في داخل إطار العقيدة وضمن مجالها الخاص. وأشرنا هناك إلى أن الإيمان بالمعاد مرحلة متفرعة من الإيمان بالأساس الأعظم، ونعني به الإيمان بالله تعالى خالقاً للكون ومنشأ للوجود وسبباً أعلى ترجع إليه الأسباب، من دون أن يكون لوجوده سبب أو يشاركه في إيجاده سبب.

وعندما يتحقق مثل هذا الإيمان الثابت الرصين بالله تعالى وبكونه علة الخلق ومصدر الوجود وبكون المادة إحدى مخلوقاته وإن توهم أزليتها بعض الماديين[1] فلن يكون أمام الإنسان ما يقف مانعاً عن الإيمان بالعودة والرجوع والبعث وعن الإقرار بإمكان ذلك وعدم استحالة وقوعه.

إن إيمان العقل بالفاعل الأول يفتح الطريق أمامه للإيمان بقدرة ذلك الفاعل على تكرار فعله للمرة الثانية ولآلاف المرات، وإن ذلك من البداهة ما لا يحتاج إلى مزيد توضيح واستدلال، وحسبنا في التمثيل لذلك أن نرى الإنسان الذي استطاع أن يصنع شيئاً ما ـ عقلاً ألكترونياً أو محركاً نفاثاً مثلاً ـ، فإن قدرة هذا الإنسان على تكرار صنع ذلك

---

(١) يراجع في إثبات عدم أزلية المادة ومناقشة القائلين بالأزلية: «هوامش على كتاب نقد الفكر الديني» [المجلد التاسع ـ الموسوعة، ص ٣٦١ ـ ٤٧٧].

الشيء لن تكون محل تردد أو تشكيك، ما دمنا مقتنعين بكونه الصانع الأول..

وإن صانع السيارة لو قام بتفكيك تلك السيارة إلى آلاف من القطع الصغيرة؛ ثم قال بأنه قادر على إعادتها سيارة مترابطة كما كانت؛ فليس هناك في العالم من يتصدى له ليطلب منه الدليل على هذه القدرة، وما ذاك إلا لأن فاعل الشيء أولاً قادر على فعله ثانياً وثالثاً وإلى مئات المرات وملايين المرات.

وبهذا النحو من الاستدلال على إمكان المعاد وبموجب هذا التدرج في سلم العقيدة برهن القرآن الكريم على بداهة البعث والعودة بعد الموت.

ولنستعرض بعضاً من تلك الآيات الشريفة التي عنيت ببيان هذه الحقيقة وتوضيح إمكانها لكل ذي لب ووعي وإدراك.

قال تعالى:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥١].

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧].

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١].

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [الإسراء: ٩٨، ٩٩].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٦].

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧ ـ ٦٢].

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْىِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ﴾ ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٢٠ ـ ٢٤].

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩].

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المؤمن: ٥٧].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥ ـ ٧].

﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨].

وهكذا يتجلى لنا بوضوح: ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩] كما بدأ أول خلق يعيده.

وإن النشأة الأخرى لن تختلف عن النشأة الأولى المعلومة لدينا بالعيان والبرهان.

وإن من أودع في النطفة قابلية التطور إلى.. علقة.. مضغة.. جنين.. طفل.. شاب.. شيخ.. قادر على تكرار عملية الخلق والإيجاد بعثاً وإحياء وإعادة، فـ ﴿يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] كما خلقها من قبل ولم تك شيئاً.

وليس ذلك بغريب ما دام هو سبحانه ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]؛ وهو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]؛ ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس: ٨٣] ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨].

وهذا هو منطق العقل والفطرة والوجدان؛ مبرءاً عن أية شائبة من شوائب الشكوك والريب والاحتمالات.

أما ذو الشك والريب في هذه الحقيقة الناصعة فلا نعتبره شاكاً في المعاد لندخل في نقاش فيه، بل إن شكه هذا إنما يدل على عدم صدقه في ادعائه الإيمان بكون الله تعالى هو المبدأ الأول، وحينذاك لن يحق له أن يطالب بالاستدلال على مسألة المعاد أو يزعم الإنكار لها أو عدم الاقتناع بها، وإنما يجب عليه أن يبحث عن دلائل الإيمان بالخلق الأول والخالق الأول، باعتبار أن المعاد ـ كما أسلفنا ـ هو التكرار العملي لشيء كان قد سبق صنعه ووقوعه، وعندما يتحقق الإيمان بالسالف عن قناعة ويقين فلن يكون للشك في تحقق اللاحق أي مجال أبداً.

❀ ❀ ❀

لعل هناك من يعترض على ما سلف فيقول:

إن إنكارنا للمعاد ليس إنكاراً لخلق الله تعالى وإيجاده، وإنما هو نزول على حكم العقل في استحالة العودة، بعد أن أصبح الإنسان بموته معدوماً، وبديهي أن المعدوم تستحيل إعادته، وليس من المعقول أن يطلب من الإنسان العاقل أن يؤمن بالمستحيلات!!

هذه هي خلاصة موجزة لشبهة يكثر معتنقوها ويتعدد مطلقوها، بعد أن التبس عليهم الأمر فخلطوا هذا بذاك أو غفلوا عن المعنى الحقيقي للموت والمعاد.

ولو أراد ذو الشبهة التعمق قليلاً لوقف على جلية الأمر، حيث يتضح له أن الموت في واقعه ليس انعداماً لأجزاء الإنسان، بل تفريقاً وبعثرة لتلك الأجزاء، وقد ظن بعض الناس أن الجسم بعد التفرق والتشتت معدوم لا وجود له، ولكنه في الحقيقة موجود متفرق الأجزاء والذرات، وعندما يريد الله تعالى إعادته يجمع بقدرته هذه الأجزاء المتشتتة ويؤلفها على حالها السابقة جسماً وروحاً وميزات، وذلك هو المعاد.

ويرشدنا إلى هذا المعنى خير إرشاد ما ورد في القرآن الكريم من سؤال إبراهيم الخليل (ع) ربه بقوله: (أرني كيف تحيي الموتى؟)، فكان جواب الله تعالى إياه قوله عز وجل ذكره: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠] بمعنى أن يقطعهن إبراهيم إلى أجزاء صغيرة يختلط بعضها ببعض خلطاً غير قابل للتجزئة والتمييز، ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي جزءاً من ذلك الخليط، ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ حيث يميز الله تعالى أجزاء كل طير عن صاحبه، ويجمع ما يتعلق بكل واحد منها مستقلاً عن الباقي، ويودع فيها الحياة عندما تكمل لكل طير هيئته الخاصة به.

وهذا المثل القرآني الدقيق صريح الدلالة على أن الموت تفريق للأجزاء وليس انعداماً لها كما يظن بعض المنكرين.

وإذن. فليس في الأمر أي معنى من معاني الاستحالة، وأي شبهة من شبهات الاصطدام بالامتناع العقلي كما يزعم بعض الزاعمين.

❀ ❀ ❀

لما كان المعاد ـ كما أسلفنا ـ عبارة عن عودة الناس ـ كل الناس

- بعد الموت لغرض الحساب والمحاكمة؛ ثم الإثابة والمعاقبة على ضوء نتائج هذه المحاكمة ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]. فإنه لا بد أن يسبقه فناء العالم بكل من فيه وما فيه حيث تقف حركة الحياة وتموت الأحياء ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فهل ذلك ممكن في العقول؟ وهل يستطيع العلم الحديث أن يرشدنا إلى هذا الإمكان فيما تفتحت أمامه من آفاق ومجالات لكشف المجهول والتنبؤ بشؤون المستقبل؟

١ - يقول البروفسور فرانك ألن:

«إن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً؛ وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق، ويومئذٍ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة، لا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات عندما تصل حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضي الوقت».

٢ - ويقول البروفسور إدوارد لوثركيل:

«هنالك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة. ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة. ويومئذٍ لن تكون هنالك عمليات كيماوية أو طبيعية، ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون».

٣ ـ ويقول البروفسور كلود. م. هاثاوي:

«أدرك سير إسحاق نيوتن أن نظام هذا الكون يتجه نحو الانحلال وأنه يقترب من مرحلة تتساوى فيها درجة حرارة سائر مكوناته.. وأيدت دراسة الحرارة هذه الآراء وساعدتنا على التمييز بين الطاقة الميسورة والطاقة غير الميسورة، وقد وجد أنه عند حدوث أي تغييرات حرارية فإن جزءاً معيناً من الطاقة الميسورة يتحول إلى الطاقة غير الميسورة، وأنه لا سبيل إلى أن يسير هذا التحول في الطبيعة بطريقة عكسية».

«وقد اهتم بولتزمان بتمحيص هذه الظاهرة، واستخدم في دراستها عبقريته ومقدرته الرياضية، حتى أثبت أن فقدان الطاقة الميسورة الذي يشير إليه القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية، ليس إلا حالة خاصة من ظاهرة عامة تشير إلى أن كل تحول أو تغير طبيعي يصحبه تحلل أو نقص في النظام الكوني. وفي حالة الحرارة يعتبر تحول الطاقة من الصورة الميسورة إلى الصورة غير الميسورة فقداناً ونقصاً في تنظيم الجزيء، أو بعبارة أخرى: تفتتاً وانحلالاً للبناء».

٤ ـ ويروي الفيلسوف روجيه غارودي عن المؤمنين بنظرية «الموت الحراري» قولهم:

إن العالم ستأتي عليه في يوم ما لحظة التوازن «وبدءاً من هذه اللحظة يكون العالم قد فقد فاعليته. فالطاقة المصروفة لتدويرها قد اختفت ـ كيفياً ـ على الأقل، وتظل ـ كمياً ـ سليمة ولكنها لم تعد قادرة على التحول، ولم يعد بمقدورها تسيير العالم كما لا يقدر ماء المستنقع الراكد أن يدير دولاب مطحنة».

«وهكذا تضيع في الفضاء الحرارة المنبعثة من عدد لا حصر له من شموس مجرتنا والعالم كله، دون أن تنجح في رفع حرارة العالم بأكثر من كسر عشري لدرجة تبدأ بأكثر من عشرة أصفار. وقد تمر ملايين السنين؛

وتولد وتموت مئات الآلاف من الأجيال، لكن ستحين ساعة ـ لا محالة ـ لا تكون فيها حرارة الشمس المتزايدة الانخفاض كافية لتذويب الجليد الزاحف من القطبين، ويتكدس الناس أكثر فأكثر حول خط الاستواء، ثم ينتهي بهم الأمر إلى ألا يجدوا الحرارة الكافية للحياة، فيزول تدريجياً آخر أثر للحياة العضوية، وستدور الأرض ـ إذ تصير كرة ميتة باردة كالقمر ـ في ظلمات عميقة، راسمة مدارات تضيق أكثر فأكثر حول شمس هي أيضاً ميتة، حتى تسقط أخيراً عليها. وتكون كواكب سيارة أخرى قد سبقتها، وستتبعها كواكب أخرى، ثم لا يبقى بدل هذا النظام الشمسي الموزع باتساق ـ نظام منير وحار ـ سوى كرة باردة ميتة»[١].

ثم يعلق غارودي على هذه النظرية مقراً بصحتها على نطاق الأرض ورافضاً تعميمها على الكون كله، وفي ذلك يقول:

«وقد وجد هذا المبدأ.. صالحاً باستمرار عندما طبقوه على أنظمة جزئية»[٢]... ذلك المبدأ «الذي لا يصلح إلا للأنظمة المعزولة والذي لم تثبت صحته إلا على نطاقنا»[٣] «ويمكن القول أن هذا القانون ليس ـ إجمالاً ـ سوى تعميم بسيط لواقعة تلاحظ دوماً هنا على الأرض، هي أن جميع أشكال الطاقة تميل إلى التحول إلى حرارة، إلى أن تشع في الفضاء، وبالتالي: إلى أن تضيع»[٤]، ومن هنا يرفض هذا الفيلسوف توسيع مجال تطبيق هذه النظرية، لأننا لو قلنا بهذا الشمول لكنا «معممين على نطاق العالم قوانين صالحة على أرضنا»[٥].

---

(١) النظرية المادية في المعرفة: ٩٨.
(٢) النظرية المادية في المعرفة: ٩٧.
(٣) المصدر نفسه: ١٠٢.
(٤) المصدر نفسه أيضاً: ١٠٥ ـ ١٠٦.
(٥) المصدر نفسه كذلك: ١٠٦.

إن تصديق غارودي وإقراره بصحة هذه النظرية على نطاق الأرض لم يورد عليه دليلاً ما لاستغنائه عن ذلك بما سرد من الأدلة التي أقامها العلماء المؤمنون بهذا المبدأ. أما رفضه للتعميم فقد تصدى هو بنفسه لإقامة البرهان عليه فقال:

إن «هذا التعميم... يتناقض مع المبادىء ذاتها... لأنه إذا كان حقاً أن الأعجوبة وحدها تستطيع أن تبعث إلى الحركة والحياة هذا العالم الذي أشرف على الموت الحراري، فيجب أن نفترض هذه الأعجوبة ذاتها لنعطي العالم منشأ»[١].

ومعنى هذا البرهان بصريح العبارة: أن القول بنظرية الموت الحراري للعالم سيجرنا إلى القول بوجود خالق لهذا العالم أيضاً. وهذا هو المرفوض عند الماديين على كل حال، وإن لم يقم على رفضه برهان أو قام البرهان على عكسه.

وقد ذكرني هذا الكلام بمقولة مشابهة رواها غارودي نفسه عن إنجلز إذ قال:

«إما أنه يجب علينا اللجوء إلى الخالق، أو أن نضطر إلى الاستنتاج أن المادة الأولى المتوهجة للأنظمة الشمسية في عالمنا قد أنتجتها ـ طبيعياً ـ تحولات الحركة الملتحمة بطبيعتها بالمادة المتحركة»[٢].

فالمشكلة الأساس عند هؤلاء أن كثيراً من الأقوال القائمة على العلم والمنطق ستجر إلى القول أو اللجوء إلى الخالق. وهذا ما يجب

(١) النظرية المادية في المعرفة: ٩٩.
(٢) المصدر نفسه: ١٠١ ـ ١٠٢.

أن يرفض ولو كان الرفض اعتباطياً وغير منطقي وغير مستند إلى أي تعليل أو تبرير.

وما أروع صراحة إنجلز إذ يقارن بين اللجوء إلى الخالق أو «الاضطرار» إلى افتراض شيء آخر، ثم يفضل ـ طبعاً ـ الافتراض «مضطراً» على القول بالخالق!!

ويقول الدكتور محمد جمال الدين الفندي:

«يؤكد علماء الفلك جميعاً أن الشمس ـ كأي نجم آخر ـ لا بد أن يعتريها ازدياد مفاجىء في حرارتها وحجمها وإشعاعها بدرجة لا تصدقها العقول، وعند ذلك يتمدد سطحها الخارجي بما حوى من لهب ودخان حتى يصل القمر ويختل توازن المجموعة الشمسية كلها[1]. وكل شمس في السماء لا بد أن تمر على مثل هذه الحالة قبل أن تحصل على اتزانها الدائم، ولم تمر شمسنا بالذات بهذا الدور بعد[2]. قال تعالى:

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠].

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ * يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [القيامة: ٧ ـ ١٠].

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

ويوضح الدكتور محمود خيري علي هذه النظرية بأسلوب آخر فيقول:

---

(١) ولعل هذه النظرية هي التي توضح لنا معنى قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ فلا ينبغي إنما تقال في مقام قد يقع خلافه ولو مرة واحدة، ولو لم يكن ذلك واقعاً أبداً لكان الأولى أن يقال: لا تدرك.

(٢) يراجع في النصوص العلمية السالفة الذكر كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» صفحات ٨ و٢٩ و٩٢ ـ ٩٣ و١٦٧.

«لقد كان الاعتقاد الراسخ في الأذهان أن الشمس تفقد من طاقتها تدريجياً، وتقل حرارتها، مما سيسبب ازدياد البرودة على سطح الأرض إلى درجة التجمد. ولكننا اليوم لا نميل إلى تأييد هذا الرأي، بل نذهب إلى القول بأن الشمس تتزايد حرارتها كلما هرمت، وسوف تصل الحال.. إلى أن تغلي مياه المحيطات الموجودة ويتشتت الجو المحيط بالأرض في أرجاء الفضاء ثم تنتهي بذلك جميع أنواع الحياة فيها».

«وإذا نحن سلمنا بأن الأرض ستتأثر من الشمس على هذه الصورة فإن الوضع بالنسبة للكواكب الأخرى التي هي أقرب من الشمس مثل عطارد والزهرة سوف يكون مختلفاً تماماً. فلن تصل حالة هذه الكواكب إلى ما وصلت إليه الأرض من تشتت جوها وغليان مياهها، ولكنها ستتلاشى من الوجود تماماً لشدة الإشعاعات التي ستنطلق من الشمس إلى مسافات تلك الكواكب»[1].

وإذن. فيوم المعاد بكل ما يدل عليه من فناء الكون والعالم وانعدام الحياة ممكن كل الإمكان، بل محتم وقطعي في المفهوم العلمي المعاصر.

❀ ❀ ❀

وإذا كان العلم الحديث قد زادنا اطمئناناً بهذه الحقيقة، فإن بعض الفلاسفة القدماء ممن لم يساعدهم العلم في عصرهم على معرفة الحقائق ذهب إلى ضرورة بقاء العالم على صورته الحالية من دون فناء أو زوال، مستدلاً على ذلك بالشمس التي لم يظهر عليها ـ رغم عمرها المديد ـ أي تغير يشعر بنقص أو ذبول، وهذا يعني أنها باقية إلى أبد الآبدين، إذ لو

(١) الشمس والحياة: ١٢٢ ـ ١٢٣.

كان مقرراً لها الفناء لبدا فيها ما يدل عليه من نقص أو تبدل أو ذبول.

ويتضح بطلان هذا الزعم من معرفة الحقائق الآتية:

١ ـ أن قانون الديناميكا الحرارية قد أعلمنا بأن الحرارة غير خالدة إلى الأبد، وأن يوم انتهائها المؤدي إلى فناء العالم سيأتي حتماً ـ كما مر تفصيله ـ.

٢ ـ أن الأرصاد قد أخبرت عن عدة انفجارات وقعت على سطح الشمس في مساحات كبيرة جداً، وقد ظهرت بقع في أماكن وقوع هذه الانفجارات لا يمكن تفسيرها إلا كونها تآكلاً في جرم الشمس، أو أنها «عبارة عن الأقسام الباردة نسبياً في المادة الشمسية»[١].

٣ ـ تأكيد علماء الفلك على وصول تمدد سطح الشمس الخارجي إلى القمر؛ حيث يختل توازن المجموعة الشمسية كلها ـ كما سلف بيانه ـ.

ومعنى ذلك كله أن فناء العالم حتمي لا مفر منه، وأن القول بخلود الشمس وأبديتها قول لم يقم عليه أي دليل.

أما استدلال القائلين بعدم المعاد بقاعدة «المادة لا تفنى» لتصويب زعمهم فهو مرفوض على كل حال. لأن القول بعدم فناء المادة أصبح من الأقوال القديمة التي تعداها العلم إلى القول بالفناء، وإن كان فناء بعض المواد أسبق من بعض.

وسواء فنيت المادة أو لم تفن فإن المسألة لا علاقة لها

(١) النظرية المادية في المعرفة: ١٢٦.

بموضوع البحث لأن المعاد تبدل في صورة المادة وليس فناء لها. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾. وفرق كبير بين التبدل والفناء!

❀ ❀ ❀

وخلاصة القول:

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧] و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨] ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٧].

وستأتي هذه الساعة «حينما تبلغ الأرض ذروة حضارتها ويبلغ الإنسان غاية تقدمه، فتأخذ الأرض زخرفها وزينتها، ويظن الإنسان أنه تحكم في كل شيء وأصبح قادراً على كل شيء، فهو يتحكم في الأمطار، ويزرع الصحارى، ويداوي ما استعصى من أمراض، وينقل القلوب والعيون من موتى إلى أحياء، ويسافر بين الكواكب، ويفجر الذرة، وينقل الجبال. إن الله يتوعدنا منذراً».

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

وفي الآية لطف وخفاء... فالله يقول أن الساعة تأتي ليلاً أو نهاراً، ولا تفسير لذلك إلا أن تكون الأرض كروية دوارة نصفها ليل ونصفها نهار، فإذا جاءت الساعة وهي تأتي في لحظة: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] فإن نصف سكانها يكونون في ليل والنصف الثاني في نهار.

ثم يصل القرآن بنا إلى العلامة الأخيرة من علامات الساعة وهي نفخة الصور وقيام القيامة.

والمشاهد التي يرويها القرآن للقيامة رهيبة يتثلّج لها الدم في العروق.. فالشمس تكسف، والقمر يخسف، والجبال تنسف، والنجوم تنكدر، والبحار تنفجر، والأرض تتزلزل، وكل الأحياء في الأرض والسماوات تصعق.

يحدث هذا مع نفخة الصور الأولى.

ومع النفخة الثانية يبعث الكل ويبدأ الحساب[1].

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٦٩، ٧٠].

صدق الله العلي العظيم

(١) القرآن لمصطفى محمود: ٢٠٧ ـ ٢٠٩.

المصادر والمراجع

١ ـ **الله بين الفطرة والدليل**، [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/ المؤلفات]، بيروت.

٢ ـ **الله يتجلى في عصر العلم**، لعدد من الأساتذة الغربيين، القاهرة (د. ت).

٣ ـ **الإسلام والطب الحديث**، للدكتور عبد العزيز إسماعيل، القاهرة ١٩٥٩م.

٤ ـ **أصول الفقه**، للشيخ محمد رضا المظفر النجف، ١٣٧٨هـ.

٥ ـ **العدل الإلهي**، [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/ المؤلفات]، بيروت.

٦ ـ **القرآن**، للدكتور مصطفى محمود، بيروت ١٩٧٠م.

٧ ـ **مجلة العدل**، السنة السادسة، النجف ١٩٧١م.

٨ ـ **النبوة**، [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/ المؤلفات]، بيروت.

٩ ـ **هوامش على كتاب نقد الفكر الديني**، [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/ المؤلفات]، بيروت.

١٠ ـ **الشمس والحياة**، للدكتور محمود خيري علي، القاهرة ١٩٦٣م.

١١ ـ **الأسفار**، لصدر الدين الشيرازي، طهران ١٣٧٩هـ.

١٢ ـ **النظرية المادية في المعرفة**، لروجيه غارودي، دمشق (دار دمشق).

المحتويات

تقديم بقلم سماحة الاستاذ العلامة السيد مرتضى الحكمي ٧

اللّه بين الفِطرة والدَّليل

مقدمة ١٣

العَدل الإلهي بين الجبر والاختيار

مقدمة ٧٧

اللهُ عَدْل ٨٠

الجبْر والاختيار ٨٨

القضاءُ والقَدَر ١٠٢

الهدى والضلال ١٠٧

النُّبوَّة

النُّبوَّة بمعناها العَام ١٢٠

مُحمَّد (ص) خاتَمْ النبيِّين ١٢٨

شُبهات... وحلول ١٤٤

تعدُّد الأزواج ١٤٥

خديجة بنت خويلد ١٤٦

سودة بنت زمعة ١٤٨

عائشة بنت أبي بكر ١٤٨

حفصة بنت عمر بن الخطاب ١٤٨

زينب بنت خزيمة ١٤٩

أم سلمة ١٤٩

زينب بنت جحش ١٤٩

جويرية بنت الحارث ١٥١

صفية بنت حيي ١٥١

أم حبيبة بنت أبي سفيان . ١٥٢

ميمونة بنت الحارث ١٥٢

العِصْمَة ١٥٣

الإمامة

مقدمة ١٦٣

الإمَامة بمفهومهَا العَام ١٦٧

النّص عَلى الإمَام ١٨١

«حديث الدار» ١٨١

«حديث المنزلة» ١٨٤
«حديث الغدير» ١٨٧
الأئِمَّة (ع) ١٩٣
الإمام الأول علي بن أبي طالب (ع) ١٩٤
الإمام الثاني الحسن بن علي (ع) ١٩٧
الإمام الثالث الحسين بن علي (ع) ١٩٩
الإمام الرابع علي بن الحسين (ع) ٢٠٢
الإمام الخامس محمد بن علي (ع) ٢٠٤
الإمام السادس جعفر بن محمد (ع) ٢٠٦
الإمام السابع موسى بن جعفر (ع) ٢٠٨
الإمام الثامن علي بن موسى (ع) ٢١٠
الإمام التاسع محمد بن علي (ع) ٢١٢
الإمام العاشر علي بن محمد (ع) ٢١٤
الإمام الحادي عشر الحسن بن علي (ع) ٢١٦
الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن (ع) ٢١٨

المَعاد

مقدمة ٢٢٩
حتمية المعاد ٢٣٥
هل أمر الله تعالى ونهى؟ . ٢٣٥
هل كانت هذه الأوامر والنواهي إلزامية أو إرشادية؟ ٢٣٦
ماذا يترتب على مخالفة الأوامر والنواهي؟ ٢٣٧
هل الوعد والوعيد الإلهي حقيقي أم لغرض الحث على الطاعة؟ ٢٣٨
إمكان المعاد والدليل عليه .. ٢٤٧
المحتويات ٢٦٣